
نسيب الشيخ جعفر
رماد الدرويش
رواية

توطئة حلم

لا أدري تماما ماالذي جعلني اكتب هذه الصفحات • ربما هي الوحشة والرغبة بالقبض على الظلال •• أو الاحساس بالـرتابة لاغير • كان هذا قبل اكثر من عشر سنوات • وتركتها طوال هذه السنين كلها • فجأة وجدتني مقبلا على تناولها هذا الصيف • فأخذت اعيد واكتب حتى انتهيت عند نقطة بدت لي هي آخر ماينبغي أن اقف عنده • وكنت اكتب يوميا •

لم يكن ليهمني أي شكل تأخذه هـذه الكتابة • فما هي بالروايه أو القصص • لاشيء من هذا • وما هي ايضا بالمذكرات أو اليوميات • انما هي محاولة تذكر • ولم تعد ، على أية حال ، الا حلما قديما •

انني اتذكر الوجوه والشارع والغابة •• بل اتذكر وجه المرأة الجميل ، وقد مر بي لبرهة واحدة • ولقد التقيت ، بعد سنين ، ببعض هذه الوجوه • وسرت فوق الارصفة ذاتها •• وحللت في جانب من الامكنة عينها • ولم يكن هذا كله الا ظلا تائها لاغد له • غير أنني اتساءل ، أحيانا ، اكان ضروريا ان اكتب هذا ؟ ألم يكن من الافضل ان ادع هذه الحياة الغائبة أطيافا في قصيدة ما ؟ وهي ستظل غريبة ، ضائعة في الغرف والطرقات ، ستظـل اشباحا هائمة تحت الثلج والمطر ؟ أم هي واجدة خلاصهـا هنا حروفا فوق الوراق ؟ مـن يـدري !

انني أكاد أتحسس دفء الايدي وبرودة الزجاج • واتذكر برقا في عيني

امرأة مرهقة عائدة من عطلها . ولا أمسك بشيء . وأعود الى اوراقي العتيقة فأجدها يابسة كاوراق الخريف الميتة . فأتأملها مكتئبا متذكرا .. وسريعا ماتزدحم من حولي الوجوه ، وتلح علي . غير ان وجها ما ،وجها اتذكره جيدا ، يبتسم لي ، عن بعد ، معاتبا متسائلا . فلا أملك الا ان أطرق برأسي متفكرا . أهذا كل ماتبقى ؟ اهذه الورقة الهشة البالية هي كل ماامتلك مما كان لي ؟ اهي الذكرى وحدها ؟ لكنني لم اكن لافكر بشيء من هذا حين كتبت هذه الصفحات . كنت أجد كل شيء حيا نابضا .

واسأل نفسي ، احيانا ، في ساعة ضيق وتذكر : أين هي الان هذه الوجوه بقلقها وضحكها ؟ أهي حية .. ميتة ؟ أتتذكرني كما اتذكرها ؟ ربما . ألم تهتف بي صديقة ، التقيتها صدفة بعد سبعة عشر عاما في صبيحة احد ، في الشارع وقريبا من المصطبة حيث جلسنا ولما تزل ، آنذاك ، صبية من صبايا الحي المرحات المتنزهات :

ــ آ .. يتهوفن !

وبعد .. هذا كل ما استطيع ان اقوله توطئة لهذه الكتابات . لكن مايهمني قبل أي شيء آخر هو انني لم أسيء الى أحد ممن تذكرتهم هنا . ولقد كنت ، في كل ما قلته هنا ، احاول أن استرجع الاحداث كما عشتها ساعتها . فأذا مابدا لاحدهم أنني ارتكبت هذا الخطأ او غيره .. فأنني لم افعله تعمد .. انما هو المرح والشباب واندفاع الطالب الاجنبي حرا في عاصمة هائلة . ولا أريد أن ابرر او اتهرب . فالخطأ يظل خطأ . ثم انني لا ادري أأنشر هذا ام اتركه هاجعا في غبار اوراقي مثلما ظل مهملا اكثر من عشر سنين من قبل ؟

حسب الشيخ جعفر
١٧ / ٨ / ١٩٨٥
بغداد

خطوات فوق الثلوج

ها أنا أغادر الطائرة • من حولي يتبرقع العراء الرمادي ببقع بيض • هوذا الثلج الروسي الشهير • سمعت عنه كثيرا ، وقرأت كثيرا • أنني اتذكر السهل الثلجي تحت السمـاء الليلية العاصفة •• تقطعـه ناتاشا المرتعشـة كالعشبة الناحلة •• كما يصفها غوركي في الصفحات الاولى من الام • لسوف اتذكرها مرارا كلما وجدتني في العراء الابيض ، تتساقط من فوقي الثلوج ، أو متطلعا عبر نافذة قطار الى الغابات والسهوب الشتوية •• ها أنا في مطار موسكو • عن قرب تلوح الغابات القاتمة في عتمة آخر النهار • وانه لنهار قصير • وكنت في مهب الرياح الخريفية الباردة • أني لاتلمس قبعتي خوفا من ان تطير بهـا الريح •• وهي تلذع وجهي لذعا لاعهد لي به • وها هي تتسلل تحت معطفي الخريفي •

كانت أضواء المطار تتلامع ، والناس يتسارعون متدثرين بمعاطف ثقيلة ، مغطين رؤوسهم بالشابكا الروسية : من الصوف أو من الفراء واللباد • لاأدري كيف لقيتني اتصافح مع شاب سوفيتي مرح •• كان ينتظرني مكلفا من قبـل

جامعة موسكو ، ليوصلني الى حيث هيء لي ان اسكن عامي الاولي في منزل الكلية التحضيرية •

كان سائق التكسي يدخن لفائف نصفها فارغ من التبغ • هي ذي سجائر الطلبة كما عرفت نيبا بعد •• هكذا تدعى في منازل الطلبة الجماعية لرخصها • وفي الطريق الطويل كنت احدق بالعتمة الرمادية المبكرة • وعن جانبي الطريق اتبين احراش التنوب الخضراء الداكنة • وكانت الشاحنات تتوالى مسرعة ، يقودها رجال أو نساء حمر الوجوه ملفعات بأغطية الرأس الشهباء والمعاطف المقفلة • كانت حركة البناء في أوجها آنذاك • وتراءت أبراج المصانع العالية أولا • ثم اقتربنا من المنازل الحمراء القاتمة الهائلة • وكانت متشابهة تقريبا • وابصرت بخنادق السكك والانفاق •• والقناطر الحجرية • كنت في موسكو •

توقفت السيارة عند مبنى قرميدي • كان أحمر قاتما • وكان الشجر عاريا نحيلا على جانبي الطريق •• والثلج يتساقط خفيفا • وكان أول ثلج • بعد دقائق كنت في غرفتي محملا بالاغطية والشراشف والمنشفة •• وبحقيبتي السفرية الكبيرة • لا اتذكر كيف وصلت غرفتي بهذا الحمل كله • كنت ذاهلا فيما لا اعرف • كل ما اتذكر هو رائحة الدهان الغريبة •• دهان الارضية الخشبية ، أرضية الحجرات والمر تطلى به في انتظار الشتاء •

كانت الكومندان امرأة ناحلة يابسة • لم اتسلم فراشي منها •• بل تلقفته طائرا • لم اسأل يومذاك عن السر في هذا اللقاء الحافل • انما ادركت بعدئذ انها تشكو من ضيق المنزل بالطلبة ، وهاهم يلقون على اكتافها بوافد آخر • كنت مفعم النفس برائحة الدهان الغريبة وشعوري انني في موسكو •• ولقد أمسى وجودي فيها ، بعد هرولة شهرين بين دائرتي البعثات والسفر ، حقيقة أتلمسها بيدي أغطية ومنشفة وثلجا ذائبا على المعطف •

وضعت حقيبتي تحت السرير ، والقيت بالاغطية فوقه • وجلست دون

ان انزع معطفي .. منكفئا ، مغلقا وجهي بيدي . وكنت في ذهــول غريب . لا اتذكر كم مر من الوقت وأنا لا افكر بأي شيء . كنت ذاهلا عن كل شيء . كنت بين طلبة عراقيين .. صافحوني وغادروا ، وقد ادركوا حالتي . ثم جاءني طالب منهم بقنينة نبيذ أحمر قائلا لي :

ــ هذا أفضل مايمكن أن تفعله الان .

جلست الى المائدة الخشبية العارية الدائرية ، وأخذنا نشرب . بعد ساعة ارتديت بيجامتي ، وتدثرت بالاغطية ، وغرقت في النوم . ولم افق الا فجرا . تلك كانت أول ليلة في موسكو .

الصباح كان شيئا آخر . بي لهفة لان أرى كل شيء . غير انني لم أكن حرا . علي اولا ان التحق بالكلية التحضيرية حيث تدرس اللغة الروسية . وها أنا بين طلبة عرب وافارقة وصينيين وهنود والبانيين ومن إميــركا اللاتينية . فأنضممت لمجموعة من الطلبة العــراقيين . وكان معنا طالب مــن اليمن هو عبد الله . وكان عددنا ستة كما اتذكر . وكنا اشبه بعابري طريق يلتقون في محطة . فمع انتهاء السنة الدراسية سنتفرق في الجامعات والمعاهد .

كان غازي يسبقني بعام . وكان اول المرحبين بــي . وكنت اراه لاول مرة . كان زميلا لاخي صاحب . وكان يكتب القصة . وكنت انشر قصائدي الاولى في الصحافة العراقية . وكنت اتلقى من أخي صاحب رسالة كل شهــر وحزمة من الجرائد والمجلات . وكنت أزور الجامعة احيانا ، وأمر على غازي في غرفته في الزونا . وكان عبد الله ساخرا ، بارعا في الجدال .

كنا نهبط ، ساعة الغداء ، الى المطعم .. وكان في الطابق الارضي مــن بناية الكلية . كل شيء كان جديدا : الوجوه ، ووقوفي في الصف منتظرا دوري لاحمل طعامي . وكنت اختار وجبتي من بين اطعمة متنوعة . وكان الحساء أولا .. حساء الخارجو الثقيل الشهي أو السلانكا ، وتعد من السمك أو اللحم

والتوابل . احيانا كنا نجد الفلفل البلغاري المخلل الاحمر .

كنت قد تسلمت المبلغ المخصص لثياب الشتاء . فتزودت بالمعطف الروسي الثقيل والشابكا . وركبت المترو . ورأيت المحطات اشبه بالمتاحف .. باعمدتها المرمرية وجدارياتها ونقوشها . وكان الخط الاول بالنسبة لي ممتدا بين محطة الجامعة واخوتني رياد القابعة تحت فندق موسكو كما يلوح لي . من هنا كنت آخذ طريقي صوب الكوم : مخزن العاصمة الكبير الاول .

ومرضت بعد شهر تقريبا . فدخلت المستشفى . كانت الردهة مزدحمة فنصبوا لي سريرا في ركن من البهو حيث تتناثر موائد الطعام . وكانت الردهة الخاصة بالنساء عند الجانب الاخر من البهو . وكنت اقرأ طوال الوقت واراجع كتاب اللغة الروسية . وذات مساء رأيت وافدة جديدة تدخل . كان شعرها الداكن كثيفا مشوشا تقريبا . وكانت جميلة ، قوية الملامح . وعيناها تسطعان . ورأيتها تبتسم لي . وسريعا ماكنا نتحدث . وكانت مختصة باللغة الانكليزية . وكنا معا طوال الوقت تقريبا . وكنت أجد كل يوم شيئا فوق طاولتي : مجلة رياضية ، شوكولا ، برتقالة ، تفاحة .. من ترى يضع هذه الهدايا فوق طاولتي ؟ أهي صاحبتي سوسان ؟ كان هذا اسمها . كانت امها ألمانية وأبوها روسيا . وكانت متزوجة . قالت مازحة مرة :

ـ أحب أن ارقص معك ؟

ـ أين ؟

ـ هذا ماينبغي أن تعرفه انت .

ـ في غرفة التدخين اذن .

ـ طيب . انتظرني هناك في الثانية عشرة من الليل .

كان هذا اول لقاء في رحلتي . كانت الاريكة القاسية فراشنا . وفي الليلة الثانية كنا نفرش بطانية احملها معي . وفي المستشفى التقيت بفالا الممرضة

وكانت في التاسعة عشرة من عمرها • وحين تخرجت كنت التقي بها مساء كل سبت في محطة الجامعة • وكان علي ان اتعلم الرقص في مدرسة خاصة في الجامعة • فالتحقت بها لاتردد ثلاث مرات كل اسبوع وطوال ستة اشهر •• وكانت امسيات ممتعة • وفي الجامعة ، في القاعة المرمرية الفسيحة كانت تقام حفلات الرقص •

في البداية يتموج التانغو بطيئا دافئا • ويدور الفالس بانحدار وتماوج • ومع انتصاف الليل ينوح الجاز احيانا • كلما رأيتني في الحشد الهائل متمايلا مع ايقاع الجاز النائح •• اتصورني في جناز تاريخي كبير • جناز جيل يجد نفسه فوق شفا هاوية • وكانت فرقة الجاز من الطلبة الافارقة • وكان التانغو يحملني كامواج البحر المقمر تحت ريح رخاء • والفالس يدور باجنحته الذهبية ، وسط غيم وضيء خافت ، الى حدائق القرن التاسع عشر وقصوره • وكنت اصحب فالا معي احيانا •

اني اتذكرها منتظرة فوق مصطبة المحطة •• وموجات الريح الدافئة المكيفة تتلاعب بخصلات شعرها الاحمر الداكن • كنت اراها في معطفها الازرق ، شادة رأسها بمنديل وردي ، وبسمتها تتلامع فوق شفتيها • غالبا ماكنا ندخل السينما • وكان مطعم باكو ملتقى اول الشهر • وكنا نقضي ايام الاحد في غرفتها • وكانت تريد أن تتزوج • وكنت أوكد انني لن اتزوج غيرها •• انما بعد ستة اعوام ، بعد تخرجي • كنت اعيش حياة حرة لايعرفها الا طالب اجنبي في عاصمة هائلة •

وكان معي في المنزل الاول عزيز • وموسى • غالبا ماكنا نتجول نحن الثلاثة كلما وجدنا فرصة • وكنا نزور صديقاتنا في شققهن • وكان عبد الله لايفتأ مجادلا في السياسة والادب • وكثيرا ايظل ملتفا بغطائه ساعات من النهار • وكان يدعو تناومه هذا احتجاجا سلبيا على الحياة • وكنت اقص عليه

اخباري مع فالا • وكان يصغي دونما ملل • وكان يرى تعلقي بها شيئا لامعنى له • وكنت غارقا آنذاك في لون عينيها العسلي ، وبسمتها الندية الملتمعة •• وفي نزهاتنا الليلية فوق الثلوج •

وكانت الثلوج تذوب ، والربيع يلوح هزيلا في البراعم والخضرة الناحلة الندية • وكان لابد من ان افترق عن فالا • وقد وجدت بغيتها في طبيب سيتزوجها قريبا • فافترقنا في زقاق ضيق مبلل بالمطر • ولم يبق في يدي منها غير بطاقة الباص الوردية ، فعصرتها والقيت بها الى الريح • وفي غرفتي كنت احتفظ بهديتها لي في ليلة رأس السنة : معجم اللغة الروسية • وعدت وحيدا ، موحشا اتجول في محطات المترو • وكانت الخضرة تنفجر في كل مكان • وكان قلبي مقفرا ، مثقلا بالسحب المظلمة •

غير أنه الصيف • والفتيات يملأن الارصفة والحدائق • وقريبا سيقلنا القطار جنوبا ، لنقضي العطلة في مخيم الجامعة القائم قريبا من البحر الاسود في القرم •• ولنعمل في قطف الفاكهة • وكان المخيم متجمعا في بقعة خضراء بين التلال وبساتين الفاكهة • وكنا ننهض مبكرين في الرابعة صباحا • فنركب السيارات صوب المزارع • وطوال الطريق الريفي كان الطلبة يغنون ويمزحون وكنا نقطف الكرز والخوخ والمشمش • وبعد ان نفرغ تحملنا السيارات نستحم في البحر أو في البحيرات المتناثرة بين التلال • واوشكت مرة أن اغرق في البحيرة • ابتعدت عن الشاطيء لاصل نقطة نائية • وقريبا مني كانت تسبح مجموعة من الفتيات • وكن من الرياضيات كما لاح علي • فحاولت ان اتبعهن • وكن قد اوغلن بعيدا • وفجأة احسست بتخشب في ساقي • فلم اعد استطيع حراكا لها • فانقلبت على ظهري • تلك هي وسيلتي الوحيدة لاستريح • وطاف بذهني انني سأغرق • وكنت بعيدا بعدا هائلا عن الشاطيء •• وما كنت اتبين منه الا اشباح اشجار • وكنت ادفع بجسمي في بطء باتجاه الشاطيء • وكنت

تقدم ببطء • غير انني استعدت بعض قواي •• وانحسر التشنج عن ساقي • فاقتربت من الشاطيء • وكانوا يلوحون لي ويصفقون •

وفي الليل كنا نرقص • وبعد الحفل نتنزه مع الطالبات في الطرق الزراعية البيضاء •• او مع الصبايا القرويات • وغالبا مانقضي الظهيرة على بلاج البحر ، تحت الشمس •• فوق الرمال الحمراء •

وها أنا ثانية في موسكو • وكان صيفها الاخضر القصير يوشك أن ينهزم • وكنت في انتظار عنواني الجديد •• متسكعا مع هذه الفتاة أو تلك من صبايا الحي •• في الحدائق العامة الهائلة ، وفوق تلال لينين قبالة الملعب • وفي الهواء الليلي العابق أحس برائحة الخريف • وكانت الاوراق المتساقطة تتكوم تحت الاشجار • وكانت الخضرة تصطبغ بالصفرة والحمرة • وكان اللون الاحمر الداكن هو الغالب في الغابات • احيانا كنا نتجول في بارك غوركي او وكولنكي •• أو نأخذ قاربا من المرسى فنقوم بجولة في النهر • وكان الترام يمر تحت النافذة في منتصف الليل برنينه المعدني النحيل • وكانت في وداعي تونيا • كانت هي الفتاة الوحيدة بين المناوبات • كانت جادة وجميلة • طالما حاول الطلبة اقامة علاقة ما معها • ولم تكن لتتيح مجالا لاي منهم • ثلاث مرات كل اسبوع كانت تجيء الى المنزل •• لتأخذ مجلسها عند مكتب المناوبة في المدخل : ترد على التلفون وتشرف على حركة المنزل • اني لاتذكر تونيا الشاحبة بعينيها الزرقاوين وقوامها شبه الممتليء وساقيها الرائعتين • وبوجهها الجميل الحازم كانت تصد اية محاولة للتقرب منها • اني لاتذكرها جالسة عند المكتب ، منصرفة لحياكتها أو قراءتها •• لاتهزها موسيقى الرقص القادمة من الصالة مساء كل سبت •

كانت تونيا في وداعي • وكنت انتظر التاكسي ليقلني صوب حي آخر ، حيث هيء لي ان اقطن غرفة في منزل منه • كان حيا بعيدا قريبا من ضواحي العاصمة •• في اطرافها الجديدة النائية •

ثم ارتحلت جنوبا لاقضي شهرا عند البحر الاسود • وحين رجعت كان بهو الفندق خاليا من المقهى • واعيد فتحه ، ثانية ، في الجانب الاخر من الفندق •• تحت المطعم • وكان جديدا بقيمته ونادلته • وسألت عن نينا فما وجدت سبيلا يوصلني اليها • وافتقدنا البهو ورحابنه •

كنت أمر على الجامعة فالتقي بغازي واصدقائي من اليمن : عمر وعبد الله وأبي بكر وعبد الكريم • اني لاتذكر عبد الكريم وابتسمته الطيبة الابدية • وكان عمر مبتلى ، آنذاك ، بالحائط الاصم • كلما أقمت علاقة مع فتاة واجهك الحائط نفسه : أن تتزوجها أو تفترق عنها • وكان على عمر أن يتزوج صديقته الشقراء السمينة أو يبتعد • وكانت تطارده وتنقض عليه أينما ولى وجهه • كانو جميعا في غرفتي • كان محمد مرحا كعادته ، وعبد الله هازئا بالحياة •• وكان ابو بكر هادئا ، أخذا سمة الفلاسفة • وكانت الشقراء العاشقة متورمة العينين جراء بكائها الطويل • وكنت ارى دموعها تتساقط كقطرات المطر الكبيرة •

كان عزيز يزورني ، احيانا ، مصطحبا صديقته الطيبة تمارا • وكان موسى في مدينة اخرى •• فلم نعد نلتقي الا في العطلات •

وشربت ، مرة ، اكثر مما اعتدت • وكان في غرفتي اصدقائي من اليمن • فتركتهم وخرجت • كنت مسرعا ناحية السينما لالتقي بزميلتي تمارا البلطيقية وصاحبة لها • وفي الصالة المظلمة أحسست بألم ممزق فأسرعت لاتقيأ في المغاسل • أكانت مغاسل ؟ لاادري • اذكر انني سقطت على الارض • لكن أين ؟ اتذكر نساء في ثياب بيض كالممرضات أو عاملات البوفيت يحطن بي ويلغطن • اتذكر ظلمة خافتة وأشباحا • وكنت أحس ببرودة البلاط • أحس بالارض الرطبة المظلمة • أهو طين ؟ ام هي ارض الطفولة الرطبة ، والطفل عند حافة المستنقع ؟

أغنية الفتاة الرصينة

كانت اشجار الغبيراء حانية علــى المصاطب • وكــانت اوراقها متلامعة بالرذاذ الناعم • والعناقيد الحمراء كالجمرات الخابية • كانت الاشجار واطئة آنذاك • كنت اراها لاول مرة ، وقد توقف التاكسي عند منزل بست طوابق ، حيث قدر لي أن اعيش خمس سنين • منزلنا ٩ ر ١١ على جانب من شــارع دوبرولوبوف المتصالب مع شارع روستافيلي • كان شارعنا اشبه بالحديقــة العامة • كان ملتقى صبايا الحي صيفا • عبــر روستافيلي يقع مخزن الحــي الكبير •• وعند انتهائه بعد موقف باص تقوم سينما أريول ومقهى الحي •• وكان مقفرا طوال الوقت تقريبا ، ربما لانزوائه في الشارع الخلفي • وعلــى جانبي دوبرلوبوف مطعمان : احدهما جوار منزلنا ، والاخر عبر الشارع •

كان النهار غائما حينما وصلت • كانت الريح محملة برائحة المطر ، مائلة بالرذاذ الناعم •• والاشجار رطبة متخافقة • السحب ثقيلة ، ونحن في أخريات الصيف • كانت الساعة الحادية عشرة تقريبا • وكان يوما ذا نكهة خاصة وطعم

خفي ، كان اشبه ، في تشبثه بالذاكرة ، باول يوم وصلت فيه الى هذه المدينة لاول مرة ، كأن الرذاذ يصيب وجهي وشعري ، وكنا قد اجتزنا مسافة بعيدة منذ جريو ميشكينسكايا الخامسة حتى دميترسكوي شوسيه .

دفعت بابا خشبيا ثقيلا ، ودخلت حاملا حوائجي ، استقبلتني المناوبة الكهلة الطيبة : ليدا ايفانوفنا ، وقادتني الى مكتب الكومندان نيكولاي اندريفيج ، كان رجلا خشنا ، صارما ، وكان الطلبة يشيعون عنه انه قد عمل مشرفا على معسكر اعتقال .. كما سمعت فيما بعد .

أعطيت مفتاحا ، ولم يقذف غطائي وشراشفي ، هذه المرة ، في وجهي كانت المناوبة الطيبة معي ، أخذة يدي الى غرفتي في الطابق الخامس كان رقم غرفتي ٢٠٨ ، كنت مزودا ببطانيتين زرقاوين وشراشف ناصعة ومنشفة . كانت النافذة عريضة تطل على فناء رحب وزقاق يتفرع من الشارع ، في جانب من الغرفة سرير مريح تنطرح عنده سجادة صغيرة ، وفي الركن منها مقعد ومكتب ثقيل ، وتتوسطها مائدة دائرية خشبية وكرسيان ، الى جانبي الباب خزانتان مثبتتان بالحائط .. كانت الاولى منهما لثيابي ، والاخرى لعدة الطبخ ، في قاعها سأختزن البطاطا : وجبة الطلبة الشائعة ، وعلى رف منها وجدت وعاء الشاي الالمنيومي وأنية الطعام والاقداح والقدور ، وعلى رفها العالي سأضع السكر وعلب الشاي الصغيرة والمعلبات ، ما أنا ، هنا بزائر أو سائح ، ان اقامتي لطويلة ، والليالي باردة مديدة ، وبين حين وأخر ينبغي ان اتناول طعامي في غرفتي : وجبة لاتكلفني الا قليلا .. مادمت مصرا على ارتياد السينما والمسرح .. وتمضية الوقت بين فترة واخرى في المقهى أو المطعم الفاخر ، وكنت مصطحبا موقدا كهربائيا صغيرا ، فوق هذا الموقد يسكنني تدفئة الشاي كلما برد ، وما اشد احتياجتي لقدح مترع بالشاي الحار وأنا اقرأ حتى ساعة متأخرة من الليل .

في الطابق مطبخان : في كل جناح من الممر غرفة مزودة بصفين من طباخات غازية • والتدفئة جيدة في الغرف والممر • وكانت تحملني الى المعهد واسطتا نقل : الحافلة الكهربائية رقم ٣ والباص ١٨ • كان معهد غوركي الادبي ، حيث ادرس ، في مركز المدينة • وكان خاصا بالناشئة من الادباء • وكانت أقرب محطة مترو في طريقنا ، أنذاك ، هي محطة نوفو سلوبو دسكايا • كانت تقع في المنتصف من شارع جيخوف •

كنا نترك الحافلة قرب ساحة بوشكين ، حيث ينتصب تمثال الشاعر الروسي • ونعبر شارع غوركي • ننحدرين في الجانب الايمن من بولفار تريفسكوي • وبعد خطوات نمر بسياج المعهد الحديدي ، وحديقته القديسة بأشجارها العالية • كان معهدنا ، يوما ما ، قصرا تمتلكه أسرة الكاتب الثوري كيرتسن •• تمثاله ، اليوم ، في القلب من الحديقة العتيقة • وكان الخريف أحمر ذلك العام •

كانت السماء ملتفة بالسحب المتراكمة ، والهواء باردا نديا • وكنت أعود الى مسكني مرهقا بعد يوم دراسي طويل • والنساء في الشوارع والحافلات • والفتيات يضحكن تحت الرذاذ الناعم • وتمر بي امرأة ما متموجة في معطفها الخريفي ، وتمر الامسية غائمة ممطرة • وكنت أذهب الى السينما وحيدا أو مع فتاة من الحي التقيتها صدفة • والليل يهبط مبكرا فوق المدينة الهائلة • ومن بعيد تتراءى النجوم ياقوتية فوق أبراجها السامقة • وطالبات المعهد في غرفهن في الطابق الثالث • فكنت أمر على زميلتي ميرا الشاعرة الشركسية المسلمة •• تتجرع الشاي وتتناول وجبة بسيطة : شرائح الخبز مع الزبدة أو الجبن • وفي الصباح كنت انتظر الحافلة •

ـ ممكن أن اجلس هنا ؟

التفت فرأيتها : تنيانا • طالبة من الكورس ، وجدت الكرسي الثاني خاليا

الى جواري • وكان الاستاذ قد بدأ محاضرته •

عندما انتهت المحاضرة أسرع الطلبة الى الممر يلفطون أو يدخنون • كنت واقفا مع تتيانا أتحدث عن جانب من المحاضرة • كان ثوبها الاحمر القاتم يلف قوامها البديع • وكان شعرها مسرحا ، منحدرا فوق كتفيها • في زرقة عينيها العميقة ظلمة بعيدة : طيف كآبة او توحد • لون وجهها أقرب الى السمرة الخفيفة • لكن جيدها الجميل ابيض ناصع ، يوحي بلون جسدها كله • كنا منشغلين في حديثنا • وكنت أريد ان ادخن فخطونا صوب الباب • وها نحن نسمع الجرس يدق • فرجعنا ضاحكين •

كنت أتطلع معجبا باصابعها الشاحبة المعتدلة ، واهدابها الطويلة ، واستدارة وجهها الجميلة • وكان وجهها قد أجتذبني منذ رأيتها لاول مرة • ورأيتها تبدأ حوارا معي على قصاصة ورق :

ــ انت شاعر ؟

ــ أحاول الشعر • وانت ؟

ــ احاول القصة •

ــ من اية مدينة انت ؟

ــ من خاركوف •

في الساعة الثانية ، في فرصة الغداء كنا نقف معا منتظرين دورنا في بوفيت المعهد • لم تشأ ان تشرب الا قدحا صغيرا من البيرة • وكنت افكر : هل ادعوها اليوم الى السينما ؟ أم اسألها ان تريني بعضا من قصصها أمام كوب شاي في غرفتها ؟

هي ذي جالسة الى جواري عند منضدة الدرس • ولا اظنها ستغير مكانها هذا غدا أو بعد غد • وكنا في الاربعاء • سأجد فرصة لادعوها ليلة الاحد سنقضي الامسية في مطعم أو مقهى • وتذكرت مقهى أرفا في الزقاق القديم

حيث لما تزل أنفاس القرن التاسع عشر تتردد في هذا المسرح او المقهى • انني لاحب هذه الطرقات المنحدرة عن جانبي شارع غوركي • هنا مقهى الممثلين الصغير الضيق كغرفة ، والكنائس الصغيرة ، والمسارح •

حين أنتهت آخر محاضرة كانت تتيانا بين زميلاتها • كنت أود ان نغادر معا الى المنزل • وها هي في حديث مع الطالبات • وأنا في الممر • ربما كن يزمعن الذهاب الى المعرض الفرنسي ، فما زال قائما في بارك سوكولنكي • فلقد سمعت احداهن تذكره • وهبطت السلم لاخذ معطفي من المشجب • وسمعت ميرا تهتف بي أن انتظر لامضي معهن الى المعرض • ثم توقفنا في ساحة المعهد • وكن اربع فتيات • وكانت تتيانا في معطفها الخريفي الجلدي الابيض • وكان منفتحا عن عراه • وكانت تبتسم لى تحت الرذاذ الناعم • قالت ميرا :

ـ الا تريد أن تأتي معنا ؟

ـ بل اريد •

ـ فلماذا ابتعدت اذن ؟

واضافت ملقية على تتيانا نظرة باسمة :

ـ أم تريد ان تنفرد بتتيانا وحدك ؟

قالت تتيانا رانية الي بارتياح :

ـ لعله ذاهب الى مكان أخر ياميرا •

ـ لست ذاهبا الى أيما مكان • سأمضي معكن •

فانحدرنا صوب شارع غوركي •• قاصدين محطة مايكوفسكي • وترجلنا في أخر محطة مترو ، محطة سوكولنكي • وكنت بين هذا السرب من الطالبات • وتجولنا طويلا في المعرض • وتوقفنا أمام صور لاراغون والوار ومالرو مرسومة فوق قبة • ثم خرجنا الى الحديقة العامة الهائلة • وهي جزء من الغابة

نفسها • هنا ، قديما كان يقام سباق الخيل • كنا نمر باحواض الزهور المتنوعة والمماشي بين الاشجار • وحين احسسنا بالجوع وقفنا عند بائعة الفطائر الحارة اللذيذة • كنا في اخريات الصيف ، والخضرة المبتلة أخذة بالتلون الخريفي • في هذا الوقت من العام تتداخل أذيال الصيف بمقدم الخريف • الزهور في تفتح • غير أنك تحس في شذاها والوانها بكآبة ما ، كآبة الوداع ربما • وكانت السماء مدلهمة بالسحب • والمطر يتساقط ناعما بين حين وأخر • وتحس بلذعة برد في الهواء •

استيقظت • بكرا • لم اشأ ان اركب الحافلة الاولى • وتركت الثانية تمر • كنت انتظرها • وجاءت تتيانا • رأيت معطفها المطري الابيض ، وقد انعطفت الى الشارع العام • كانت وحدها • حيتني بلطف ودفء ، وفي صوتها رنة سرور • في زرقة عينيها الصباحية الندية ، في تورد وجهها رأيت فرحا لم تستطع اخفاءه • واقتطعت من صندوق الحافلة تذكرتين وتبعتها لاجلس بجانبها • طوال الطريق كانت مقبلة نحوي تتحدث ، ملتفتة الي بوجهها النضر ، في طراوة الصباح الناعمة • احيانا كان شعرها الكثيف المنحدر حول وجهها يلامس وجهي • وكانت تتقرب مني بوجهها باسمة • وفي عينيها فرح انثوي عميق • في مثل هذه الرحلة ، في الحافلة ، مع فتاة مثلها لاتحس بالطريق الطويل •

ونزلنا عند بداية شارع جيخوف • في الجانب الاخر تقوم كنيسة بيضاء صغيرة ، برجها ناحل وسياجها مغلق • هي ذي بقايا دير قديم • كان مبنى متهدما ، وقد أزيح ، هنا تشيد سينما روسيا • وصعدنا رصيف ازفيستيا في جانب من ساحة بوشكين • واجتزنا شارع غوركي • كان البولفار مجللا بالاشجار العالية القديمة : اشجار الحور والدلب والبلوط والصنوبر •

ودخلنا الممر الى المعهد غير مسرعين •• فما زال لدينا وقت • كانت اشجار

الحديقة تقطر ماء ، والسماء منذرة بمطر • ودعوتها لتفطر معي في بوفيت المعهد • فشكرتني قائلة انها تناولت افطارها في المنزل ، لكنها ستشرب معي فنجان قهوة • وكنت اسألها أي مقهى وجدته اقرب الى نفسها •

ـ هل تعلم ؟ انني أظن انك تعرف موسكو افضل مني •

ـ لكنك زرتها من قبل •

ـ ليس كثيرا • اتعلم ؟ انني لم اركب المترو منذ مجيئي الا ثلاث مرات • وكانت المرة الاخيرة معكم بالامس •

هل ترددت على المسرح ؟

ـ مرة واحدة مع ميرا •

قلت متأملا عينيها الجميلتين :

ـ أكون سعيدا لو ذهبنا معا الى المسرح •

ـ أنا احب المسرح •

ـ هل شاهدت عرض « منظر من فوق الجسر » ؟

ـ هل تعلم ؟ كنت شاهدتها مع ميرا •• وهي اول مرة كما قلت • كنت متشوقة لمشاهدتها وأنا في خاركوف •

ـ والنورس ؟ هناك اخراج جديد لها •

ـ لكنها لم تبدأ بعد •

ـ أظن انها ستبدأ قريبا • فأذا كنت راغبة بمشاهدتها سأحصل لنا على تذكرتين • سيكون عرضا شائقا •

ـ سأكون ممتنة لك •

ـ حين رأيتك لاول مرة حسبتك من موسكو •

ـ ولماذا ؟

ـ لا ادري • مجرد تصور •

ـ أنا كنت اتصورك من القفقاس • ماكنت أظن أن طالبا اجنبيا سيدرس هنا •• في معهدنا هذا •

ـ لكنك مصيبة تقريبا في تصورك • فعددنا ، نحن الاجانب ، في هـذه الكورسات الخمسة كلها لايزيد على خمسة •• وثلاثة منا من منغوليا •

كانت تضحك في هدوء • وهي بطبعها ، كما يلوح لي ، جادة ورصينة • لكنها عذبة • كانت سمرة وجهها الخفيفة ، وكآبة عينيها النائية ، وهذا الشحوب في اليدين •• وبياض العنق الناصع يوحي بانطوائها على توق رائع أصيل ، ومودة صادقة عميقة •

وكنا معا في عودتنا الى المنزل •• في الحافلة ٣ في زحمة أخر النهار • كنا واقفين في أخر الحافلة • وكنت ممتلئا فرحا بوجهها وقامتها البديعة • كـان شعرها داكنا ضاربا الى الحمرة • كنت اشمه عبقا مندى كلما انفتح الباب ، واندفعت هبة من ريح محملة ببقايا مطر •• فدفعته نحوي • حين جاءنا صوت السائق •• قائلا في مكبره الصغير : زليوني دوم •• أي « البيت الاخضر » دهشنا معا • لم نكن ندري أننا وصلنا • فما كنا منتبهين الى الطريق •

ـ تتيانا •• ألديك وقت للذهاب الى السينما الليلة ؟

ـ الى السينما ؟ ممكن • ولو أنني مرهقة • انما في الدور الاخير مـن فضلك • هل تعلم ان وجود سينما بهذا القرب من المنزل ميزة عظيمة ؟

قلت محاكيا طريقتها في التساؤل :

ـ هل تسلمين أن الفلم فرنسي ؟

ضحكت قائلة ، وهي تلفظ الكلمة الاولى ممتدة عميقة :

ـ من فضلك لاتقلدني •

ـ أين تودين أن انتظرك ؟ أم امر عليك في غرفتك ؟

ـ كما تشاء •• لافرق عندي •

ــ سأمر عليك اذن •
ــ ستجدني منتظرة •
ــ لكنني لاأعرف رقم غرفتك •
ــ أنا اسكن في الغرفة ٧٣ •

وتوقف المصعد في الطابق الثالث • وفي الفسحة بين الممرين الطويلين كانت تتيانا تلوح بيدها لي • ولم أصعد الى الطابق الخامس • عدت هابطا الى الطابق الارضي • كنت ناويا شراء تذكرتين • من يدري ؟ فقد لاأجد تذاكر بعد ساعتين او ثلاث • وحينما عدت كان الليل يهبط غائما والسماء تبتسم لي • وفي التاسعة والنصف هبطت لاطرق بابها •• مازال لدينا وقت • وفي السيما سنشرب زجاجة برجوم •• أو أي ماء معدني أخر • وتتصفح المجلات •• أو نهبط الى القبو حيث المرمى ، لنجرب مهارتنا في صيد أرانب أو ثعالب من الكرتون ببنادق صغيرة •

لم تكن وحدها • كانت تشاركها الغرفة زميلة لها • وفي ليلة الاحد كنا في مقهى آرفا • تركنا معطفينا في غرفة المشجب • وأعطيت رقما واحدا لهما • وجلسنا عند مائدة خالية • أوصيت على زجاجة نبيذ بلغاري وعشاء • كان مقهى ضيقا غير انه جميل • وبعد نصف ساعة حل عند مائدتنا اثنان : فتى وصديقته • كانا منشغلين في حوار بينهما • ثم اخذنا نتحدث معهما أحاديث عابرة قصيرة • كان لغط الجالسين يتعالى همهمات في الصالة الضيقة • لم تعد الاصوات منخفضة • انها ترتفع مع انحسار الخمرة في القناني •

بعد المقهى كنا نتمشى غير مسرعين في الطرق الخافته المبتله •• وكانت وجهتنا موقف الحافلة • لم يكن الشارع بعيدا • كان هذا شارع بوشكين القديم الضيق • وكنا نخطو متقاربين • كانت المباني الجرانيتية حمراء قاتمة ، واليمام لائذا بالافاريز • وخطى العابرين تخفق متباعدة • وكانت المخازن

مقفلة ، والمصابيح تأتلق في فوانيسها الكبيرة •

وفي المصعد الى طابقها •• قلت :

ــ لم تتجاوز الساعة الحادية عشرة الا قليلا •

ــ اكنت تود ان تتأخر اكثر ؟

ــ معك انت ؟ أود هذا كثيرا •

كنا في الفسحة عند غرفة التلفزيون • وكنت استطيع ان ادعوها الى غرفتي لتناول الشاي • لكنني سأحس بالوحشة حين تغادر • فما كنت أريد ، مــع رصانتها هذه ، لان ألح على ابقائها معي حتى ساعة متأخرة • قلت :

ــ سأوصلك الى غرفتك •

ــ يمكنك الجلوس اذا كانت صاحبتي يقظى •

كان الباب موصدا • هذا يعني أن صاحبتها لم تعد من جولتها بعد • ولو التفتنا الى اللوحة الصغيرة حيث تعلق المفاتيح في الطابق الارضي لوجدنــا مفتاح الغرفة هناك • قالت :

ــ سأتي بالمفتاح •

ــ ابقي انت • سأجيء به •

حين عدت كانت عند بابها في حديث مع كاتبة من الكورسات العالية •• ملقية معطفها الخفيف على ذراعها • وفي غرفتها كانت تقول :

ــ سأعد لنا شايا • انتم معشر الشرقيين مولعــون مثلنا نحــن الروس بالشاي • لكن اتشربونه خفيفا كما اعتدنا نحن ؟

ــ عندنا يفضلونه قويا داكنا •

ــ أذن سأعده هكذا •

ــ شكرا • أنا احبه خفيفا •

وحين عدنا من المسرح دعوتها الى غرفتي لتتعشى • لكنها أرادت ان تتعشى

فيَ غرفتها • وكانت صاحبتها هناك •• ولم تكن مرتاحة لصداقتي مع تتيانا • ولعلها تراها علاقة عابرة • لم تشأ ان تبقى معنا • فمضت الى غرفة ثانية •

ــ هل تعلم ؟ كتبت الى صديقتي في خاركوف عنك •

ــ أهي طالبة ايضا ؟

ــ كلا • انها تعمل في مكتبة •

ــ وجميلة مثلك ؟

ــ من فضلك •• لاتجامل •

ــ اني اراك أجمل فتاة •

فأطرقت برأسها •• واخذت تتجرع شايها ببطء • قلت :

ــ أود أن نسهر ليلة الاحد في المطعم •

ــ الا ترى هذا بذخا ؟

ــ أبدا • سنقضي سهرة ممتعة •

ــ في المنزل المجاور •• كل سبت تقام حفلة رقص • يمكننا الذهاب لتمضية الامسية هناك •

ــ بل سنقضي الامسية في مطعم اوزبكستان • سنجلس فوق ارائك شرقية مغطاة بالطنافس •• ونشرب الشاي الاخضر •

احيانا كنا نلعب الكرة الطائرة في ساحة المعهد •• في أخر المحاضرات • وكنا فريقين مختلطين من الطلبة والطالبات • وفي المطعم كنا نرقص • كان مذاق الكونياك حادا ومثيرا • وكنا نحس بالدفء يشيع في عروقنا • ومع ألنغم الحالم كنت أضمها برفق •• وأحس بلدونة الجسد الطري الناعم تتموج بين ذراعي •• وهي تميل برأسها الجميل فيلامس شعرها وجهي •

حين نزلنا من الحافلة مررنا على المنزل دون ان ندخله • كنا نود ان نتمشى ، ونتشم الهواء البارد الندي • كان الليل مدلهما قاتما في الاعالي • وكنا

نذرع المشى بين الاشجار • وكان شبه مقفر • غير أننا كنا نرى هنا أو هناك ، فوق المصطبة أو في منعطف ما اثنين في عناق • وكنت ألف ذراعي على ظهرها •• ثم اوقفتها بين الاشجار مقبلا وجهها المنفعل الدافيء • تلك قبلات حارة متقطعة • فهي تقاوم وتمتنع اولا •• أو تدعني اقبل الخدين دون الشفاه • لكنني أطوق القامة الشهية قويا ، مقتربا بشفتي من فمها الراغب الممتنع •• واقبل زاوية منه • فتشيح متوسلة ، راجية ان اكف • وفي همساتها رغبة وحب • وأنا لا اصغي • انما أخذ الشفة السفلى بفمي واقبل • ولم تعد تقاوم • فهي تضمني وتمنحني فمها كله • فننهل من ريقنا معا ، متعانقين تحت الشجر المظلم والرذاذ •

حين تركنا المصعد في الطابق الثالث وقفنا متأملين وجهينا باسمين • كان وجهها مستثارا ، والوجنتان في لون الشفق المشتعل •

ـ الى الغد •
ـ تعالي معي الى الغرفة •
ـ كلا • ليس الان •
ـ تعالي •
ـ ياعزيزي الوقت متأخر جدا •
ـ تعالي •
ـ الى الغد •
ـ لكم انت جميلة :

وامسكت بذراعها • فأنفلتت مسرعة في الممر • حين انهض مبكرا كنت انتظرها لنركب الحافلة معا ، وبعد المحاضرات كنا نعود مترافقين كل يوم • وكنا نتعشى في المطعم المقابل •• أو نعد لنا عشاء من البطاطا او السجق والجبن • كنت اقبلها في الغرفة ، وحين اقترب بها من السرير تتمنع وتتضرع أن ادعها •

بعد السينما تتعانق في ممشى منعزل .. او نأخذ مكاننا فوق مصطبة لاقبلهـا طويلا . في آخر الاسبوع كان موعدنا في السابعة . وكنت انتظرها في الغرفة . كانت المائدة مهيأة . وعلى الكرامفون كنت اضع اسطوانة . وسمعتها تطرق الباب :

ـ ممكـن ؟

ـ كأنني انتظرك منذ عام .

ـ لكنني جئت في الوقت المحدد .

قلت وأنا ادعوها بيدي لتجلس :

ـ اذا كنت لاتمانعين .. ساطفيء مصباح السقف ، واشعل الاخر علـى الطاولة .. ضوءه مريح .. ونحن الان ، ياMilيكتي في سهرة حب وخمر .

ـ وتقرأ شيئا من شعرك .

ـ سأترجم لك ابياتا لشاعرنا ابي نواس . كان مبتلى بحب صبية عنيدة وساحرة مثلك .. اسمها جنان .

ـ جنان ! ماذا تعني بلغتكم من فضلك ؟

ـ تعني الرياض أو النعيم .. اذا شئت .

ـ اسم جميل !

كنا نشرب على مهل ونصغي الى الموسيقى . ثم شغلنا بالحديث . كنت احدثها عن الشعراء العرب . واوصلني الغزل الى الشعراء العذريين ، فندمت على ذكرهم في هذه الساعة . فنهضت الى المكتب ، وجئت بكتاب ذي جلـد اخضر : مجموعة من شعر سعدي مترجمة الى اللغة الروسية .

ـ اسمعي هذا الشاعر الشرقي من فضلك .

واخذت اقرأ :

في صفاء قلبي تنعكس صورتك الرائعة

ووجهك البديع يفتن الالباب .
ملء عينيك البراقتين يتوهج روح حي
كالخمرة الكريمة في القدح البلوري الشفيف .
اخيلة البشر منهزمة دون تصورك
ولساني الطليق أخرس امام جمالك .
قد يفلت طير البراري من الاحبولة
أما انا فحبيس ابدا في حبائل ضفائرك .

حينما كنا نرقص كنت أضمها الي بلطف ، ووجهي يلامس وجهها . وكنت اقبلها باشتهاء . عيناها تبرقان في الضوء الخافت ، ووجنتاها في تورد . كان القدحان الاخيران مهملين . وكنت اقترب بها من السرير . ثمة توسلات مبهمة ، مرتعشة لان ادعها ... ويدان تقاومان مضطربتين . وفي عيونها وشفاهها التائقة رغبة واختلاج . القامة البديعة الحارة تشد بقوة ، والوقت يمر . هوذا جسدها اللدن الشهي يتمنع متقلبا على الفراش ، وقد انحسر الثوب عن فخذيها . لكننا معا ، في عناق لا فكاك منه . ويداها لاتقاومان الان .. صباحا ، بعد الساعة العاشرة ، نهضنا من النوم . وكنا جائعين . الوجبة الكاملة الحارة تبدأ في مطعم الحي في الحادية عشرة . ارتدت ثيابها وانحنت تقبل وجهي وصدري . بعد ساعة كنت انتظرها في الشارع البارد .

طوال الشتاء الطويل كنا معا . في ليالي العطلات كنا ندخل السينما أو المسرح . بين حين وأخر يترجم لي زميل شاعر قصيدة فأنفق عن يسر كان هذا عونا في ان نرتاد المطعم الفاخر مرتين في الشهر . وفي اغلب الاحايين كنا نتعشى معا . وكانت تجيء الى غرفتي لنعد وجبة . أو أمر عليها لاشاركها الشاي أو وجبتها الطلابية الشهية . احيانا ، حين تكون منشغلة بالكتابة ، كانت تطرق بابي في ساعة متأخرة لتبيت معي حتى الفجر . وحين اعود متأخرا من زيارة

اصدقائي في الجامعة .. كنت اطرق بابها طرقا هينا . فتطل بوجهها من ظلام الغرفـة :

ـ انتظرني في غرفتك .. سأجيئك بعد قليل .

كان علينا أن نقرأ كثيرا : في الاداب والفلسفة والتاريخ والاقتصاد وعلم اللغة . وفي الليل ، بعد القراءة الطويلة ، والثلوج تنهمر وراء النافذة ، والزوبعة تصفر في الاعالي .. كنت اضمها تحت غطائي ، ناهلا من وجهها وجسدها البديع العاري . وماكنت لافكر ، آنذاك ، بالافق البعيد .. بالايام الاتية . وفوجئت ذات ليلة بهمسات غريبة منها : ماذا ترى سيكون من أمرنا ؟ انـك لم تعدني بكلمة .. واني لاحس بحرج شديـد ينبغي أن نعلـن خطوبتنا .. ونتزوج فيما بعد .

كنت اسمع هذه الهمسات .. فأحاول ان اشرح وضعي فما تقتنع . ومـا كنت اريد أن اكذب عليها . قلت انـني لااستطيع ان اتـزوج مادمت طالبا . وما كنت اقدر ان امنحها أي وعد .. أو اتركها في وهم باطل . وكانت تتأمل وجهي في عتاب حزين .. واحيانا في ترقب .

هاهي تعتذر ، احيانا ، عن المجيء الي ، بانشغالها في القراءة أو بكتابـة قصة . وقليلا مانأكل معا . ولم اعد اطرق بابها في اي وقت اشاء . وصديقتها لم تعد تطيقني .. بل صرت اجدها اكثر شراسة .

ومع الربيع كانت قصتنا أخذة بالانتهاء . قلت : انني لن اتزوج ما دمت طالبا . فأخذت تتيانا العذبة الطيبة تتسرب من بين ذراعي . وكان الاوان قد آن لان ننفصل . وكان الربيع ممطرا هزيلا أول الامر . لكنه سرعان ماأخذ يتفجر خضرة ندية في الحدائق والغابات ، خضرة تذكرك باللوحات الانطباعية الكثيفة .

أحيانا كنت أمر على بائعة الزهور . كان كشكها الزجاجي عبر شـارع

غوركي •• قبالة تمثال بوشكين • اني لاتذكر اول موعد لي معها • اتفقنا أن امر عليها في الثامنة • وحين جئت لم اجد الا بابا مقفلا على الزهور الحبيسة • وسألتها صباحا عن اختفائها السريع • فقالت بوجه ينطق بالبراءة الملائكية : انها انتظرتني ، لكنني لم احضر • والتفتت الى صاحبة لها كانت معها في الكشك :

ـ كانت هي معي •

فقالت هذه :

ـ حقا •• انتظرناك في الثامنة فما جئت •

كنت أحب أن امر عليها واحدثها • كانت تبتسم لي ، وعيناها في مثل زرقة البحيرات ، وشعرها بلون الحنطة أبان حصادها • انما كانت ناحلة القوام • صحبتها مرة الى السينما ، ومرة الى المطعم القديم قرب كشكها • لكنني اكتشفت انها مرتبطة بشخص أخر • مر عليها ذات امسية ، وكنت اتطلع اليها والى زهورها • وهي زهرة من هذه الازاهير • فألح على لقاء • نهضت متذمرة بشيء فانطلق في سبيله مدندنا :

ـ في الثامنة والنصف •• في الثامنة والنصف •

كان معنا في المنزل اصدقاء من باكو : علي وفكرت وآزر وايفاس • احيانا كنا نتجول معا أو نشرب في غرفاتنا • ومن اليمن كان معي في الكورس الاول محمد • كان طوال الوقت مرحا بعينيه الكبيرتين ووجهه النحيل وشعره الافريقي • كان ابوه عربيا وامه حبشية •• ولهذا كان اصحابنا من اليمن يدعونه : الكليس •

في المقهى الصغير ، في البهو من فندق موسكو •• كنت التقي بغائب • كنت اراه بوجهه الطيب ونظارته الطبية النحيلة وشعره القصير الناعم • كان المقهى في ركن من البهو بموائده القليلة وكراسيه من النايلون الاصفر وكنا

نشرب القهوة السوداء المرة • كان البار عند الحائط • وكانت مديرته نينا الشقراء الجميلة • وكانت امرأة شابة شهية • لم اجدها ، مرة ، ضائقة بهذا الحشد من الطلبة الاجانب ، يحتلون الموائد كلها تقريبا طوال المساء •• ولايشربون الا قهوة بعشرة كوبيكات • ولقد حاول بعضنا مغازلة نينا الشقراء قيمة البار فردتهم بحزم •• ونهرتهم بقوة فما عاودوا الامر ثانية • وكنت ، مرة ، اتناول قهوتي من يد نينا ، فقالت النادلة كالهامسة وهي تغمزني :

ــ انها تحبك •

فانتهرتها نينا :

ــ ربما شأنك انت •

مرة سمعت نينا تخاطبني وهي تناولني قهوتي :

ــ ياشاعري البديع •

بالطبع ، لقد رأتني اقرأ قصيدة في حفل اليولتيخنيك ، في هذه الصالة العريقة • وكان المقهى يعج ، احيانا ، باسراب من الفتيات • وكنت تستطيع ، كلما وجدت ترحابا ، أن تدير حوارا مع هذه أو غيرها •• لتدعوها بعدئذ الى المطعم أو تتفق على لقاء • وكنت ، مرة ، اتبادل البسمات مع فتاة في الجهة المقابلة • والتقت عيناي بعيني نينا • فأشاحت عني باحتداد • فأنصرفت الى كتاب معي • وتركت الفتاة في حيرة من الامر • بعد فترة التفت ناحية نينا • فرأيتها تتعمد الاشاحة عني • فعدت اقرأ ثانية • ثم نهضت ، وكانت منشغلة بقائمة حساب • وحين رأتني اقترب منها ابتسمت لي • قلت هامسا :

ــ أأستطيع أن اراك اليوم ؟

فأحنت وجهها على القائمة ، وقالت هامسة ايضا :

ــ بعد الحادية عشرة عند المترو •

كنا في الثامنة مساء • فأنطلقت الى مكتبة الاداب الاجنبية لاواصل قراءة

منه حسين . وكانت قريبة من الفندق .. عبر قليل من الازقة القديمة . وقبيل الحادية عشرة كنت في مخزن الاطعمة الكبير . فتزودت بزجاجة خمر . وانعطفت لانتظرها عند المترو . كنا في أول الصيف . وكانت السماء مظلمة بالسحب ، والهواء رخيا ، نديا . ومرت عشر دقائق . كنت أعرف انها قد تتأخر لامر من أمور المقهى ساعة اغلاقه . ومرت عشر دقائق ثقيلة أخر . ينبغي ان انتظر هنا . فهي آتية لتركب المترو . وهنا اقرب مدخل الى المحطة . وكان القوم يسرعون الى الداخل . كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف حين رأيتها منعطفة نحو المترو . كان وجهها مرهقا قليلا . وكانت تبتسم باعتذار :

ــ أعرف انني تأخرت .. لكنه العمل كما تعرف .

ــ أرى انك متعبة .. هل تتفضلين بالاستراحة عندي ؟

فأجابت وهي ترنو جانبا الى مدخل المترو :

ــ تستطيع ، اذا رغبت ، ان توصلني .. وتمكث في شقتي قليلا .

ــ لاشيء أحب الي من هذا .

ــ أسمع .. هذا اللقاء لايعني احدا غيرنا .

ــ أنت تعرفين كم اودك واحترمك .

ــ اعرف هذا .. والا اعرضت عنك .

كنا نجلس متجاورين في عربة المترو

ــ ماذا كنت تقرأ في المقهى ؟

فتحت حقيبتي واظهرت لها رواية همنغوي « وداعا للسلاح » في ترجمتها الروسية . قالت باسمة :

ــ اتعيرني هذه الرواية بعد انتهائك منها ؟

ــ بل اتركها هدية لك . وسأحصل على نسخة لي من عاملة المكتبة .

انها صديقة لزميل لي .

كانت تبتسم وهي ترى الزجاجة في حقيبتي ، فأنا متهيء لتقضية سهـرة ممتعة معها • بعد المترو انحدرنا مسافة في ممر بين أشجار • ثم اتجهنا نحـو طريق أخر بين العمارات • كان الطريق خاليا الا من خطى متباعدة •• وكانت آخذة بذراعي شأن الصديقة المطمئنة • وكنت أحس بدفئها ولينها • كانـت شقتها فارغة الا منا • اخرجت زجاجتي ووضعتها على المائدة • قالت متأملة مائـدتها :

ــ أما تظن الوقت متأخرا لشرب الخمرة ؟

ــ لن نشرب غير قدح •• فيما اذا سمحت •

ــ لابأس بقدح •• لقد اقنعتهم هناك بالسماح لي في التأخر حتى الظهر •• واشكرك ثانية على هديتك •

كنت قد طرحت الرواية فوق طاولة بالقرب من التلفزيون • وكنا فـي الطابق السابع من بناية عالية • وكنا نتجرع الخمرة بارتياح ، شاعرين بدفئها ولذنها • وكانت تطعمني وتلح علي أن آكل • ورجوتها ان تحل شعرها الاشقر الكثيف • فتبتسم قائلة في غموض :

ــ في مـرة قادمـة •

وهي تدري أنني باق معها حتى الصباح • لم اكن ثملا ، لكنني ا[illegible]قت ، فجأة ، اتحدث عن جمالها واعجابي القديم بها • وسألتهـا أن الثم وجهها • فأعطتني خدها بعد تمنع • وأخذت اقبل فمها ، هامسا بأرق الكلمـات وا[illegible]رها على قلب امرأة • فأقبلت علي تغمرني بقبلاتها • ووقفت آخذا بيدها في رفق • فاتجهنا الى مخدعها • اية بهجة عظيمة ان تعانق امرأة في مثل لطفها وعطائها ! كانت أهاتها تنبعث من مكامن سحيقة كما تنفجر الينابيع من اعماقها الدفينة • وكان شعرها يتموج طويلا ، متلامعا •

بعد يومين التقيتها ثانية • كانت أمها وابنتها الصغيرة في الضاحية فكنت انتظرها كل ليلة عند المترو •

ثم ارتحلت جنوبا لاقضي شهرا عند البحر الاسود • وحين رجعت كــان بهو الفندق خاليا من المقهى • واعيد فتحه ، ثانيــة ، في الجانــب الاخر من الفندق •• تحت المطعم • وكان جديدا بقيمته ونادلته • وسألت عن نينا فمــا وجدت سبيلا يوصلني اليها • وافتقدنا البهو ورحابته •

كنت أمر على الجامعة فالتقي بغازي واصدقائي من اليمن : عمر وعبد الله وأبي بكر وعبد الكريم • اني لاتذكر عبد الكريم وابتسامته الطيبة الابدية • وكان عمر مبتلى ، آنذاك ، بالحائط الاصم • كلما أقمت علاقة مع فتاة واجهك الحائط نفسه : أن تتزوجها أو تفترق عنها • وكان على عمر أن يتزوج صديقته الشقراء السمينة أو يبتعد • وكانت تطارده وتنقض عليه أينمــا ولى وجهه • كانو جميعا في غرفتي • كان محمد مرحا كعادته ، وعبد الله هازئا بالحياة •• وكان ابو بكر هادئا ، أخذا سمة الفلاسفة • وكانت الشقراء العاشقة متورمة العينين جراء بكائها الطويل • وكنت ارى دموعها تتساقط كقطرات المطــر الكبيرة •

كان عزيز يزورني ، احيانا ، مصطحبا صديقته الطيبة تمارا • وكان مرسى في مدينة اخرى •• فلم نعد نلتقي الا في العطلات •

وشربت ، مرة ، اكثر مما اعتدت • وكان في غرفتي اصدقائي من اليمن • فتركتهم وخرجت • كنت مسرعا ناحية السينما لالتقي بزميلتي تمارا البلطيقية وصاحبة لها • وفي الصالة المظلمة أحسســت بألم ممزق فأسرعــت لاتقيأ في المغاسل • أكانت مغاسل ؟ لاادري • اذكر انني سقطت على الارض • لكــن أين ؟ اتذكر نساء في ثياب بيض كالممرضات أو عاملات البوفيت يحطن بــي ويلغطن • اتذكر ظلمة خافتة وأشباحا • وكنت أحسس ببرودة البلاط • أحس بالارض الرطبة المظلمة • أهو طين ؟ ام هي ارض الطفولة الرطبة ، والطفل عند حافــة المستنقع ؟

حين أفقت كنت في عربة الميليشيا الصغيرة المكشوفة • وكانوا رفقاء بي • اوصلوني حتى المنزل وانصرفوا مودعين • لم يبق أحد من اصدقائي في الغرفة • فقد رحلوا غير دارين ماجرى لي • وفوق سريري كانت تمارا متكئة على الوسادة • فنهضت مقبلة الي :

ــ أأنت بخير ؟

ــ شكرا • اشعر بتحسن كبير • يبدو أنني اخذت علاجا •

كانت تمارا جالسة على السرير • فأحطتها بذراعي ، وقبلت وجهها •• كانت طيعة فلم تبد اية ممانعة : ربما رفقة بي وتأثرا بحالتي • كانت الامطار تهطل خلف النافذة • فجرا ايقظتني تمارا • قلت انني سأتأخر عن المحاضرة الأولى • فتركتني لاعاود الرقاد •

كنا في بداية الكورس الثاني • وكان محمد قد غادر الى صنعاء ليقف مع النظام الجمهوري منذ أيامه الاولى • عمل فترة سكرتيرا لرئيس الجمهورية • والتحق ، بعدئذ ، بالسلك الخارجي قائما بالاعمال في سفارتهم في موسكو •• وكوبنهاكن • وكان في تعز عند الاطاحة برئيس الجمهورية • فسجن فترة في اعماق الدياجير • وعمل عمر على انقاذه ، وكان رئيسا لاتحاد الكتاب في عدن بعد التحرير • وقتل محمد ، بعد حين ، في حادثة طائرة فوق صحراء حضرموت • وكان هذا بعد بضع سنوات •

ومع الكورس الثاني جاء جيلي • وسريعا ماصرنا صديقين • وكثيرا ما كنا نخرج معا لنتجول في المتنزهات • عسى ان نلتقي باثنتين من صبايا الحدائق • كان جيلي ، بشعره الواقف على جانبي رأسه ، ووجهه الطيب النبيل ، وبدلته المهملة •• يحدثني عن القاهرة وعمله الصحفي في جريدة المساء • وكنت اتلقى ، كل شهر رسالة اخي صاحب الزرقاء وحزمة الجرائد والمجلات حيث تنشر قصائدي احيانا •

كلما اصطحب جيلي فتاة الى غرفته لم يكن ليفكر بغير السمك عشاء : تلك وجبة جاهزة لاتكلفه مشقة الوقوف في المطبخ • وذات ليلة رائعة جاءنا بتانيا الشقراء • ولا اتذكرها الا في ليالي الاعياد •• تتلفن له وتزوره ، آتية معهـا بصاحبتها الطويلة النحيلة •• تميد بطولها وشعرها الكستنائي القصير • ومع جيلي جاءنا جون من غانا • وهو شاعر ايضا • كان عملاقا مرحا • يهتف مرحبا عن بعد ، وصوته يتردد عاليا ملء الممر • غالبا ماكنا نزوره ، أنا وجيلي ، في ساعة متأخرة من الليل • فيعد لنا الشاي ، ويقدم الخبز والمربى • كان يترع اقداحه الخشبية الكبيرة بالماء الفائر ويضيف اليها الشاي مع السكر • كانت جدران غرفته معرضا لعشرات الصور : رجال شعر وفكر من اقطار متباينة • وفاجأنا ذات يوم بمكنسة كهربائية طويلة • كان يحب أن ينظف غرفته بنفسه •

كنا في أخريات الصيف • وصدفة ، في أمسية من الاماسي الغائمة ، التقيت بتونيا مناوبة المنزل الاول • وكانت دهشتي كبيرة حقا •• حين رأيتها فرحة ، مقبلـة نحـوي •

آلهة الخطى المتثاقلة

صدفة التقيت بتونيا في الشارع • كنت مرتديا معطفي المطري ، متجها الى محطة مترو • كان الطقس غائما ، مدلهما أخذا بالبرودة • كنت أحس برائحة مطر ، رائحة خريف مبكر • كانت السحب تغطي السماء كلها • كانت سحبا رمادية قاتمة ثقيلة •• تحسبها فوق سطح المدينة نفسها • وكان الطقس ينذر بسقوط مطر غزير • والريح تهب ندية على الوجوه • وكانت أعالي الشجر تتمايل • والقوم يسرعون الخطى • وبالرغم من العتمة المبكرة ، عتمة الغيم والغروب ، بالرغم من الجو المتلبد كنت أحس بشيء كالبهجة •• بهجة تحملها نسمات البرد الاولى • كانت السحب متداخلة بالخضرة المحمرة المصفرة ، خضرة الاشجار المتقادمة العالية : اشجار بلوط واسفندان وحور ودلب وزيزفون •• وبهذه الوجوه المتوردة ، وجوه صبايا يسرعن للقاء ، ووجوه نسوة يغذذن الخطى من السوق الى المنزل • وعند واجهة المترو تقف الفتيات في انتظار اصدقائهن •

كان المساء ينحدر داكنا فوق المدينة الهائلة ، والاضواء تتوهج . وتحس بالبلل في شعرك وفوق وجهك ، بلل الريح المحملة بانفاس السحب قبيل رذاذها وامطارها . وكأنما الليل يوشك ان يطبق على المباني والحدائق . وكأنما العتمة توشك ان تتكاثف . وعن قرب تتعالى قباب كنيسة خشبية قديمة .. يلفها الشجر القديم المتهامس . ووراء الاعمدة الخشبية المتعارضة ، الممتدة حاجزا حول المبنى .. ترى الاوراق اليابسة متكومة حول الجذوع ، وفي المماشي الضيقة . كنت اتطلع الى البناء القديم ، وألوان القباب المتعاقبة من الزرقة الى الصفرة فالارجوان . وجوار الكنيسة تقوم عمارة هائلة ذات مداخل عديدة . على امتدادها في الطابق الارضي تلوح الواجهات الزجاجية لمخازن متنوعة . وعن بعد تسمع ضجة الساحة . كانت المكبرات تبث موسيقى راقصة . وجموع من الشباب تحمل أطواقا ملونة من النايلون . بعضهم أحاط نفسه بطوقه منذ الان . وكنت متجها الى محطة المترو . وهاهي شابة في بدلة زرقاء داكنة ، تقترب مني . وعلى وجهها فرحة لقاء غير متوقع . أهي تونيا ؟ اجل هي تونيا تدنو مني وتصافحني قائلة :

ــ أهذا انت ؟ كيف حالك ؟

ــ اشكرك كثيرا . أنا سعيد بلقائك .

ــ وأنا سعيدة ايضا . اين تسكن الان ؟

اعطيتها صورة عن الحي . قالت فجأة :

ــ أنا الان في الكورس الاول . لقد قبلت في الجامعة .

ــ اهنئك . اما زلت تعملين هناك .

ــ كلا . لا وقت لدي .

كانت عيناها تشعان زرقة دافئة ، ووجهها الشاحب يتورد . وقوامها المتكامل ، شبه الممتليء .. تلفه البدلة الزرقاء القاتمة . أهذه هي تونيا الصارمة

العزوف ؟ كنت ادري أنها منفصلة عن زوجها حين كنت في المنزل الاول .

ـ وأين تسكنين الان ؟

ـ كالسابق مع أمي .

ـ اتسمحين لي بالسير معك قليلا ؟

ـ تفضل .. أين تدرس ؟

ـ في معهد غوركي .

ـ في المعهد الادبي ؟

ـ أجـل .

كنا نخطو تحت الاشجار العتيقة . واقترحت أن نركب حتى بارك غوركي لنتجول . كان البارك على بعد محطتين . كنت أرى اقبالها علي ، وأحس في صوتها أنها فرحة بلقائي . في المماشي الطويلة ، في المتنزه الفسيح ، كنا بين المئات من المتجولين . كان الليل في اوله . وتحت الاضواء المتباينة كنت أرى الاشجار كالمظلات المحلقة .

عند البحيرة ابتعت تذكرة لنتنزه في قارب . وكنت سعيدا بمثل هذه الصدفة الرائعة . وكنت أجذف في غير ما عجل .

ـ أمرتاح انت في سكنك ؟

ـ اجل .. فأنا اعيش وحدي .

ـ وحدك في الغرفة ؟

ـ أجـل .

ـ انـك لمحظوظ .

ـ أية بهجة أن التقيك ثانية !

ـ أليست صدفة غريبة ؟

ـ بل هي صدفة بديعة .

ودعوتها الى المطعم الصيفي الصغير • لم يكن الصف طويلا • وفي الجو تفوح رائحة شواء طيبة • كانت العرائش المزهرة تتسلق السياج الخشبي • وكنا واقفين معا ، واكتافنا تتلامس بألفة •• وكنا نتقدم ببطء • وعند مائدة ملاصقة لسياج المطعم احتللنا كرسيين متقابلين • اوصيت على سلطة ونبيذ أحمر وشواء • في مثل هذا المطعم لايمكنك أن تتأخر كما تود • فلم يكن مجلس سهرة ورقص • والقوم يأتون ، عادة ، الى هنا ليأكلوا الشواء • ونهضنا منصرفين •• ولما يزل الوقت مبكرا ، ملائما لان نواصل تجوالنا • فأقترحت أن نقوم بنزهة نهرية في المركب • وكان قادما باتجاهنا • فأقتطعت تذكرتين عند المرسى ، وركبنا •

وأخذ المطر يتساقط بقطرات كبيرة • وكان متقطعا أول الامر • وكنا في الممر الجانبي ، نعتمد العارضة ، ونستقبل الريح ورذاذ الماء باوجهنا • ثم اشتد هطول المطر فأنهزمنا الى الحجرات • حين وصلنا المرسى الاخر رأينا الناس لائذين بالاشجار • نزعت معطفي المطري الخفيف ونشرته فوقنا معا • وكنا نحتمي تحته ضاحكين ، نسرع الخطى نحو مقصف تتوهج اضواؤه في المطر المنهمر • كان المكان مزدحما ، وكان البعض واقفا • وعلينا أن ننتظر حتى ينقطع الوابل أو يخف •

جئت بقدحي بيرة ، ورحنا نتجرع • وكنت أرى عينيها تشعان ضوءا أزرق خافتا • وكانت خصلاتها الشقر في بلل واضطراب ، كان المطر يضرب الزجاج ، ورائحة البيرة تعوم •• ونحن نبتسم •

حين كف المطر وهدأ الطقس خرجنا نتمشى في الساحة المبتلة •• كانت الاشجار تقطر ماء ، والموسيقى تصدح في مكان ما •• ولما يزل البلل في هواء الليل • وكنا نتجه صوب المترو • واوصلتها حتى المدخل من عمارتها • واتفقنا على لقاء في اليوم التالي عند السينما المركزية في الخامسة مساء •

وجاءت تونيا • ولعلها سبقتني في الحضور • فقد برزت الي من بين المنتظرين • وأخذنا نسير على رصيف الشارع باتجاه ساحة مايكوفسكي • وكانت السحب ثقيلة • ودعوتها لندخل مطعما أو مقهى • ولم تشأن أن ندخل • البارحة كنا في مطعم •• وهي لاتريد أن تكلفني • فسألتها أن نقضي الامسية في المنزل خوف الوابل المباغت •• ولنسمع الموسيقى • فركبنا الحافلة ٢٣ وكانت في ساحة خلفية جوار المترو •

وفي الغرفة كان يكتنفنا جو آخر • كانت الامطار تتساقط في الخارج • وكنا نرتشف الكونياك ، مصغيين الى الموسيقى الهادئة المنبعثة من الكرامفون العتيق • وفي الرقص الحالم البطيء كنت احيط قوامها الدافيء الناعم بذراعي ، واشم شعرها الشذي •• ملامسا وجهها الناعم الحار بوجهي • بعد ساعتين من الخمرة والرقص كنت اقبل فمها الجميل • وكانت الامطار تشتد هطولا ، وتضرب النافذة بقوة • قالت تونيا :

ـ لن أتعبك هذه المرة بتوصيلي •• فالمطر غزير وقوي •

ـ ولماذا تخرجين في هذا الطقس الغاضب ؟

ـ لابد من أن أخرج •

ـ تستطيعين أن تبيتي هنا •• سأتي لي بفراش أخر •

ـ أحقا ؟

ـ بالطبع •

وفي العاشرة تركتها وحدها لتنضو ثيابها وتتغطى • وحين عدت رأيتها متدثرة باغطيتي • واخذت اقبل وجهها قائلا :

ـ اسمعي تونيا •• لم اجد فراشا زائدا •

ـ لابأس •• تستطيع أن تتمدد بجانبي •• انما بلا ••

كانت في قميصها وحده •• فأحتويتها بين يدي • بعد قليل كان قميصها

ملقى على الكرسي بأهمال • وطوال الخريف كنا نلتقي مرتين أو اكثر في كل اسبوع • وكانت تأتي بكتبها معها • وكانت تعد عشاءنا في المطبخ • وكنا نقرأ حتى يعن لنا أن ننام • وكنا نقضي امسية السبت في السينما أو المقهى • وكانت الاشجار تتعرى من اوراقها • والسماء الشمالية مدلهمة طوال الوقت ، ونحن في معاطفنا الخريفية والقبعات • وقبل اكثر من اسبوعين من العيد حجزت لنا مقعدين في مطعم براغ •

مرة ، بعد العشاء ، وكنا نقرأ في غرفتي •• سمعت تونيا تقول فجأة انها ستحصل قريبا على وثيقة طلاق من المحكمة • فلم أرد بشيء • هكذا بدأ الحائط الاصم يتراءى من بعيد • وكنت ادري أنه سيلوح بيننا ذات يوم • ورأيتها تلقي علي نظرة متأملة وتعود الى كتابها • وفي عناقنا الليلي سألتني ، وكنت اقبل وجهها المتلون بحمرة الشفق :

ــ الا يسرك أن احصل على وثيقة الطلاق ؟

ــ بالطبع يسرني ••

ــ لكنك ظللت صامتا حين اخبرتك ونحن نقرأ •

ــ اسمعي تونيا •• أنا لا اريد أن اكون معك الا صادقا •

ــ أنا اعرف أنك طيب •

ــ أنا لا استطيع أن اتزوج وأنا طالب •

ــ بعد اربع سنين ؟ هذا زمن طويل •

كانت تتأمل السقف بعينين واجمتين • وعدنا ثانية الى الحوار الحزين نفسه في اللقاء التالي • كانت ليلة مجللة بالكآبة • كانت جادة في قصتها معي • وكانت تريد أن اتزوجها • وفي ليلة الاحد كنت انتظرها في غرفتي • وسمعت طرقا على بابي • فأسرعت لافتح • كان هذا طالبا بعثت به المناوبة الي :

ـ يطلبونك في التلفون •

وهبطت الى الطابق الارضي • كانت تونيا تتحدث بحزن • اخبرتني أن امها مرضت فجأة ، وهي معها في المستشفى • فأذا كنت جادا معها علي أن أفكر بأمرنا جيدا ، واتلفن لها • انها في انتظار رد مني • وانها تحبني وتكره أن نفترق • تكره هذا من اعماق روح كسيرة •

كان البقاء خانقا في الغرفة • كنت أحس بوحشة هائلة • سأنام وحيدا هذه الليلة •• بعيدا عن فرحها الصافي وامتلاء ذراعي بالانثى الناعمة الراغبة • وأنا أعرف هذه الكآبة الثقيلة ، والفراغ القاتم في الروح ، والفرار من الغرفة تائها في الارصفة •• أبحث عن صحبة أنيسة في هذه المدينة الهائلة • واتجهت الى مقهى الفندق علني اجد صديقا اشرب معه • كانت السماء سوداء قاتمة • وكنا في اخربات الخريف •• وصباح الاحد كنت في مقهى الشباب • كنت مع فلاح وماهود وأحمد • كان فلاح في المعهد الطبي الثاني • وكان يرسم لوحات نراها جيدة ، لكنها خشنة • وكان ماهود وأحمد في المعهد الفني • كنا نجلس عند الواجهة الزجاجية ، نرقب الحركة في شارع غوركي • وغالبا ما كان جيلي معنا • وكانت زهرة التترية المسلمة عاملة الصندوق في المقهى • كانت خضراء العينين ، حزينة الملامح •• وكانت تتحدث معنا بتعاطف • لم نكن نشرب إلا القهوة أو البونش • فلم تكن العلاقة طيبة مع النادلات • غير أن نادلة واحدة كانت لطيفة معنا • وكنت ادعوها ، فيما بيننا ، بالبلهاء • لم تكن حمقاء أو بلهاء • غير أنني لسبب ما ألصقت بها هذه الصفة • كان شعرها مضطربا ، وفي حركاتها ووجهها مايذكرك بفتاة خرقاء • وكانت تدعوني ، بين اصدقائي ، بالفتى النحيل • وكان أحمد قد وطد علاقته مع هذه البلهاء دون غيرها • والله أعلم لماذا • وكان ماهود يخط على اوراقه وجه هذه الصبية الجميلة أو تلك • وكانت لينا القوية المتوردة قيمة على البار •

قالْ جيلي ، مرة ، وكنا عند الواجهة .. قبالة البار :

ــ هذه الفتاة راغبة بك رغبة جلية . انظر كيف تتأملك بلا توقف . انها لاترفع بصرها عنك .. منذ فترة وأنا الاحظها .

ــ من هي ؟

ــ لينا .. قيمة البار .

وحين التفت اليها رأيت وجهها يتضرج بالحمرة القانية .. وقد أطرقت برأسها خجلا . ووجدت فرصة لاسألها لقاء . قالت :

ــ انتظرني في الثانية عشرة عند ناصية المقهى .

كانت صحبة قصيرة ، صحبة امرأة شابة سيعود زوجها من مهمة عمل ما بعد أيام . وذهبت وحيدا ، ليلة العيد ، الى مطعم براغ .. أملا ان تسألني امرأة وحيدة عن تذكرة زائدة .

ورأيتها هناك . عن بعد رأيتها عند مدخل المطعم . كان شعرها الكثيف الاشهب ، المائل الى الزرقة ، يتكوم فوق رأسها في تسريحة رائعة . كان الثلج يتطاير خفيفا . وكان شعرها الحاسر يشي بخروجها على حكمة الكبار . يبدو أنها تنتظر احدا ما باتفاق أو بغير اتفاق . وقفت قريبا منها ورحت اتطلع الى واجهة المطعم . كان باديا علي أنني لا انتظر شخصا معينا . فابتدرتني سائلة :

ــ الديك تذكرة زائدة ؟

ــ اجل .. اذا كنت وحدك .

ــ أنا وحدي كما ترى .

فدخلنا معا . وأعطيت رقما واحدا لمعطفينا . كانت انيقة حقا قياسا الى الاخريات . كان قوامها الفتي ممتلئا باتساق رائع . وكان وجهها الجميل متسعا كاوجه العديد من الروسيات . عيناهـا الباسمتان الكبيرتان في زرقة

صافيه • وكان فمها ممتلئا شهيا • وكانت تحب الرقص حبا عظيما • وكانت تدخن • سريعا ماحطت عند مائدتنا شابتان فاتنتان • فكانت تتحدث معهما بلطف أول الامر • تبتسم وترتشف خمرتها باعتدال • كانت في العشرين من عمرها • حين بدأت الفتاتان تتحدثان معي بارتياح وبلا تكلف مرت على وجهها العريض الجميل غيمة أسى • وكانت الموسيقى تصدح عاليا • وسألتاها أن تسمح لهما بالرقص معي • فأجابت في غموض • فرقصت مع السمراء منهما أولا • ثم رقصت مع الثانية •

ورأيت ضيفتي تدخن كثيرا • وتكاد تجرني الى الرقص جرا • فاعتذرت مبتسما لجارتينا • وأفهمتها في الرقص أن عليها أن تحتمل رفقة الفتاتين ، فما من ذنب لهما في جلوسهما معنا •• وأنها اجمل منهما في آخر الامر •

حين عدنا نجلس وندخن كانت قد استردت مرحها ، وتهللت تقاطيعها الفتية الجميلة • وكان الليل قد انتصف منذ ساعة • وكنت اخشى أن يطول وقوفنا ، في الشارع ، في انتظار التاكسي • كنت متوقعا أن تعارض اقتراحي بالخروج • فهي مقبلة على الرقص ، منطلقة في مرحها بلا تصنع •• فكنت اتردد في اقتراحي أن نخرج • وحين سألتها هذا ذهلت ، وقد وجدتها تميل علي وتقبلني ، قائلة انها تواقة لان نخرج ونشم الهواء الرائق •

لم يكن البرد قارسا بعد • فأخذنا نتسكع في الساحة • وكان الثلج يتطاير خفيفا • وكانت حاسرة الرأس ، وكنت أخشى أن تصاب بزكام • فأقترحت أن ننتظر تحت طنف المحطة حتى تمر سيارة فتوصلنا • قالت انها لاتخشى بردا ، وستظل واقفة معي • كانت متشبثة بذراعي ، وكنت انظر أسفا الى تسريحتها الرائعة ، وقد ناشها الثلج الذائب • عن بعد أبصرت بنار التكسي الخضراء • فأشرت لان يقف • لم يقل أي منا ، عندما كنا ننتظر ، الى أين نحن ذاهبان • فأعطيت السائق عنوان منزلي •

كانت الشوارع خالية • فوصلنا الى البيت بلا تأخر • غالبا ماكنت أحتفظ بزجاجة خمر في خزانتي • فقد يصدف أن اعود متأخرا مع امرأة • وكنت أكره أن نأوي الى فراشنا عن مائدة عارية مقفرة • كانت فرحتها كبيرة حين رأتني أتيا بالزجاجة واضعها فوق المائدة • فأخذنا نشرب خمرتنا متلذذين • وكنت أقبل وجهها وفمها • وكانت سخية بقبلاتها الطويلة الدافئة • وكان شعرها قد انحل قليلا • كان عبقا برائحة الليل • الريح تصفر مرحة ، والعيد في غرفتي • حين كنت اطوقها •• كنت أحس بطراوة جسدها الفائقة • كان قوامها الممتلىء يتموج لينا كالبحر • وعبر الثوب كنت أتصور عـريها الباذخ الوثير • كنا راغبين معا أن نكمل شربنا • وكنا ندخن من لفافة واحدة : كان علي أن انصاع لرغبتها هذه •

كنت ادري أن صحبتنا لن تدوم طويلا • مثل هذه الشابة المتبرجة ، المقبلة على المطاعم تكلف كثيرا • لن تقنعها وجبة الطالب واجواؤه • انها تتطلع الى العربة والشقة المريحة • لم تقل شيئا ، اول الامر ، حين صحبتها في لقائنا الثاني الى المنزل •• دون أن نمر على المطعم • وقضينا ليلة ممتعة • وفي لقائنا التالي •• اشارت الى أنها تحب أن نرقص ، الليلة ، في صالة ما •• ونسمع الموسيقى الصادحة • قلت :

ــ لن تقام في منزلنا حفلات رقص الا في الاعياد • لكننا نستيع أن ندخل المطعم ونرقص •

ووجدتها فرحة باقتراحي • كان لقاؤنا عند المترو جوار مطعم موسكو • فانعطفنا اليه • وتناول معطفينا عامل المشجب الشيخ ذو اللحية الطويلة البيضاء الناحلة • وكان يعرفني • وأرتقينا الدرجات المرمرية الشهباء • كانت متيمة بالرقص والسهر • وتميل علي ، ملاطفـة ، بوجهها العـريض الفاتن ، وعينيها البـاسمتين ، مرفهة عن نفسها وعني •

اذكر أنني كنت معها خمس مرات . كنا نعرج علـى المنزل بعد المفعم أو المقهى بعد الحادية عشرة . وقلت لها آخر مرة ، في ظهيرة أحد . وكنت قـد أوصلتها حتى بيتها : انني مسافر لفترة ، وسأتلفن لها حينما أعود . ولا أظـن أنها صدقتني . كان الشك جليا في ابتسامتها ، ونظـرتها المتسائلة المعاتبة . كانت تظن ، كما يبدو ، انني سئمتها ، والتقيت بأخرى .. كما يحدث ، عادة ، لدى الفتيات والرجال اللاهين . ولم اتصل بها بالطبع . من السهل جدا علـى صبية في مثل جمالها أن تحيا سهراتها وقتما تشاء . أنا اتذكر قـوامها الناعم المائج كالبحر الرخي . ليس قليلا أن تتزود بهذه الذكرى اللدنة ، بالرقة فـي ملاطفتها لي ، وبالنعومة في عناقها .. وذكرى البلل في شعرها الحاسر ، شعرها الاشهب ، المائل الى الزرقة .

هوذا الشتاء الروسي . غير أن الثلوج الغزيرة لم تتساقط بعد . بين حين وآخر يتساقط الثلج هشا ويذوب . والهواء قارس لاذع .

بغتة يداهم المدينة الشتاء . الريح تشتد بردا . والسحب تبيض وترش ثيثها الثلجي المتطاير . ونحن نحس بالبلل والرطوبة . ونرى على اكتافنا هذه النعومة البيضاء النقية متجمعة أو ذائبة . وقد ينحسر الشتاء بغتة عن المدينة ليومين أو ثلاثة .. ليحل ثانية مكفهرا ، لاذعا ، منذرا بالثلوج الكثيفة . ونحس بالشتاء في أنفاسنا وبرودة أيدينا ، في اعالي المدينة المتحجبة بالضباب ، في الماء الصقيعي وفي الفراء الثقيل والخدود الفتية المتوردة الضاحكة .. وفي الزجاج المتجلـد .

كانت الاشجار متعرية ، مقرورة .. والواجهات تقـطر نداوة .. ومع الساعة الرابعة تقريبا تهبط العتمة المبكرة وبين فندق موسكو والكوم تعبـر آلاف من الوجوه المتوردة والخطى المتسارعة . وعميقا ، تحت الخطى ، ينطلق المترو في شبكته النفقية المتشعبة في باطن الارض . وفوق أبراجها السامقة

تتوهج الانجم الياقوتية في الاعالي الحالكة • والساحة تتبقع بالثلوج • وحيال الجدار الاحمر القاتم يلوح الشربين اخضر داكنا • وفي عريها ترتعش الحدائق بردا •• خيوطا سوداء عارية تتجلل ، بعد حين : بأرديتها الثلجية الضافية • والشمس حين ترى ، احيانا ، ترى ذبالة هزيلة مائلة في منحدر الغيم الاشعث •

وكنا في انتظار رأس السنة والثلوج الغزيرة • وحين تتساقط في الليل •• أجدني صباحا في عالمها الابيض النقي • والريح تلسع الوجه وتحرقه بهشيم الثلج اليابس •• تذره رشاشا من ذرات زجاج • وفوق الشابكا والكتفين يتكوم الثلج ليذوب ويتبخر ، سريعا ، في مدخل المنزل أو الحافلة • وكنا في انتظار ليلة رأس السنة • واحسرتا للغريب في البلد النازح يقضي ليلة العيد وحيدا • علي أن ابحث في مظاني عن فتاة أعيش معها ليلة العيد المرتقبة •

قبل الليلة المرتقبة بيوم •• التقيت بفتاة •• كانت واقفة عند السينما المركزية ، تتأمل صورا من الفلم فوق لوحة الحائط • فأقتربت وسألتها عن الفلم • فوجدتها قد اطمأنت الي • ودعوتها الى مطعم عند جادة الطريق الى المعهد • وشربنا نبيذا أحمر ، واكلنا طيرا بريا مشويا • وأتفقنا أن نلتقي ليلة رأس السنة في الساعة الخامسة •• ساعة انتهائها من العمل • وكانت عاملة في مصنع ساعات • وانتظرتها في مدخل السينما طويلا ، ولم تحضر • لابد من أن أمرا طارئا حال دون حضورها • فلقد كانت طيبة ، فرحة بلقائي • وعدت خائبا ، حزينا الى المنزل • وعرفت السبب في تأخرها بعد حين • فلقد أضيفت ساعة غير متوقعة الى ساعات العمل ذلك النهار • كان علي أن انتظرها في السادسة اذن . لو أنني كنت أعلم •

وحيدا كنت • فمررت على جيلي في غرفته • كان محتفلا مع تانيا وصديقتها الكستنائية • وكان هناك طالب أخر • وكنت بحاجة لان أشرب • فأخذت جرعات من الكونياك الارمني • وهبطت الى صالة الرقص في الطابق

الثاني . وكانوا يرقصون .. وبعضهم يتفرج جالسا على الكراسي .. ثمة طالبات من المنزل ، وأخريات ممن يحللن ضيوفا علينا .. أتيات من المدن والاقاليم ، تلتقي بينهن بالشاعرة أو كاتبة السيناريو أو الرواية وفي المنزل متسع لهن ولغيرهن .. ممن تضيق بهن المنازل الجماعية التابعة لمعاهد السينما والمسرح . كنت جالسا مع المتفرجين حين اقتربت من الكرسي المجاور امرأة ممتلئة ، في ثوب سهرة . وكانت جميلة . فتحدثنا قليلا ، ودعوتها لنرقص . أكانت في الاربعين ؟ ربما . ورقصنا مرتين . ثم دعاها أحدهم لترقص . فذهبت الى غرفتي لاشرب . حين عدت كانت منشغلة بالرقص مع طالب أخر . حين انتهت الرقصة رأيتها مقبلة نحوي وسألتني باسمة :

ـ أين كنت ؟

ـ في غرفتي .. ممكن أن ارقص معك ؟

ـ تفضل .

بعد الرقصة دعوتها لتشرب معي . كانت وحيدة مثلي . فلم تتمنع . بل وجدتها فرصة لطيفة لتمضية ليلة العيد مع فتى في مثل عمر ابنها . حين أخذنا نشرب كانت تتأملني باسمة :

ـ اتدري ؟ انك في مثل عمر ابني .

ـ أنا يعجبني هذا .

ـ حقا ؟

ـ بل يعجبني كثيرا .

ـ يسرني هذا منك . كنت متحرجة اول الامر .

ـ كيف ؟ مع أنك جميلة .

ـ لكن كيف حدث أن تكون وحيدا في هذه الليلة ؟

ـ حدث هذا .. لالتقي بامرأة رائعة مثلك .

في الثانية عشرة اطفأت الضوء .. لاشعله بعد قليل . ورأيتها تنهض لتقف عند مكتبي وتتناول كتابا . كانت ساقاها ممتلئتين رائعتين . وكان قوامها شهيا . فوقفت وراءها ، وامسكت باكتافها في رفق . ورحت الثم وجهها . كانت الثلوج تتساقط . وكان الفراش ممتلئا بعريها الناصع المتقلب بين ذراعي .

في الليل غزيرة تتساقط الثلوج . وتزاح بالمجارف فجر كل يوم . وتتكوم طوال الشتاء في اخاديد حيال المنازل .. تفصلها غن الرصيف اسيجة خشبية واطئة . وهو شتاء طويل ، تظن أنه لن ينتهي . غير انه لشتاء بديع .. بهذا الدثار الابيض الخرافي . احيانا كنت اصحو مع الفجر . ويخيل لي أنني اسمع أمي وهي تحلب البقرة .. يندفق الحليب شاخبا من بين اصابعها ، ليسقط في الوعاء النحاسي ، محدثا رنينا متواترا ممتلئا . تلك هي المجرفة تدفعها عاملة ما ، بزيحة الثلج عن اوجه الارصفة . وفي الليل ، تحت انهمار الثلوج ، تتصاعد ، مبتعدة ، اغنية روسية شعبية يتغنى بها فتى سكران .. يصحبها ، عادة ، نغم الهرمونيكا المتسارع . وكل صباح تقريبا تمر تحت النافذة .. تلك المرأة المخبولة ، وهي تطلق صيحاتها الذبيحة البحاء باسم سونيا .. باسم طفلة ربما ، لايراها غيرها احد .. لتأخذ حذرها من السيارة . وكل مساء تمر عائدة في الزقاق نفسه ، مطلقة صيحاتها تلك . وذات يوم ، وكنت قادما من المخزن ، التقيت بوجهها .. فأحسست برجفة مظلمة في صدري . واظلمت روحي فأشحت بوجي عنها .

ــ سونيا .. خذي حذرك من السيارة .

وكأن سونيا تعبر الشارع ، هذه اللحظة ، غافلة عن السيارة المسرعة المداهمة حاملة معها الفجيعة . كانت تسرع الخطى ، وعيناها المخبولتان معلقتان بشبح سونيا . لم تكن ترى أو تلاحظ أحدا غير شبح طفلة صرعتها العجلات منذ سنين .

احيانا كنت ازور متحف بوشكين فأتنقل بين قاعاته : من المصرية والاشورية والاغريقية .. حتى مدرسة باريس . وأمر على المتحف الفني الروسي فأتتبع هذا الفن منذ نشأته حتى أخر لوحة حديثة . وحصلت على بطاقة لدخول مكتبة الاداب الاجنبية لاقضي ساعات فيها مع الف ليلة وليلة وطه حسين والحكيم ومحفوظ .

وذات ليلة ذهبت ، كما اعتدت ، الى المسرح . وفي الممر المؤدي الى المدخل كنت ساخطا على نفسي . لم يكن معي غير تذكرة واحدة . فلقد بخلت أن أخذ اثنتين . وقد سألتني اكثر من فاتنة عن تذكرة زائدة . وفي الفرصة رأيت شابتين تتركان مقعديهما متجهتين الى البوفيت . كانت الاولى دميمة جافة . وكانت الثانية مرتفعة القامة ، جميلة وقوية .. شأن الروسية الجميلة ، قوية الوجه والتكوين . كان شعرها ينحدر طويلا متموجا فوق اكتافها . كانت تبتسم لي ابتسامة عريضة ، ووجهها مقبل علي ورأيتها تومىء لي برأسها أن اتبعها . وكأنها تعرفني منذ اعوام

لم يكن في هيأتها وثقتها بنفسها مايذكر بأية حركة رخيصة . انما هو المرح والشباب يعبران عن حريتهما وانطلاقهما . تركت مكاني وتبعتها . وحين أدركتها التفتت الي . فحييتها بلطف ودعوتها أن نجلس معا الى مائدة في البوفيت . فقبلت الدعوة في ارتياح . واتيت بشطائر الكفيار الاحمر وعصير الطماطة . طوال الجلسة لم تنطق صاحبتها بحرف . في طريقنا الى القاعة اتفقنا أن نلتقي بعد انتهاء المسرحية . ورأيت أن اسبقهما لارتدي معطفي وأنتظرهما عند الباب . وتبينتها في الممر بين الحشد الخارج : فأشارت بيدها محيية ، باسمة في ابتهاج . وفي طريقنا الى الحافلة لم تقل صاحبتها شيئا ايضا . كانت مشيحة عنا كالغاضبة .. فتركتها وشأنها . وكانت الجميلة مرحة باسمة ، طوال الطريق ، مقبلة بوجهها علي . وهبطنا عند مترو مايكوفسكي . واتفقت معها

أن نلتقي غدا مساء في السابعة عند المدخل الى المترو • كان اسمها لينا : وهو اسم شائع بين الروسيات • ولم تنس لينا أن تلتفت الي مودعة بيدها توديعة رشيقة باسمة • وكنت اتذكر الخيول العربية الكريمة حين تنفض عنها أعرافها •

في الامسية التالية كنت اقف في انتظارها ، وعينـاي ترصدان الامواج البشرية ، يلفظها المترو موجة بعد موجة • بعد عشر دقائق رأيتها خارجة مـن المحطة ، مسرعة الي :

ـ لم اتأخر كثيرا ؟

ـ كلا • أنا سعيد بمجيئك •

ـ وأنا سعيدة ايضا •

وعاد وجهها مرحا ، باسما •

ـ أي مطعم تفضلين •

ـ أحب أن تقترح انت •

ـ مطعم باكو مثلا ؟

ـ اقتراح حسن •

وكنا على مقربة منه • في المطعم كانت تقول :

ـ يعجبني هذا الجو الشرقي •

ـ وانت وردته البديعة •

كنا جالسين قبالة الفرقة الموسيقية • وكانت الاضواء حمراء ، والستائر حمرا •• وكأننا في ضباب أحمر خفيف • حين اخذنا نرقص احسست بقوامها لدنا مليئا بين ذراعي • كنت أصغر منها بعامين • وكانت تذكرني بهذا مازحة ، مرحة كلما طفقنا نتحاور في أمر من الامور •

ـ لاتنس •• أنا اكبر منك بعامين •

أي انها اكثر معرفة بالامر مني • كنا في جلستنا في أوج الالفة والمودة •

وكانت تطيل نظراتها باسمة الي • وقد أثار هذا اهتمام مائدة مجاورة • فكانوا يتهامسون ناظرين الينا بارتياح •

ـ أتدري أنني سباحة ماهرة •

ـ وأنا سباح قدير • كدت أغ ق مرة في بحيرة •

وضحكت لينـا

ـ لكنك لـن تغرق معي • هـل تصحبني غدا الـى مسبح موسكو ؟ سأحصل لك على بطاقة اشتراك • سنقضي أوقاتا ممتعة جدا •• ونحن في المياه الدافئة بينما الثلوج تتساقط ، والبرد قارس في الساحة • هل تعدني بهذا ؟

ـ أعدك •• انما بعد غد •

ـ وغدا أين ترى ستكون ؟

ـ مـع لينـا •

ـ لينا الثانية ؟

قالت هذا مبعدة وجهها قليلا ، ناظرة بارتياب متعمد • كانت تبتسم وقد رأتني أتطلع اليها باعجاب • ورنوت فترة ، منجـذبا بامتلاء شفتيها الشهـي الجميل • وابصرت في عينيها الشهلاوين الباسمتين وعودا [illegible] بة وتساؤلا • قلت متذكرا خيول البراري الرائعة :

ـ بل معك انت ، وكل لحظة لو استطيع •

ـ دعنا ، اذن ، تتبادل قدحينا • أحب ان اشرب من قدحك •

وأنا أحب هذا •

أوصلتها حتى بيتها • واتفقنا أن نلتقي غدا ، في السابعة مساء في المكان ذاته عند المحطة • وفي السابعة رأيتها تنتظرني هناك • ودعوتها الى البيـت • وكنا في أمسية الخميس • قالت :

ـ لماذا لاندع هذا الى امسية السبت ؟ انت تدري أن علي ان انهـض مبكـرا •

فأنطلقنا الى السينما . في صحبة صديقة أحس دوما بارتياح . فأنا في رفقة دافئة أنيسة . حين يتفق لي أن ادخل السينما وحيدا أحس بوحشة قاتمة .. وكأنني منعزل عن العالم كله ، وكأنني الغريب الوحيد . لكنني الساعة مع لينا الجميلة المرحة . حين خرجنا من أخر محطة مترو حتى بيتها لم نتجه اليه . انما انحدرنا مع البولفار . لم يكن البرد لاذعا . ولم نكن نحس بالبلل . كانت الاشجار مجللة بالثلوج . والممشى يحمل أثار خطى . وفي ممر منعزل تحت الشجر الابيض أوقفتها ممسكا بذراعيها . ثم أحطتها بيدي . وضممتها فحاولت الانفلات باسمة ، ممانعة برفق . وأخذت وجهها . وكنت أمر على ظهرها القوي براحتي . كانت تنأي بشفتيها كلما اقتربت منهما . كنت أقبل وجهها المتورد قبلا طويلة . وبعد تمنع منها كنت أقبل فمها ، أخذا شفتها السفلى بين شفتي . وكانت حارة في الصقيع الساكن . كانت عيناها شبه مغمضتين ، وكانت تقبلني وتشدني اليها .. راغبة بالقبلات . اوصلتها حتى مصعد العمارة . وهناك رحت اقبلها في ركن من المدخل .

كان شذاها لما يزل عالقا بي ، وأنا في المترو الدافيء بين المئات من العائدين الى بيوتهم . وفي ليلة الاحد كنا معا في غرفتي . ماتزال المائدة حاملة البقايا من الزاد والخمرة . وكنا في اصطراع واعتناق فوق البياض الناصع .. بياض الشرشف ، وقد انحسرت الاغطية الزرق متكومة عند أقدامنا . في الليل الشتوي الطويل ، والثلوج تساقط حثيثا عبر النافذة ، والريح تصفر لحنها النحيل المرتعش في الاعالي من المباني الهائلة ، في الحدائق الثلجية المقفرة ، في الساحات البيضاء الخالية ، كنت احتضن شبابها العاري بين ذراعي ، واقبلها طويلا . وكانت تشدني اليها وتقبلني مرتجة ، متأوهة .

كنا ننطلق احيانا الى المسبح .. فنقضي ساعة أو ساعتين في المياه الزرقاء الدافئة .. تحت الابخرة والاضواء المتلونة . وكانت تجد في السباحة لذة

عظيمة • كانت تلف رأسها بغطاء نايلوني ازرق ، وتندفع سابحة على ظهرها • وتغري بي لان انقلب مثلها • كانت صديقة لعدد كبير من الفتيات والشباب • وكانوا يهتفون بنا مرحين • كان يطيب لها كثيرا أن نكون معا في المسبح •

أحيانا كنت أضيق ذرعا بجرس الساعة المنبهة ، وهو يوقظها مبكرا لتلحق بعملها • فتقول غير مبالية :

ــ ينبغي أن تتعود النهوض مبكرا •

وتجرني من يدي ممازحة ، وترغمني لان انهض واشاركها في افطارها • في الليل ، بعد العشاء ، كنت انصرف الى كتبي • وكانت تتناول رواية ، بعد اختيار ، وتقرأ • واخرجت ، مرة خفها وثوبها المنزلي من حقيبة قماشية :

ــ لن تتضايق اذا تركتهما هنا •

كانت تنظر الي نظرتها الطويلة الرانية • وتتصرف كالخطيبة •• واية خطيبة رائعة هي ! انما آه •• وافزعتني ، ذات ليلة ، وهــي تضع يدي فوق بطنهــا :

ــ ايسعدك أن اكون حبلى ؟

واضافت وهي تنظر الى اضطرابي ضاحكة :

ــ هذا أمر لن يتم الا بعد اقتراننا • اية طفلة جميلة ستجيء من دمنا نحن الاثنين ! كل صديقة تؤكد هذا •

كنت ادري أنني سأرمي بنفسي في برية المجهول • فما من قوة تجعلنــي انتزع لينا من طريقها الامن لاصحبها • كانت تقول :

ــ لكنك تستطيع أن تبقى معي مادمت تحبني •

ــ هانحن نستبق الزمن •

ــ طيب • أي ضير في أن تتزوج الان •

ــ لكنني مازلت طالبا •• ولن نحصل على شقــة •

ــ يمكنك أن تقيم معنا في شقتنا ٠

ــ كلا ٠ لااستطيع هذا ٠

ــ طيب ٠ هذه الغرفة تكفينا نحن الاثنين ٠

ــ أأتنزعك من شقتكم المريحة لارمي بك هنا ؟

ــ على العكس ٠ أرى أنها حياة لائقة ٠ ومازلنا في أوج شبابنا ٠ سنجعل منها غــرفة ملائمة لاثنين ٠

ــ لاتنسي أن الحياة في الاسرة غيرها في الصداقة

ــ نستطيع أن نستمر في وضعنا هذا ٠

ــ كيــف ؟

ــ تتزوج ونواصل عيشنا صديقين ٠

ــ وأي حلم أجمل من هذا ؟ لكــن من يضمن أنك ستوافقين على مثل هذا الوضع بعد بضعة اشهر ؟

ــ ألم تر الطلبة المتزوجين من زميلاتهم ٠٠ يقضي الزوجان منهم في غرفة واحدة خمسة أو اربعة اعوام ؟

ــ أعــرف هذا ٠

ــ فما اختلافنا عنهم ؟ بالطبع أنا احاورك هكذا لاني أعرف انك تحبني ٠ في وضع أخر ماكنت لاتفوه بكلمة مما سمعتني أقوله لك ٠٠ كما انـــي أحبك صادقة وانت تعرف هذا ٠

سكتنا حينا متأملين ٠ وكانت عيونها غائمة ٠ ورأيت دموعها فرحت اقبل عينيها وأضمها في حنان ٠ قالت :

ــ مايحيرني هو انني أعرف حبك لي ٠ لقد طار صوابك حين تلفنت لك أنني سأتأخر عنك ثلاثة أيام ٠ وكنت أريد لك ان تتفرغ للامتحان ٠

لاحل الا ان نفترق ٠٠ أو نتزوج خلال هذه السنة ٠ وماكنت أنوي أن

اتزوج . فأفترقنا مرغمين . ماادراني أنني ، بعد سنين ، سأحن اليها حنينا رهيبا ؟ كانت تبعث لي ببطاقة تهنئة في الاعياد . وفوجئت ، مرة ، ببطاقة منها تهنئني برأس السنة الهجرية . لاادري كيف اهتدت الى الامر . ونسيت أن اسألها عن هذا عندما التقينا ، صدفة ، بعد شهور قبالة البريد المركزي . كانت مع صاحبة لها غير تلك الدميمة . وكانتا سائرتين باتجاه الكوم . فتجولنا معا في المخزن الكبير المزدحم . في طريق العودة دعوتهما لنجلس ساعة في المقهى . وبعد المقهى رأت صديقتها أن تشكرني وتودعنا . في الشارع كانت لينا أخذة بذراعي . فسألتها أن تتعشى في مطعم . فأحبت أن ننحدر صوب مطعم باكو . كانت واثقة من أنني سأطلب يدها يوما ما .

الان ، وقد من من الزمن مامر ، طالما أرى قامة لينا العالية القوية الجميلة في هذه القامة الرائعة أو تلك . طالما أرى شعرها الغزير المتموج عند هذه أو غيرها من الفتيات . كل خطوة قوية سريعة تذكرني بها . في الطائرة السوفيتية ، وكنت عائدا من موسكو في رحلة من الرحلات ، بعد زمن طويل .. وجدتني احدق ، فجأة ، بوجه المضيفة الجميلة الطويلة . وكانت هي الاخرى تحدق بي . وطال تحديقنا زمنا . وكنا ممتزجين في تحديقة غريبة . وكأننا كنا نبحث عن بعضنا منذ زمن بعيد . ولم تنفصل اعيننا الا بمشقة . كنت أرى لينا في وجهها . أما هي .. فماذا كانت ترى في ؟ بعد هذا كانت المضيفة ترنو الي وكأنها تتذكر وجها ما . ورأيت لينا ، مرة ، محدقة بي .. في وجه نادلة المطعم في مشفند ، وكنت ضيفا في مهرجان سينما بعد سنين . وقد وجدنا نفسينا فجأة ، منصعقين في تحديقة طويلة .. هي هذه التحديقة المباغته المستغرقة الممتزجة ، وقد غدونا شخصا واحدا . وما انفصلت اعيننا ، ايضا ، الا بعناء . ترى ماكان يشدها الي ؟

اني اتذكر لينا جيدا هذه الساعة .. ايماءتها الضاحكة لي في المسرح ،

وابتسامتها العريضة في البوفيت ، وانحناءتها علي تقبلنـــي ، وأنا في فراشي ، مسرعة الى عملها • ما أقسى أن نجعل من انفسنا حكما على تصرفنا بعد تلكم السنين !

أنما هو المرح والشباب ! وها أنا في صحة صديقين •• نذرع الرصيف الرحب حيال الجانب الخلفي من فنـــدق موسكو • فألتقينــا بمجموعة من الفتيات • وها هي اكثرهن فتنة : صبية متوسطة القامـــة ، رائعة الكتفين •• نبتسم لي ابتسامة طويلة • واجتزنا المجموعة ، والصبية تبتسم لي • وبعــد خطوات التفت • فرأيتها واقفـــة مستديرة الـــي بابتسامتها الطيبة السخية • فاعتذرت من صاحبي ، وأسرعت اليها • فالتقينا لقاء صديقين • قضينا الامسية في المقهى مع الشمبانيا • كانت طالبة أداب في الجامعة • وفي ليلة الاحد ، بعد يومين ، كان عريها المتليء الناعم الحار بين ذراعي • وكما التقيت بغيرها ، منصرفا عنها •• التقت هي الاخرى ، بالطبع ، بغيري منصرفة عني •

في الصباح ، تحت الثلوج المتساقطة ، تتسارع الخطى العابرة •• وكنت اعبر الشارع باتجاه المعهد • وفي البوفيت اتجرع قدح الحليـــب بالكاكو •• واتناول افطاري من البيض المقلي باللحم •• أو من المقانـــق ولما يزل البخار الدافيء يتعالى منها •• ويلذ لي أن اضع فوقها نقاطا من صلصة الخردل • في عطلة الاحد كنت أمضي لاتغدى في مطعم الحي ، تحـــت الثلج • كنت أترك المعطف والشابكا لدى عاملة المشجب • وادخل الصالة واقف في الصف فأخذ حساء الخارجو ، وفي السائل الغليظ من الخضر تطفو شريحة ليمون وحبـــة زيتون •• أو أخذ حساء اللهانة أو السلانكا من الطاهي الاحمر الضخم • وكان صامتا متأملا ، دوما ، فيما لاادري • وأخذ النوع الثاني : الكتليت أو لحـــم الضان مع البطاطس من الطاهية الجميلة المتفجرة عافية • فاضع غدائي فـــوق مائدة ما • وامضي الى البار لاجيء لي بقدح بيرة تملأه العاملة من الحنفية •

احيانا كنت اصادف جماعة من طلبتنا في المطعم ، وقد افرغوا عشرات الاقداح • وكان جيلي بينهم غالبا • عادة ما كان اوكاجين هو الممهد لهـذه الجلسات • كان شاعرا منغولي التقاطيع من ألتاي • كان ينفق منحته علـى الفودكا في أقل من اسبوع • كان صديقا لجيلي • وما كنت لاميل الى جلساتهم هذه • مرة رأيت اوكاجين ، وقد افرغ قدحه الاخير من البيرة ، ينتفض واقفا ، مطلقا صيحة وحشية • ورأيت الروس يلتفتون اليه باسمين • وقد هتف احدهم معجبـا :

ــ أية روعـة !

وكان فكرت ، الشاعر الاذربيجاني ، اكثر السكارى شهرة في المنزل • لم يكن مشاكسا أو معربدا • كان وديعا مسالما • كان ينهض مبكرا كل فجر ويسرع الى المطعم المجاور خوفا من أن تفوتـه الكاشا •• عصيدة الحليب الغليظة • فهي ارخص أكلة في المطعم • ليس غريبا أن يحرص عليها سكيـر مفلس مثل فكرت • غالبا ماتكون عصيدة الفجر هذه وجبة نهاره الوحيـدة • بمثل هذا البطن الخاوي كان يطوي نهاره مخمورا ، يبحث عني وجيلي ليقرأ قصائده الجيدة القاتمة • كان في خصام لاينتهي مع الناشرين • حين منـح فكرت مكافأة مجموعته الاولى « النورس » •• عاش اسبوعا حافلا رهيبا • وبألحاح منا اقتطع من المبلغ ثمن بدلتين • وانفق روبلاته حتى أخر كوبيـك مقيما ، في غرفته ، حفلات سكر اسطورية •

تلك كانت مجموعة من الطلبة السكارى اغلقت بابا دون عالم الحكمة والتعاليم • ألح فكرت أن احضر جلساتهم مرة • وحضرت متأخرا • حيـن دخلت الغرفة أطلقوا صيحات فرح • وتنازل لي طالب عن مقعد مريح • لـم تكن الكؤوس كافية • كان بعضهم يتجـرع الفودكا مـن صحن عريض من صحون المائدة • وكان يشرب بارتياح ، وكأنما الفودكا لاتشرب الا بالصحون •

وكان أخر يفرغها في فمه المفتوح من عنق الوعاء الالمنيومي ، وعاء الشاي الكبير • حين انتهت الفودكا والروم والكونياك جاءوا بالسبيرتو • وتوسلوا الي أن اتذوق قليلا منه • فأخذت جرعة من القنينة ، واحسست بحنجرتي تحترق : كرة من اللهب تتوقف محرقة ممزقة • والثلج يتساقط راقصا مدوما • والزوبعة الثلجية تنتحب فوق السطوح • والجلسات تطول ، في الغرفات ، مع الشاي والتبغ • وأحس بالاختناق فأفتح الكوة لالسنة الزوبعة الثلجية المتلوية • كان جريباخين السكير الاعجف ، زميل جيلي الاخر ، القادم من سيبيريا ، مفلسا متحرقا لان يشرب قنينة الكولونيا • ويدق الباب على جون • فيقدم جون ، ممتعضا ، قنينة كولونيا خضراء ويرفض السكير الاعجف • لقد جاء طامعا بالاخرى ، بالزجاجة الطويلة المترعة • فيعرض عنه جون ممتنعا • ويسرع السكير الى غرفته •• ليقتحم جلسة الشاي الهادئة عند جون ، مهددا ببندقية صيد عتيقه • ويتخشب جون ذاهلا والبندقيه مصوبه اليه • ويرفض أن يتنازل عن زجاجة الكولونيا الطويلة • وفي العمق من الليل ، في الطابق الرابع تنفجر اطلاقة مدوية • لقد وجد السكير نفسه يائسا فأطلق على النافذة الموصدة • وتسرع الميليشيا لتجره الى السجن • ويفصل بعدها من المعهد فصلا مؤبدا • ويطرد من المدينة •

كانت الثلوج تدوم راقصة متلوية • والزوبعة الثلجية تنتحب ملتاعة عند النافذة • وأنا في غرفتي اقرأ لوبادي فيجا أو كالديرون • واتجرع الشاي الحار • ونافذتي تقرع بالحاح • فأظنها الريح • واني لاصغي •• فأسمع دقا جليا واضحا • لقد اعتاد الناس أن تطرق ابوابهم عليهم • فأي شيطان يدق علي نافذتي ، في الطابق الخامس ، ليزورني في منتصف الليل الثلجي العاصف ؟ فأترك كتابي لافتح الكوة واتطلع • في الزوبعة الثلجية المتلاطمة •• ارى احدهم عند نافذتي ، متعلقا بسلم الاطفاء ، حاملا معه ملف اوراق ضخما ،

وهو يهتف بي لان أفتح النافذة • هو ذا أحمد القفقاسي يحل علي ضيفا من النافذة في منتصف الليل !

لاوقت للايضاح • فتحت النافذة ، وتناولت ملفه اولا • ثم اعنته ليهبط في غرفتي مع الرياح والثلوج • واسرعت أوصد النافذة •

ــ ماذا جرى يا أحمد ؟

ــ المناوبة اللعينة •

ــ اتغامر برأسك هكذا ، متسلقا هذه الطوابق الخمسة كلها في الزوبعة الثلجية الرهيبة ؟

ــ وما العمل ؟ والمناوبة تترصدني عند المدخل ؟

الامر واضح الان • لم يكن احمد من القاطنين في المنزل • كان صحفيا من القفقاس يحاول كتابة الرواية • كلما جاء موسكو حل ضيفا على اصدقاء من طلبة المعهد الجنوبيين • وأحمد يتردد كثيرا علينا حتى اتخذنا نحسبه واحدا منا • وضاقت المناوبات ذرعا بتردده علينا • غاليا ما كان يجيء مخمورا بعد منتصف الليل فيزعجهن بطرقاته • كن يزجرنه حينا ويحذرنه حينا أخر •• ثم منعنه من الدخول • فلم يجد من سبيل غير سلم الاطفاء ليتسلل حذرا الى اصدقائه • كنت انظر الى ملفه واضحك : كان هذا عمله الروائي يدور بـه على الناشرين • تناول احمد ملفه ، وانسل ، متلفتا ، الى غرفة زميل له •

كنا في عطلة نصف السنة • وكنت أخذا طريقي الى مسرح غـوركي • وهو في جانب من الكرملن • كنت متفقا مع فلاح على الذهاب معا لنشاهد عرضا لمسرحية « في الحضيض » • واعتذر فلاح عن المجيء ، تاركا تذكرته معي • فذهبت وحدي تحت الثلج المتطاير الخفيف •

كنت واقفا في الممر الى المسرح تحت العقد الحجري المقوس • كان الممر مقفرا شبه معتم • وكنت انتظر أن أسأل عن تذكرة زائدة • ماكنت راغبا ،

بالطبع ، ان ابيع تذكرتي لرجل أو فتاة دميمة • اني لارقب أن تتقدم مني امرأة شابة أو فتاة من الفتيات الجميلات • كنت واقفا انتظر ، وقد مر وقت • فرأيت صبية حلوة تقترب مني :

ــ عندك تذكرة زائدة ؟

ــ اجل • أأنت وحدك ؟

ــ بلى • وحدي •

فأخذت التذكرة لتقرأها • ثم اعادتها الي باسمة ، وفي وجهها ألفة ، وعيناها تتطلعان الي بارتياح :

ــ هذه لمسرح غوركي • وأنا أود ان ارى قصر المؤتمرات •

وابتعدت عني لتقف ، عن قرب ، منتظرة • كان وجهها جميلا عريضا ، ومعطفها الازرق يلف قواما متوسط الطول ، فتيا ممتلئا • كانت في التاسعة عشرة •

أما ساقاها فكانتا أعجوبة للناظرين • ومر وقت والصبية تنظر ناحيتي متبسمة • ثم وجدتها تقبل الي وفي صوتها وحركاتها الفة :

ــ طيب • سأخذ تذكرتك •

كان العرض سيبدأ بعد قليل • فأسرعنا لندخل • كانت تبتسم في وجهي قائلة :

ــ لكنها مسرحية قديمة • كنت اريد الدخول لقصر المؤتمرات •

عند المشجب اعطتني العاملة رقما واحدا لمعطفينا • واخذنا نرتقي السلالم المرمرية مسرعين ، وهي تمد يدها بثمن التذكرة :

ــ دعينا من النقود • يكفي أن نشاهد العرض معا •

ــ خذ ارجوك •

ــ كلا • لاأهمية لهذا •

ـ خذها .. وفي الاستراحة يمكن أن تشتري لنا شوكولاته .

لم أخذ النقود بالطبع . وفي الصالة كانت تـجلس الى جانبي أليفـة كالهرة . كان شعرها قصيرا ، وقوامها الممتليء المتكامل يذكرني بافروديت . اكتافها متكورة رحبـة ، وصدرها العريـض الممتليء يعدنـي بألذ الليالي واسعدها . كان تكوينها البديع ملفتا لانظار النساء انفسهن . مازلت اذكـر السيدة الجالسة وراءنا ، وهي ترنو الى كتفيها متأملة معجبة . وفي الاستراحة انطلقنا الى البوفيت . ورحنا نمتص البونش الممتع الحلو ، خلال القشة ، متلذذين . واحسست بدوار خفيف .

اخبرتني انها من كييف . وهي طالبة في المعهد الموسيقي ، واختصاصها العزف على القيثارة . امها أرمنية وابوها روسي . كانت تتصرف بألفة وكأننا أصحاب منذ زمن بعيد . في الصالة ، وهي تحدثني ، قبيل المشهد الثاني ، كانت تتقرب بوجهها مني ، وكتفها الدافيء الممتليء ملامس لي . كانت في زيارة الى موسكو مع صاحبات لها ، وتقيم في شقة لاختها القاطنة هنا . بعد العرض كانت الصفوف طويلة متزاحمة في ممر المشاجب . فأقترحت قائلة :

ـ لندع معطفينا حتى تخف الزحمة . ولنقف هناك .

واشارت الى جانب من الممر . وسألتني :

ـ مااسمـك ؟

فأجبتهـا .

ـ وايـن تدرس ؟

فأجبتها . وسألت :

ـ وانت .. ماأسمك ؟

ـ لن اقول .. احزر انت .

ـ لكننا الاسماء كثيرة .

ـ انت مطلع على شعر جوكوفسكي • أسمي عنوان قصيدة له •

وذكرت اسمين أو ثلاثة • وكانت تهز رأسها نافية • لاادري كيف غابت عن بالي قصيدته الشهيرة « سفيتلانا » • ورأتني متحيرا •

ـ سأقول لك •• اسمي سفيتلانا •

ـ لا ادري كيف نسيت • انها احب قصائده الي •

ـ فكيف لم تتذكر اذن ؟

ـ لنذهب • لم يعد الصف طويلا •

كنا نقطع الساحة الحمراء متمهلين • والثلج يتساقط رطبا ذائبا • كانت الليلة دافئة • ومن فوقنا تتوهج الانجم الياقوتية في ذرى ابراجها • كانت الساحة مبقعة بالثلوج • ثم مررنا بأبواب الكوم الكبيرة المقفلة ، منحدرين نحو مترو سفيردلوف • فجأة سألتني :

ـ انت تعيش في شقة ؟

ـ كلا • لدي غرفة •

وأضفت قائلا :

ـ هل استطيع دعوتك الليلة ؟

ـ أتعيش وحدك ؟

ـ أجل •

ـ طيب • سأتلفن لاختي أولا •

ودنونا من اكشاك التلفون العديدة المصطفة على جانب من واجهة المحطة • وفتحت الكشك • ثم جاءت باسمة :

ـ لنمض •

أوقفت التاكسي وانطلقنا • في الطريق كنت أمسك بيدها في تودد وحنان • وهبطنا قبالة زليوني دوم • واجتزنا الشارع • كان المصعد عاطلا •

فأخذنا نرتقي السلالم حتى الطابق الخامس • وكنا نضحك • كان الممر مقفرا ، والسكون شاملا • وفتحت الغرفة • اشعلت ضوء السقف ، واعنتها في نزع معطفها • وعلقت معطفينا • واجلستها الى المائدة الخشبية العارية • ومضيت لاعد الشاي • كنا جائعين • وكانت الثلوج تنهمر عبر النافذة • والخطى المتباعدة تخفق عاليا فوق الارض المتجلدة ، أتية من الشارع • كنت نادما على تصرفي بزجاجة الخمر المختزنة • ماكنت أعلم ان فلاحا سيعتذر • قلت أسفا بحق :

ـ أسف ياسفتيلانا •• لانبيذ لدي •

ـ ولماذا النبيذ ؟ الوقت متأخر •

ـ اسمعي • نحن جائعان ، ولم تأكل شيئا في بوفيت المسرح •• لقد نسينا • اسمعي •• عندي علبة من الزبدة ورغيف من الخبز الاسود • أنا لا ابتاع غير هذا النوع من الخبز •• سنعد منهما ، مع الشاي الحار ، شطائر طيبة •

ـ جيد • هذا عشاء ممتاز في هذه الساعة المتأخرة •

اتذكر أننا كنا مبتهجين ، متلذذين تماما بخبزنا وشاينا • كانت وجبة رائعة • وقد أخذت الثلوج تزداد سرعة وانهمارا • والرياح تنفتل نغما راثيا ، ناحلا ، فوق المدينة الهائلة النائمة • عبر النافذة كان الصقيع ، وفي الغرفة كنت ألف كتفيها بذراعي ، واقبل وجهها وشفتيها • وفي قبلاتها •• وهمساتها رقة بحاء كريمة ، وعنقها ابيض جميل • وكان ذراعاها يشدانني اليها •

اجل • في الليل ، على فراشي ، طلبت من تحبه نفسي •• طلبته فوجدته • كان مصباح السقف الباهر مشتعلا • وكانت افروديت حية . خارجة توا من لجة البحر ، متقلبة بين ذراعي • كان فيضها الجسدي الابيض الناصع النقي الباهر ملء فراشي كله • كانت مرمرا حيا حارا لينا • وكانت بامتلاء فخذيها

وذراعيها وصدرها وتكوينها البديع هي افروديت نفسها كما رأيتها في المتحف .
كنت أمس بأصبعي نهدها الممتليء المتوثب .. فأحس به كالكرة المنتفخة
الصلبة . وكانت تشع صفاء ابيض نقيا .

نهضنا من نومنا ساعة الضحى . وكنا جائعين . في الشارع .. كان الثلج
يتساقط ، والريح ترش وجهينا بالهشيم المتطاير . كانت الاشجار متغطية
بالثلج ، والطرق مغمورة به . وكنا نحس به هشا ، وثيرا تحت أقدامنا . كنا
متجهين ناحية المطعم المقابل ، وهي آخذة بذراعي . فدفعت الباب الخشبي
الثقيل ، ودخلنا المطعم . فأخذنا البرارينا والسلطة والخارجو والبرتقال .
وجئت من البار بقدحي بيرة . كان حساء الخارجو حارا ، شهيا جدا بعد جوع .
وكانت البرارينا طيبة بالبطاطس والبصل ولحم الضان المقلي والخضر المتنوعة .
وكنا نتجرع البيرة الباردة بتلذذ .

ورجتني أن نزور متحف بوشكين . فمضينا الى هناك . ورحنا نتجول
من قاعة الى قاعة .. متأملين من التصوير والنحت نماذج تمثل الفن الانسا
عبر عصوره المتعددة . كانت متعبة قليلا ، فأحبت أن نستريح فوق مصطبة .
وفي غفلة من حارسة القاعة اعطتني شفتيها لاقبلهما . ثم اخرجت من حقيبتها
قطعتين مغلفتين من الشكولاته . واطعمتني احداهما بيدها . ثم خرجنا الى
الشارع نتمشى تحت الثلوج المنهمرة . وقضينا ساعة في المقهى . شربنا شيئا
من الكونياك والقهوة ، وانحدرنا صوب سينما روسيا . فجلسنا في الصالة
الصغيرة الملحقة بالسينما . وشاهدنا أفلام كارتون . من بينها « السحابة
العاشقة » لناظم حكمت . وفي ظلمة الصالة كانت تهمس ، متقربة بفمها مني :

ــ قبلنــي .

ثم أوصلتها الى المنزل حيث تسكن اختها . واتفقنا على لقاء في الامسية
التالية في مقهى موسكو . ووقفت انتظر الباص . بعد دقائق رأيتها تعود شبه
راكضة الي :

ــ أنا ذاهبة لاشتري خبزا • وأحببت أن أراك • سأظل واقفة معك حتى تركب • يعجبني أن اقف معك •

وقد أثارت عودتها الراكضة الي انتباه الواقفين • فصاح احدهم ملاطفا ناظرا الينا بارتيــاح :

ــ لوبوف •• لوبوف !

أي : الحب •• الحب !

في الامسية التالية كنت انتظرها في المقهى • وجاءت فرحة بلقائي • كان بلوزها الصوفي الاخضر الثقيل ضائقا بامتلاء صدرها • وكانت الاعين تتأمل ساقيها باعجاب • وجاءت النادلة بقائمتها • فسألت سفيتلانا أن تختار • قالت :

ــ أحب أن اشرب عندك •• هناك •

ــ طيب • لنشرب كأسا هنا في الاقل •

وطلبت قدحي شمبانيا • كنا نتضور حبا • فركبنا الحافلة الى المنــزل • وكنت قد أحضرت الى غرفتي خمرا وجبنا وسجقا وسمكا معلبا • فأقمنا حفلنا الصغير الجميل • كنا نصغي الى موسيقى الكرامفون القديم •• الى الرومانس الغجري : العينان السوداوان • كان شائعا في حانات اوائل القرن • في هذه الاغنية لوعة كاوية ، وأهات طويلة لغجرية عاشقة تتحرق هوى ورغبة :

ايتها العينان السوداوان

العينان المحرقتان ،

العينان المتقدتان رغبة ••

•• وعدنا ثانية الى المائدة • لم تكن ترتدي شيئا غير السليب تحــت مصباح السقف القوي • كان جسدها الابيض الناصع •• الدافق الممتلىء اكثر سطوعا وتألقا من ضوء المصــباح • وعلى صــدرها يتوثب الهرمان العاجيان • كانت راحتاي ، كلما امسكت بهما ، عاجزتين عن احتواء فيضهما •

وخفت أن تبرد • فارتدت بلوزي الاحمر القاتم •• فضاق بامتلاء صدرها • وطرق الباب :

ــ ممكن أن ادخل ؟

هذه صديقة لزميلي الاوزبكي حكيم • لم تشأ سفيتلانا أن تتوارى ، وقد عرفت بالطارقة امرأة ، وكانت شبه عارية • ورأتها الزائرة • فأنسحبت معتذرة ، هامسة لي ، معجبة بالعري الدافق :

ــ أين وجــدتها ؟

كانت راغبة بقبضة شاي • ورأيت الشرر في عيني سفيتلانا • كــان ينبغي أن اوضح لها الامر • كانت الثلوج تتهاوى حثيثا تلك الليلة • وكنــا في حفلنا الجميل • وأحببت أن تسمع ايديت بياف • فوضعت اسطوانة كانت الاغنية عن مغنية تتسول بعد انطفاء صيتها • أية تأوهات ! وأي رثاء في صوت هذه المغنية الفنانه ! وفي الدفء الغامر تبعثه الخمرة والحب ألقت سفيتلانا بلوزي عنها • وأدنت كرسيها الى جواري • كــنت اتعبــد بيدي وشفاهي اشعاعها الجسدي في نقائه وصفائه • وكنا نسمع الريح تصفر وتنفتل عاليا •• بعيــدا •

صباحا كنا في مقهى الشباب • كان فلاح وماهود جالسين ، فأنضممنا اليهما • وكنا نشرب الشاي بالحليب ونأكل الاومليت • ثم مررنا بشقة أختها لنأتي بحقيبتها الى غرفتي • عشنا معا اسبوعا • وجاءت نهاية العطلة • وسافرت الى كييف في قطار الليل • ووصلتني بطاقتها بعد أيام • وكنت في شاطيء غير شاطئها • كانت الشياطين الرائعة تطلع رؤوسها في أوديتي المظلمة • لم اعــد راغبا بالصبايا الناعمات • لم اعد راغبا بالصبايا وقبلاتهن فوق المصاطب ، وانتظارهن عند باب سينما • كنت متولها بعري الثلوج المحرقة ، بألهــات العري الدافق في الثلاثين ، ألهات الخطى المتثاقلة والكتفين الرحبين ، والنظرة

المتوقدة •• نظرة راغبة طويلة متأججة ، ملكـــية ناطقة بجمالها وامتلائهـــا الرهيبين ، نظرة متغلغلة تصعقني في مكاني ، وتجتذبني من محطة الى محطة •

كنت عاشقا ، متولها باستاذة شابة في المعهد •• امرأة في الثانية والثلاثين ، من ألهات الخطى المتثاقلة ، متزوجة من بروفيسور شيخ ، ولديها طفل • كنت أرى نظرتها الراغبة المتأججة •• واتردد • مامن سبيل يحملها الى غرفتي تحت أعين الطلبة •

كل فرصة بعد المحاضرة كنت انتظر مرورها في الـــرواق ، اتطلع اليها باشتهاء محرق ، الى اكتافها الرحبة والظهر يضيق قليلا عند الوسط ، وينصب موجا ممتلئا رائعا • كلما أتيحت لحظة لان اتكلم تركتها تمر دون أن اتحرك • كانت منتظرة أن اتقدم ، أن اتبعها الى الشارع • فأغاظها ترددي هذا • حين التقي ، مباغتة ، بنظرتها التائقة المتلظية رغبة ، محدقة بي ، تغض من طرفها ، وتشيح بجيدها ، وفي وجهها اعتداد • احيانا تطيل نظرتها الي •• في عيونها توق ورقة عظيمة •

مرة كنت ، والجرس يدق ، في ردهة غير ردهتنا ، اخط على السبورة لاهيا في حديث مع الطلبة • ودخلت هي • فرأيت وجهها فرحا بي ، بعينيها ضاحكتيـــن :

ـ أهذا انت ؟ ما الذي تفعله هنا ؟

ـ لاشـــيء •

فأمرتني ، ضاحكة ، أن اخرج • فأنصرفت من الغرفة مغلقا بابها • لكنني عدت لافتحه • لاادري أية قوة دفعتني لان أعود • كنت مطلا بوجهي عبـــر الباب • فأسرعت بوجهها الضاحك لتوصده • أية بهجة في وجهها ! لكنها لم تغلق الباب تماما • أبقت فتحة تخرج منها وجهها الي • كان وجهها قريبا مني ، محتجبا عن انظار الطلبة • والممر خاليا كان • أية نظرة في عينيها الباسمتين ،

المحدقتين بي ! لم أر مثل هذه النظرة المحبة ، المتغلغلة عميقا في القاع من القلب والروح . لم تقل نظرتها : انني لك ، فحسب . انما كانت تقول : نحن كيان واحد ، نحن روح واحدة ، نحن واحد وليس اثنين . اقتلني أذا شئت افعل بي أي شيء تريد ، فأنا انت .

في هذه البرهة .. كنت أستطيع ان افعل أي شيء بها ، أن أخذ بيدها وامضي بها الى نهاية العالم ، الى نهاية الزمن ، الى نهاية النهايات ! كنا نظرة واحدة ، نظرة كائنين هما كائن واحد . أكانت رغبة ؟ توقا ؟ رقة لاتوصف ؟ حبا عاصفا ، ملتهبا ، أكلا الروح والعصب ؟ كانت شيئا أخر ، غريبا عن هذا العالم ، شيئا هو السر الاعظم في الحركة الازلية الابدية لهذه الكواكب والشموس . اقبلتها تلك البرهة ؟ كنا مكتفيين تماما ، لكننا تهوق . كنا فرحا صافيا خالصا . أمسست شفتيها بفمي ؟ أم انني لم أمس الا أنفاسها العذبة ؟ وانتهت البرهة ، وانتزعت نفسي من بين عينيها ، متنبها الى الممر . وعدنا الى عالم الاخرين . وانسحبت بوجهها مني ، فأسرعت الى ردهتنا .. عدت الى المحاضرة والطلبة ، عدت لاصغي واكتب ، لاشرب وأكل ، لارتدي المعطف واركب الحافلة ، لاذرع الارصفة وادخل المقاهي ، واقف في الممر متطلعا الى وجهها الجميل صامتا ، اتطلع باشتهاء محرق الى صدرها واكتافها الرحبة والظهر يضيق قليلا عند الوسط لينصب موجا . والتقي ، مباغتة ، بنظرتها المتأججة رغبة ، محدقة بي .. فتشيح ، بعد جهد ، بطرفها عني ، وفي وجهها رغبة وتوق ، وفي وجهها اعتداد . ويمر الثلاثاء والاربعاء .. وتمر الخطى والوجوه ، والثلج يتساقط .

وفي هدأة الليل منفردا كنت عند مائدتي الخشبية العارية .. اقرأ الشاعر القروي كولتسوف أو بايرون أو فلوبير . وكان الثلج يتساقط ويذوب . وكنت أحس بالخضرة الكامنة النائية ، أحس بأنفاسها في الرياح الندية العريضة .

مرة دعيت مع جيلي وجون لنقرأ شعرا في أحد المصانع . جاءت الى المنزل فتاتان في اول الليل . فأصطحبتانا الى مصنعهما . احداهما عذبة مليحة ، في قوامها طول ولدانة . ورأيت في نظرتها الي وحديثها معي رقة وتعاطفا .

كنا ثلاثتنا جالسين أمام القاعة المزدحمة . وكانت الفتاتان جالستين وراءنا . ورغبت المليحة منهما أن تشرب . وكان أناء الماء فوق المائدة أمامنا . فأسرع جيلي ليصب لها الماء في القدح . فأعترضت هي قائلة :

ـ كلا .. كلا . دع فلانا يفعل هذا .

كانت تقصدني . وفي قولها اندفاع وسرعة . فأرجع جيلي يده صامتا . لكن لماذا كان هذا الاعتراض المفاجيء غير المريح ؟ لعلها شاءت أن تسبغ علي لطفا خاصا ! وتذكرت أنها كانت لطيفة معي في طريقنا الى المصنع . حين وقفنا لننصرف ، وقد انتهت الامسية ، قالت لي غاضة بصرها ، وعلى شفتيها ابتسامة :

ـ في القاعة الثانية .. حفلة رقص .

أردت لصاحبي أن يبقيا فأعتذرا . كانا راغبين بالعودة الى المنزل . فمضت بي الى الصالة ، أخذة بذراعي في لطف .. مثلما كانت تفعل هذا في الطريق . وتجمع حولنا حشد من الصبايا لاوقع في دفاترهن الصغيرة . وفي الصالة الثانية كنا نرقص . كان اسمها تانيا . وكنت أحس بلدونتها ودفئها وارتياحها الي . وكنا نرقص معا اكثر الرقصات . بعد الرقص أوصلتها حتى بيتها . واتفقنا أن نلتقي غدا في السابعة مساء ، عند مترو ليرمنتوف .

وفي السابعة وجدتها تنتظرني هناك . ودعوتها الى مطعم . لكنها راغبة أن نشاهد فلما :

ـ لماذا تكلف نفسك كثيرا .

بعد رجاء مني قبلت أن نقضي أمسيتنا في مقهى . وانطلقنا في شارع

جانبي لاعرفه • ودخلنا مقهى في الواحهة من مبنى هائل •ودعوتها في اللقاء التالي الى غرفتي ، فأصرت هي على السينما • وجاءت في ليلة الاحد الى غرفتي • ومع الخمرة والرقص ما استطعت شيئا معها غير القبلات • كانت تتمنع وتتوسل أن اكف • كنت أوصلها الى بيتها وأعود وحيدا • وكنت أحس بالتعب والفراغ ، في باص لاأعرف من اين يأتي ، في طرق لا اعرفها • تلك جولات مرهقة لاطائل من ورائها • ودعتني لزيارتها صباح الاحد • فمضيت حاملا في حقيبتي زجاجة كونياك •• فلعلها تكون وحدها • وفي الشقة كانت أمها واختها الصغيرة معها • وجاءت أمها بالشاي • وكانت طيبة ، مرحبة بي • وتركتنا وحدنا لتأخذ طفلتها في نزهة الاحد •

أخرجت زجاجتي ووضعتها فوق المائدة • فوجدتها تضحك منطلقة غير متوقعة مثل هذا الاقتراح :

ـ أنت حقا غريب الاطوار ! أية متعة تجد في أن نسكر الان • والساعة لم تتجاوز العاشرة صباحا ؟

وأبعدت القنينة عن مكانها • قلت :

ـ وماذا ترى سنفعل ؟

ـ سنفعل اشياء كثيرة • تتفرج على التلفزيون • نقوم بجولة في حينا لاريك منازل خشبية قديمة ، منازل روسية لما تزل مأهولة • ونعود لنتغدى غداء روسيا •

هذه فتاة جادة ، متعبة ! لكنها عذبة جميلة • وهي تودني كثيرا • وقريبا سيلوح الحائط الاصم • كانت نزهة رائعة في الصقيع الصباحي الرائق • وكان غداء طيبا حقا • وقد طاب لي حساء اللهانة • وكانت أمها تقول ، وقد ابهجها اعجابي بحسائها الروسي :

ـ ارجوك •• كل المزيد منه •

كان الطعام ممتعا مع الكونياك بعد الجولة في الصقيع • وبعد الغداء كانت أمها منطلقة بطفلتها في زيارة • فكانت الشقة خالية الا منا • وكنا مرحين في انطلاقة الشباب الحارة • وكنت أقبلها وهي لدنة دافئة بين ذراعي • فرجوتها أن تتمدد لاقبلها ع' ، وسادها •

ــ اتعدني ان تكون عاقلا ؟

ــ اترينني بلا عقل ؟

ــ اوه •• كلا • اعني ان تكون هادئا •

ــ الست هـادئا ؟

ــ اوه •• اعني •• لاشيء غير تقبيلي •

لكننا معا في فراشها •• معا في اعتناق واصطراع • كانت تتمنع جـادة متوسلة أن اكف • وكنت انتهل ريقها العذب ، راغبا متوددا • ووجدتها بعد قليل تقبلني •• قبلا ملتهبة ، وقد كفت يداها عن أن تصدا • أي عطاء كريم دافق بعد تمنع !

كنا نلتقي مرتين كل اسبوع • وكان الحائط عاليا ، هيبا هذه المرة • كانت الثلوج تتساقط بين حين وأخر • وكنت أعود الى غرفتي مع اول الليل •• لاقرأ هنري هايني ولوعته في حب ابنة عمه الثرية الجميلة •• أو اقرأ جورج ساند بلا حب ، واتمتع بقصائد روبرت بيرنز • وتصفو روحي وتتألق ساعات مع سونيتات شكسبير وبترارك • واتمزق أسى مع الامير ميشكين • أو اعود من شارع غوركي ، فرحا ، بنسخة نادرة أو قديمة عثرت عليها ، صدفة ، في مكتبة : اوراق العشب لوايتمن •• قصائد غوتـه •• اعمال بايرون •• او مجموعة اعمال يسينين النافذة منذ عامين •

مرة كنت في مكتبة قرب البريد المركزي •• مكتبة كتب مستعملة • كنت اتردد عليها كلما كنت مارا هناك : ارقب الناس يدفعون بكتبهم المتنوعة لقـاء

روبلات قليلة ، واتفق مع البائعة لأنتقي منها ماأريد • فاذا بأحدهم يهمس في أذني كالساخر :

ــ ليست هذه بالكتب النادرة •

والتفت لارى كهلا اعجف في معطف طويل ، في عينيه الصغيرتين مكـر رجل السوق السوداء الصغير • قلت :

ــ اعمل معروفا ودلني على كتاب نادر •

ــ الكتاب النادر في مكان ما •• وعلينا أن نبحث ايها الشاب •

ــ يخيل لي أنك تعرف •

ــ معـــي يسينين •

قالها هامسا ، محاذرا ، مشيرا لان نخرج • وبعدنا عن المكتبة بعدا مبالغا فيه • اجتزنا مسافة حتى مترو ماركس • ووقفنا في مدخل المحطة حيث تصطف اكشاك التلفونات • واخرج ، في حذر بضاعته المخـبأة • واردت أن افتح الكيس الورقي لارى المجلدات الخضراء الخمسة • لكنه رفض هذا خائفا ، ممانعا بيديه •

ــ كم تريد

ــ عشرة روبلات •

كان هذا ضعف السعر المحدد تقريبا •• بل أقل من الضعف • انما هو ثمن بخس • سأبحث اعواما في موسكو كلها دون أن اعثر على مجلد واحد من هذه الاجزاء الخمسة معروضا في مكتبة ما • اعطيته الورقة الوردية مسرعا • وعدت الى المنزل ممتلئا فرحا • كان لهذه الصفقة وقع رهيب بين الطلبة • كنت الحائز الوحيد بينهم على هذا الكنز •

كان الثلج يتساقط بين حين وأخر ، ولما يزل متكوما في اخاديـده حيال المنازل • وتحت الثلج كانت تانيا آخذة بذراعـي في طريقنا الى السينما أو

المسرح . وكنت ارى عيني تانيا المتسائلتين المهمومتين فأحزن . وتحت الثلج تسر ألهات الخطى المتثاقلة .. يدخلن هذا المخزن أو ذاك ، يخرجن من هـذا النفق أو يختفين في غيره . أو يسرعن بهـذا الامتلاء القوي الى الحافلة أو الباص . وكان أخر لقاء مع تانيا حزينا متجهما . وظلت تذكرة السينما طويلا في يدي . ورأيتني عاجزا عن أن افعل شيئا . فأطبقت على التذكرة حنقا ويأسا ، والقيت بها الى الريح والثلوج المتسارعة . ويجـيء الليل موحشا باردا ، والغرفة مقفرة ، خالية من الضحكة الانثوية الصافية .. كنت اتطلع وحيدا الى نافذة مشتعلة مقابلة ، وأسمع الموسيقى أتية من هناك .

كنت مسرعا لادرك الحافلة صباح الثلاثاء . كنت ذاهبا الى المعهد لاحضر الندوة الشعرية الاسبوعية لشعراء الكورس . وانطلقـت الحافلة قبل أن ألحقها . فرأيت امرأة جميلة متبرجة تضحك لي .. أو تضحك علي . كانت تنحني برأسها وكتفيها في غنج أو سخـرية ، ناظرة الـي نظرتها الضاحكة الساخرة . انني اتذكر هذا الوجه القوي الجميل . انما اتذكر وجها شاحبا ، مرهقا فاتنا ، غير هذا الوجه المتبرج بالزينة وحمرة الشفاه القانية . كـانت تضحك ، محدقة بي ، منحنية في غير ما طيش أو تهتك . اجل ! هي نفسها ! امرأة طويلة ، قوية ، ممتلئة ، صاعقة الجمال ، من ألهـات الخطى المتثاقلة ، ألهات الثلاثين . اقتربت منها :

ـ صباح الخير .

ـ صباح الخير . كنت حريصا على اللحاق بالحافلة .. وكأنما هـي الاولى والاخيرة . فيم هذا كله ؟

ـ ماكنت أعلم انني سأراك ثانية .. كنت سأتوقف بالطبع .

ـ اتذكـرني ؟

ـ اجل . واتذكر دوما خيبتي معك .

ـ وأنا اتذكر حوارنا ايضا • أمازلت غاضبا مني ؟
ـ كلا • لم اعد غاضبا • اذاهبة الى مركز المدينة ؟
ـ لا أقصد المركز تماما •
ـ هل استطيع مرافقتك قليلا ؟
ـ قليـــلا ؟
ـ أعني ماتسمحين لي به من وقت •
ـ لكنك مسرع الى معهدك •• وربما الى موعد •
ـ لاموعد لدي •• ولا محاضرات •
ـ كيف ؟ أفي عطلة انتم ؟
ـ كلا • انما هي ندوة • واقدر أن اتأخر عنها •
ـ طيب • أنا في اجازة • وأحب ان اتجول • ومادمت راغبا ولديك وقت سنتجول قليلا •• أليس كذلــك ؟

وكانت تبتسم في وجهي •• ابتسامة تقول لي انها تــدرك مقاصدي • كانت مرحة ، باسمة طوال الوقت • ودعوتها الى تكسي • فأجابت وهي تتسعن بي ، وفي كلماتها نبرة الاخت الكبرى أو الاستاذة :
ـ ولماذا تكسي ؟ لسنا على عجل •

كنت اتذكر خيبتي معها ، ورفضها دعوتي أنذاك ، وقسوة ردها علي • أنذاك كنا في الشتاء ايضا • كانت السماء والارض متجلدتين ، والريح قارسة رهيبة • كنت أحس بالتجلد في كل شيء • وكان الثـلج صلبا قاسيا تحت قدمي • كان يخيل لي أنني في جهة ما من انحاء القطب الشمالي نفسه • وكنت أشعر بالسكون الجليدي المـرعب • وكان النــاس يسرعون الخطى شبه راكضين • كنت في مخزن الحي اتسوق حاجة ما • ورأيتها هناك • هي ذي امرأة من ألهات العري الرهيب ، عري الثلوج المحرقة • كانت ساقاها بامتلاء

رائع لم تستطع عيناي انفكاكا عنه . واتبعتها الى الشارع . وتركتها تعبر روستافيلي لالحق بها في الممر العريض ذي المصاطب ، بين أشجار دوبرولوبوف ، وكانت خيوطا ناحلة متجلدة . كان الممر مقفرا والمصاطب شيئا مهملا ، منسيا لايتذكره أحد . حييتها ورحت احاورها . كانت مسرعة الى بيتها ، شاحبة ، مرهقة . لكنها جميلة ، وفي امتلاء رائع بديع أتبينه في تموج المعطف الثقيل . ولم استجب لاعتذارها . ظللت احاول واشرح وأقول أنني مغرم بها ، فلقد رأيتها مرارا في المخزن.

ـ انك تقول شيئا في غير حينه . انك لاصغر مني بكثير ، ولدي أسرة . كان هذا ممكنا لو انك التقيتني قبل عشر سنين . ارجو عفوك .

وانطلقت غير ملتفته الي في الصقيع القطبي الساكن .

جاءت الحافلة . فأسرعت تقول :

ـ هاهي الحافلة قادمة .

اقتطعت تذكرتين ، وجلست الى جوارها . كنت أحس بلداتها ودفئها كانت تبتسم لي تياهة برغبتي فيها وتوددي اليها . وتركنا الحافلة عند ناصية شارع بوشكين . واخذنا اتجاهنا حيال الواجهات . وانعطفنا يمينا مع بهو الاعمدة الازرق الفاتح . وسرنا فوق الرصيف العريض جنب المبنى الوزاري الهائل ذي الجرانيت الاحمر القاتم . وعبرنا باتجاه الكوم . كان الجو باردا . انما هو برد معتدل . كنا نسير تحت اسوار الكرملن العتيقة في صبيحة شتوية رائعة . وكنا نرى الى اليمام طائرا أو حاطا متجمعا هنا أو هناك فوق الساحة . ثم عدنا لنشرب القهوة في بار الطابق الثاني من فندق موسكو . كان البار منفصلا بحاجز من حبات الخيزران الصفر . وكان يلذ لي أن اتلمسها ، متخيلا منبتها الاخضر الاول . وشربنا مع البونش قهوة سوداء مرة . ورأيت أن تتغدى في أرارات .

ـ أتدري ؟ انني لم اتجول منذ زمن بعيد •

وانحدرنا ماشيين حتى مترو بول • وعبرنا صوب الجانب الاخـر • وكنا في سيرنا متمهلين • كان المطعم غير مزدحم بعد • فأخترنا مائدة تحت سمـاء السقف الغائمة • وجاءت النادلة الارمنية بالكونياك والبرجوم اولا ، ثـم السلطة والارغفة العريضة الرقيقة اللينه ، ثم الكباب الارمني • ومكثنا في المطعم اكثر من ساعتين • في الشارع كانت أخذة بذراعي • وكنت اتجه بهـا ناحية الموقف لننتظر التكسي :

ـ لابأس بالتكسي ، هذه المرة ، يافتاي •

كانت الثلوج تنهمر خفيفة • وكنا نعبر الشارع صـوب زليوني دوم • وكانت مرحة ، باسمة • ودعوتها لنجلس قليلا في غرفتي ونشرب الشـاي • في المصعد رأيت عينيها تتسعان تفكيرا ، وفمها يبتسم في غموض • ثم أطرقت برأسها ، وكأنما قد ادركت انها ستكون لي ، اخيرا ، بعد دقائق •• ستـكون بين ذراعي الغريبين ، وأن الفتى الراغب المعجب سيأخذ من عريها الرائـع الممتليء مايشاء أن يأخذ ، وانها امرأته منذ حطت بقدميها في المصعد • ولـم تعد نظرتها تياهة برغبتي الدفينة الباقية • في الغرفة كانت تصغي الي باتنباه • ولم تعد تتحدث في غنج العارفة بسطـوتها علي ، وبـجمالها القوي المنيع • وأحست بارتياح اذ وجدتني انطلـق هاذيا ، متعبدا جمـال السيدة فيها • وادهشها اعجابي الكامن القديم ، وتلطفي معها في غير ماتعجـل أو تهور • وتركتني أقبل وجهها وفمها بعد تمنع واه هو الرضا بعينيه • وأخذت بيدها الى السرير • فجلست فوق حافته لتنضهو • كان شعرها الاشقر يتكوم حول وجهها • وكنت أهمس باسمها مقبلا :

ـ لكم انت جميلة وطيبة يارايا !

في الحادية عشرة من الليل اوصلتها قريبا من بيتها وعدت • كنت اشعر

بشيء كالدوار أو السكر . كنت ثملا بهذا العري المتلىء الرهيب ، عري الثلوج المحرقة . وكنت اتذكر قبلاتها وهمساتها اللافحة :

ـ انتظرني بعد غد .. في الثامنة مساء عند بابكم . لن اكون حرة بعد اسبوع . سيعود زوجي . لماذا لم التق بك منذ اسبوعين ؟ كنت حرة تماما . مع هذا سألتقي بك كلما سنحت فرصة . لكن من يدري ؟ ربما ستنسى . أجل ستجد غيري وتنسى . انتم معشر الرجال سريعا ماتنسون . لكنك تقبلني وكأنك لم تقبل امرأة من قبل . اتريدني حقا ؟ سأترك لك ورقة كلما وجدت فرصة . لكنك فتى في مقتبل عمرك .. وسريعا ماتنسى امرأة في مثل عمري . من يدري ؟

كانت الثلوج تنهمر وتذوب . كانت ثلوجا رطبة ، غير باعثة على البهجة في الليالي الدافئة . انما تجعل الجو كابياً والارصفة مبتلة . كنت اعود الى غرفتي شاعرا بالكآبة والتوحد ، عزوفا عن التجول في الرطوبة والبلل .. بعد الدفء الخانق في الكورس . كنت اكتفي بجولة البولفار والحافلة . والليل يهبط قاتما مدلهما . وكنت اقرأ نوفاليس وشميسو فأحس بوطأة الوحشة والفراغ . كنت استطيع ، بالطبع ، دعوة زميلة لي أو فتاة من الحي .. لندخل السينما أو نتجول . غير أن الروح كانت مظلمة قاحلة .

في ظهيرة الاحد الثلجية الناصعة كنت ذاهبا الى مطعم الحي . ومررت بمجموعة من صبايا الحي .. من طالبات الثانوية . كانت بينهن ناديا الطويلة الشقراء . كان شعرها طويلا ، منحدرا تحت قبعتها المائلة . وكانت ترمقني بتحديقة حائرة ، بنظرات مراهقة عاشقة . وكنت اشيح عنها بعيدا . فزادها هذا تعلقا . أي نفع في قبلاتها فوق المصطبة الباردة الرطبة ؟ وسمعت واحدة منهن تقول ، وقد اجتزتهن .

ـ يتهوفن !

ربما هو شعري الطويل المتلوي ، وعيناي الحزينتان ، ووجهي المتجهم
ذكرهن بصورة بتهوفن ! مرة ، في الصيف ، اذكر أنني رأيت ناديا واقفة في
خبز .. في أخر الصف . فوقفت خلفها . كان شعرها الطويل فواحا برائحة
ـبة . فمسسته باطراف أصابعي ملاطفا . وكانت تبتسم لي . وهمست لها
، تنتظرني لنخرج معا . واتفقنا أن نلتقي بعد ساعة عند اول مصطبة في الممر
ن الاشجار . وكنت أريد أن اتنزه . فذهبنا سائرين على اقدامنا طويـــلا ..
تى وصلنا متنزه الغابة عند الجوار . كان جانبا من الغابة تقسمها ببحيرة
حديقة طيور . فركبنا القارب مجذفين ، وقد طابت النزهة . وكنت رقيقــا
عها فسرها هذا . وفي الليل كنا فوق مصطبة الممر . لكــن أي نفع لي في
بلات مراهقــة ؟

(ليس مثل الحب الاخير لامرأة .. حب يرضي
الرجل ويكفيه ، أول عهده بالحب .
بلزاك)

كنت راجعا في الحافلة أول الليل . وكان البلل يقطر سائلا فوق زجاج
النافذة . كانت الثلوج رطبة خفيفة . ورأيت فتاة ما راقفة في أول الحافلة .
كانت رانية ناحيتي بلا انقطاع . وكانت تبتسم لي ابتسامة عريضة ، كــانت
تبتسم وتكاد تضحك . في الجانب الاخر من الحافلة ، على مقربة مني ، تجلس
سيدة من ألهات الخــطى المتــثاقلة . كانــت حقيبتها المنفتحــة قليلا مثقلة
بالمشتريات . كنت أنظر الى اكتافها الرحبة معجبا . كانت في معطف أخضــر
فاتح ضائق بامتلائها ، وبقبعة في لون معطفها مائلة قليلا . وبدا لي ، مثلما
كنت أظن اول الامر ، ان الفتاة المتضاحكة الجريئة قــد أثارت انتباهها ..
فرنت الي بجانب من وجهها متفحصة . كان وجهها الجميل مرهقا ، شاحبا .
ورنت ، ثانية ، وفي وجهها اعتداد سيدة الجميلة بعد ارتخاء طويل . كنت

ذاهلا ، مرتجفا بنظرتها الزرقاء الثقيلة •• متذكرا امرأة اخرى • كنت ارى شفتيها الممتلئتين وانفها الاغريقي وتقطيبة حاجبيها فأتـذكر • وكانت الفتاة ماتبرح متضاحكة • ورأيت المرأة تبعد ساقها الممتلئة الرائعة الطويلة جانبا • لااظنها الا حركة متقصدة بعد التفاتها الي • انها تتحدى اذن ! وفي وجههـا يستيقظ اعتدادها بامتلائها الجميل المفترس • لم أعد ناظـرا ناحية الفتاة ، وتركتها متحيرة • كنت انتظر لحظة نزول هذه المرأة لاتبعها • وقبيل ان تتوقف الحافلة عند زليوني دوم رأيتها تنهض ، بقوامها الممتليء ، وتتجه في تثاقـل الى الباب • نحن جاران اذن ! وهبطت بعدها قبالة زليوني دوم • واجتزنـا الشارع • وتبعتها في الزقاق المتفرع حيث تطل غرفتي على فناء في جانب منه • كنت اتطلع ، معجبا ، بظهرها الشهي وخطاها المتثاقلة وقامتها المرتفعة •

لم ادعها تسير طويلا • كنت أخشى أن تسرع مختفية ، فجأة ، في عمارة من هذه العمارات • حييتها سائرا بجانبها • فردت تحيتي في غموض ، رانية الي بجانب من وجهها الشاحب • قلت :

ــ اتسمحين لي بسؤال ؟

كانت تتطلع الي بلا توقف :

ــ كنت اظنك ستتبع الفتاة •

ــ كلا • انني احب ان اتحدث معك انت •• اذا سمحت •

ــ لكنني عجلى •• وينتظرونني في البيت •

ــ لن أخذ من وقتك طويلا •• بضع دقائق ان امكن •

ــ انني مصغيـة •

أنا اعرف هذا الرنين الدافيء •• وأحس في جوابها هذا رقة وارتياحا • كانت خطاها تتباطأ ، وخصل من شعرها الاشقر الذهبي تلتمع بالبلل ، منفلته من تحت القبعة ، في اضواء المصابيح • كان الثلج خنيفا وسريعا مايذوب •

كان اختياري لها ، دون الفتاة ، قد اراحها • فكانت اكثر لينا معي • قلت :

ــ أعرف أن وقتك ضيق •• انما هي صدفة رائعة أن التقي بسيدة مثلك ، صدفة لاتتكرر مرتين في الحياة •

ــ لكنك ترى الكثير منا في طريقك •

ــ مثلك انت ؟

ــ الست شبيهة بالاخريات ؟

ــ كلا • منذ سنين •• منذ سنين وأنا احلم بك •

كانت تتطلع الي وفي عينيها تساؤل •• وكنت اتحدث عن انتظاري الطويل حالما بلقاء معها • وسألتني : من أين انا ؟ وأين ادرس ؟

ــ نحن جاران اذن !

قالت هذا وتوقفت في أخر الزقاق • وابتسمت تقول :

ــ ها أنا قد وصلت •

كانت واقفة أمامي وظهرها الى أخر مبنى في الزقاق • قلت :

ــ ايمكن ان اراك ثانية ؟

ــ اترى هذا مهما ؟

ــ ليس مهما فحسب •• انه اقصى ما اتمنى • اتسمحين لي بدعوتك اليوم ؟ ما زلنا في أول الليل •

ــ والى أين تدعوني ؟

ــ الى المطعم •

ــ لكنني لست متهيئة •

ــ سأنتظر •

ــ ليس اليوم من فضلك •

ــ لكم أود ان اراك اليوم !

ـ أنا الان مرهقة قليلا •• ومحملة بهذه الحوائج • وينبغي أن أمـر على الشقة • فأذا اردت •• انتظرني بعد ساعة •

ـ وأيـن ؟

ـ هناك •• عند المنعطف •

واشارت الى مكان قريب • قلت مؤكدا :

ـ سأنتظـر •

فأبتسمت قائلة ، وكنت اتأمل شفتيها الممتلئتين :

ـ سأجيء •• وتتجول ساعة • لكنك لم تقل لي ما اسمك ؟

فأجبتها • ثم قلت :

ـ واسمك انت •• من فضلك ؟

ـ اسمي لينـا •

كانت الاضواء مبتلة ، والطريق رطبا باردا • وكنت متجها الى المنزل • وكنت اتمثل قسماتها وابتسامتها • كنت اسمع صفير القطار الكهربائي في انطلاقته الى الضاحية ، والحافلات تمر خافقة في الشارع • بعد ساعة اذن • وصعدت الى غرفتي لاقرأ • غير انني لم أقرأ الا صفحات قليلة • كنت قلقا • اني لاود كثيرا أن تجيء • وكنت اتطلع من النافذة الى الطقس الرديء • في مثل هذا الجو الرطب الناضح بللا لن يطيب التجوال طويلا • وكنت اخشى أن يحدث طاريء ما فيحول دون مجيئها • لكنها تستطيع أن تحضر لدقيقة فيما إذا حدث مايمنع • من اليسير أن تسرع الي عند المنعطف ، لنتفق على لقاء أخر •

غير أنها لم تتأخر الا عشر دقائق • كنت واقفا ادخـن • ورأيتها تفتح الباب متجهة ناحيتي عبر الزقاق المبتل تحت اضواء المصابيح • واقتربت مني بخطاها المتثاقلة ووجهها الشاحب ، قائلة بابتسامة عذبة :

ـ هل تأخرت كثيرا عنك ؟

ـ كلا • كنت سأنتظر ايضا •

واخذنا نقطع رصيف دوبرلوبوف باتجاه الشارع العام • ثم انعطفنا عند منزلنا باتجاه السينما • لم يعد الثلج يتساقط • غير ان البلل في كل شيء ، والجو متلبد متجهم وكأننا في اول الربيع • كنت أحس بجمالها الاخاذ ورفقتها الممتعة • كانت أنيسة ، في كلماتها وحركاتها رقة ودفء • لم يكن الفلم شيقا • كان فلما اعتياديا ، تحاول البطلة فيه ان تنتحر تحت القطار ، متشبهة بأنا كارينينا • غير ان قربها مني ابعدني عن اعتيادية الفلم • وكنت أشعر بارتياح : هي ذي امرأة جميلة لم اتعرف بها الا منذ ساعة ، وها هي معي في السينما ، مطمئنة الي ، وقد قدمت من اجلي بلطفها وصداقتها • وتهمس في اذني بكلمة أو تعليق ما •• فأشم عطرها وانفاسها العذبة • وأحس بلدونة ذراعها المتليء أو كتفها المتكور الدافيء •

أوصلتها حتى بيتها ، وتوقفنا نتحدث • في زرقة عينيها الثقيلة كنت أتبين بروقا نائية وابتسامة متسائلة • قلت :

ـ هل استطيع رؤيتك غدا ؟

ـ غدا ؟ ممكن • في السابعة مساءا •

ـ هناك عند المنعطف ؟

ـ الافضل عند البريد •• فقد اتأخر قليلا • فأذا اشتد البرد تستطيع ان تنتظرني في مدخل المبنى • كنت أود ان تتمشى قليلا • غير ان الجو رطب هذه الليلة •• واخشى أن تبرد •

ـ على العكس • أود كثيرا أن اتجول معك • ولن تضر بي رطوبة الهواء • فلقد اعتدت هذا الطقس وأحببته •

ـ طيب •• ولا تلمني ، من فضلك •• فقد اتعبك معي في جولتي •• أنا

اتمشى كل ليلة ساعة أو اقل •• احب أن اخفف من وزني •

ـ لكنك رائعة هكـذا •

ـ اتراني هكذا حقا ؟ إنما لا •• قل لي : فيم اعرضت عن تلك الفتاة •• وكانت تضاحك لك في الحافلة ؟ أم وجدتني أقرب منزلا اليك ؟

ـ بل وجدت صورة رائعة كنت احلم بها منذ صباي •

ـ لاتزدني غرورا فأتدلل عليك •

قالت هذا مازحة • ثم اضافت :

ـ اتدري ؟ لقد سرني انك اخترتني دون الاخرى •

كنا نسير بلا إتجاه •• نقطع هذا المشى لندور حول ساحة صغيـرة ، ونعود في المشى نفسه لنوغل في منعطف ما • وكنا نتحدث طوال الوقت • وما كنت أ.ن ، قبل هذا ، انها بخطاها المتثاقلة جوالة ليلية رائعة •• رياضية الروح والحركة • ورأيت ان اخبـرها أننا سنقضي الامسية غدا في مـركز المدينة • فسألتها أي مطعم تفضل • فأجابت أخذة بذراعي :

ـ انا أحب المسرح اكثر •• وانت ؟

ـ بالطبع • وسأحصل قريبا على تذاكر •

ـ يسرني أن اكون معك في المسرح •

ثم قالت فجـأة :

ـ أتدري أنني متزوجة لكنني منفصلة عنه ؟

وأخذت تقص علي انباء مفصلة عن حياتها وزواجها ، وافتراقها عـن زوجها منذ شهور ، بعد ان توله في حب صبية تعمل مساعدة له في المختبـر •

حين كنت إتطلع اليها في الحافلة ، خيل لي كما يخيل لي مرارا في مثل هذه الحالة ، انها ستظل نائية ، منغلقة •• ولن تنفتح لي عن نفسها الكريمة الا بعد اشواط • وها هي وقد اطمأنت الي ، تزيح عن اغوارها الصافية نقابـا

سميكا • ان هذا لطبع لدى العديد من الروسيات : ينغلقن عن الغريب وراء حاجز وحاجز • فأذا ارتحن اليه ينكشفن عن طيبة عظيمة نادرا ماتتصف بها امرأة • وتراها تتحرك معي ، وتتحدث الي فتحسبنا صديقين متلازمين منذ سنين •

والتفتت مسرعة الي ، وهي تفتح باب المبنى ، وفي عينيها المتسعتين زرقة باسمة وبروق :

ـ لاتنس •• في السابعة عند البريد •

ها أنا اراها ، لاول مرة ، بلا معطف • وكنا في مطعم موسكو • كانت واقفة أمام المرايا تسرح شعرها ، وتبتسم لي في المرآة • كان وجهها شاحبا مرهقا قليلا ، ووجنتاها في مثل حمرة الشفق ، وعيناها تتألقان • كانت تبتسم لي ، وقد رأتني ممتلئا إعجابا بامتلائها الباذخ المتوزع في اتساق عظيم • وارتقينا الدرجات المرمرية ، وهي تقول :

ـ أرأيت نظرات الصبايا الينا ؟

ـ ان لك جمالا معجزا •

ـ انهن يرين انك اصغر عمرا مني بعشر سنين في الاقل •

ـ انهن لايرين إلا جمالك وحده •

كنت أعرف نادلة هنا • فأخذت ابحث عنها بعيني • ورأتني فأومأت أن نقترب • واجلستنا عند مائدة خالية • كانت الثريات تتدلى هائلة مشتعلة في غيرما سطوع • والفرقة الموسيقية أخذة مكانها ، منذ حين ، عند فسحة الرقص •

أحببت أن تختار هي • فناولتها قائمة المطعم • فتأملتها قليلا ، واعادتها لي قائلة ، وهي تتفحصني بابتسام :

ـ من فضلك اختر انت أنا لا أحب المطاعم كثيرا •

مع امرأة مثلها ! كنت ممتلئا رغبة بها • وكنت فخورا بصحبتها • وهي ترى هذا فتحس بارتياح • ورحت ارتشف الخمرة متلذذا بتطلعي اليها •

حين تركنا المائدة لنرقص كانت تتقدمني قليلا • فتذكرت الاستاذة الشابة وامرأة أخرى • كنت ألف ذراعي على ظهرها برفق ، فأشعر بلداتها ودفئها ، وبهذا البذخ الجسدي ، بذخ امرأة رائعة الجمال • وكنت اشم شذاها وشعرها يلامس وجهي • وهي حارة ، ممتلئة بين ذراعي • ورأيت امرأة ورجلا يتأملاننا باسمين ، راضيين • كان وجه لينا منفعلا : كان النغم بطيئا ، وجسدانا متلامسين • وعلت شحوبها حمرة خفيفة •

كانت البهجة عامة • وكنا نشرب خمرتنا الجيورجية الوردية متلذذين • وكانت الموسيقى تصدح عاليا • ورجوتها أن نرقص •

ـ ليس الان من فضلك • هذه الرقصة السريعة لاتناسبني •• فأنا ثقيلة كما ترى • دعنا ننتظر رقصة أبطأ •

كنا متقابلين • وكنت أتأمل وجهها الجميل ، ورحابة صدرها الثلاثيني الشهي واكتافها • قلت هامسا :

ـ لينا •• أنا معجب بك اعجابا رهيبا •

فتقربت بوجهها قائلة :

ـ ماذا قلت ؟

ـ قال أحد كتابنا ، مرة ، في امرأة جميلة : ان لها جمالا مخيفا • تذكرت هذا وأنا اتملى وجهك وقوامك •

ـ ها أنت تزيدني غرورا ثانية • لكن ماذا كنت تهمس ؟

ـ أنا هائم متيم بك !

ـ مع أنني اكبر منك ؟

ـ وأي شأن لجمال مثل جمالك مع الزمن ؟ انك اكثر نضارة من أي

وجه أخر في هذه المدينة •• أو اية مدينة على الارض • ان لك جمالا لن تقع عين عليه الا في لوحات فناني القرن الماضي •

ــ مهما تقل •• فأنا اكبر منك عمرا •

ــ حتى بعد عشرين سنة •• ماكنت سأختار امرأة غيرك من بين نساء العالمين • الا تصدقين ؟

ــ أنا احب ان اعجبك في يومنا هذا • أما غدا أو بعد غد فالنساء كثيرات • وانت في مقتبل عمرك • والان دعنا نشرب نخبا ونرقص •

كان رقصا متباطئا كتماوج البحر الرخي •• أو كانحدار النسم فوق العشب الكثيف • وكانت لينة حارة بين ذراعي • كان خدانا في تلامس ، ووجهها ناعما حارا • ولقد أتاحت الموسيقى المتمهلة ، وامتلاؤها هي ، أن انعم برقتها ولداتها الفائقة • كنت أمسك بذراعها ، شادا ظهرها بيدي الثانية •• أو أخذ على ذراعيها بيدي ، أو احيطها بذراعي الاثنتين • فتتحرك هي بيديها معي مثلما أفعل • وكنت الامس وجهها ، خفيفا ، بشفتي كلما أتاحت الزحمة فرصة • فتقول هامسة ، معاتبة :

ــ انهم يروننا •

وأردت أن اوصي على نبيذ ، وقد فرغت القنينة • وكانت يدي فوق الغطاء الابيض • فوضعت يدها على يدي برقة :

ــ لاضرورة لهذا • ينبغي أن اصحو مبكرا • غدا لدي عمل • واحب أن اتجول معك قليلا • سنسير حتى محطة مايكوفسكي • ونأخذ الحافلة من هناك • سنشم هواء رائقا •

في الحافلة قلت مقترحا :

ــ سننزل عند سينما أريول • فنأخذ نزهة ثانية •

ــ انك لكريم معي • لكنني لا استطيع أن اتأخر • لاحيلة لي في هذا •

غدا لدي عمل • لكننا سنتجول ، كل ليلة ، اذا رغبت • مارأيك ؟ سنتمشى دورة أو دورتين حول دوبرولوبوف • بعد العاشرة بالطبع • ستكون انت قد قرأت كفايتك • وستجد نفسك ، بعد النزهة ، راغبا بالمزيد من القراءة • ماعليك الا ان تنتظرني بالقرب من منزلكم ، وسأمر أنا عليك • وفي الطقس الرديء يمكننا ان نتقابل خلال التلفون •

ــ هذه فكرة رائعة • سأتمتع بصحبتك العذبة كل ليلة • وسأقرأ المزيد بعد هواء النزهة الليلية المنعش •

ــ اترى ؟

قالت هذا مقربة وجهها مني ، مبتسمة لي • أكنت انانيا حين قلت مع نفسي : وداعا للحائط الاصم • هذه امرأة لن ترى في خطيبا أو ماشبه بخطيب • لاشيء يحول بين صحبتنا غير عودة الزوج النادم متضرعا • وعسى الا يعود •• ؟ واية امرأة هي ! أي عطاء باذخ !

بالطبع ماكنت لافكر ، لحظة ، أنذاك بطبعي المتقلب ، وبأنني سأحاول شيئا مع غيرها من ألهات الخطى المتثاقلة • قالت لينا وهي تصافحني ، ضاغطا يدها بلطف ، استجابة لحركة يدي ، وكنا عند بابها :

ــ اذن غدا في العاشرة مساء •• او بعدها بقليل •

ــ لينا •• هل من الممكن دعوتك لزيارتي غدا ؟ وبعد العاشرة نستطيع أن نقوم بجولتنا •

ــ الست حرا ليلة الاحد ؟

قالت هذا ، وقد علت وجهها الشاحب اكتئابة وتكدر • قلت مبتهجا بحرصها على لقائي ليلة الاحد :

ــ لكنني حر ليلة الاحد •• وكل ليلة •

ــ اذن سأزورك ليلة الاحد • هكذا افضل • اتفقنا ؟

ـ يسرني كثيرا أنك قابلة دعوتي . سأنتظرك غدا لنتجول .
ـ اتمنى لك ليلة طيبة . الى اللقاء .

في العاشرة من الليل كنت واقفا انتظرها . كانت الثلوج منقطعة منذ الصباح . وكان الهواء رائقا فأحسست بانتعاش .. بعد قراءة طويلة مرهقة مع سالتيكوف شيدرين واجوائه القاتمة الثقيلة . ومرت خمس دقائق دون أن تلوح . اني لاستطيع أن اتبينها ، عن بعد ، بين غيرها من العابرات . كان الطريق متلامعا بالاضواء ، وانا أترصد ناحية البريد . ستجيء منعطفة من هناك . اتراها تجيء ؟ انني لافكر بساقيها .. بشحوبها ! اية رغبة تشدني اليها ! ومر طالبان ، فهتفا باسمي مازحين قبل ان يدخلا :
ـ عبثا انت تنتظر .

فأبتعدت ساخطا . اتراها تتمنع ، وقد رأتني راغبا مدنفا ؟ أم انني لم أزدها الا غرورا بتغزلي ؟ أم علها تنتظر تلفونا وتوسلا ؟ لكنني لم ألق عندها الا بعض تدلل . وهو طبيعي في امرأة مثلها ، وهي تدرك سطوتها الطاغية على فتى في مثل عمري . أم تراني اظهرت نفسي عاشقا غرا بلا تجربة ؟ ها أنا انتظر منذ عشر دقائق وأعرف انني سأظل انتظر . ورحت أتمشى . ثم توقفت . ينبغي أن انتظر هنا . سأظل واقفا قرب المنزل مثلما اتفقنا . مثل هذا التلهف سيزهدها بي . وكان قلقي يدفع بي لان اتمشى باتجاه البريد . كان الممر مقفرا الا من عابر أو عابرة ، يخفق نعلها عاليا فوق الاسفلت . وجاءت بعد ربع ساعة . أبصرت بها أتية فأتجهت لالاقيها .
ـ ارجو المعذرة .. لقد تأخرت عنك .
ـ يسرني انك جئت .
ـ كان لدي ضيوف . ولم يخرجوا الا توا .
ـ لكنك جئت . وهذا ماكنت اتمنى .

اجتزنا المشى الضيق الى الممر العريض بين المصاطب والاشجار العارية . كانت في حديثها معي كثيرا ماتنطق باسمي على عادة الروس فيما بينهم . أحيانا تبدأ سؤالها أو ردها باسمي .. فأحس برقتها وألفتها معي . كنا نقطع الممر حتى أخره ونستدير عائدين .. أو ندور حول الساحة الصغيرة . وسألتها أن نجلس فوق المصطبة قليلا . كان الممر خاليا والسماء قاتمة . ولم يكن البرد لاذعا . لم تقل لينا شيئا . انما جلست متفكرة . وكنت أمر بيدي على كتفيها وظهرها ، واشدها بذراعي .. وهي تبتسم . قلت :

ــ لينا .. أحب ان اشم شعرك .

ــ لكنني سأصاب بزكام حين انزع قبعتي .

قالت هذا ضاحكة .

ــ وكيف أرضى بنزعها . سأشم هذه الخصل المنفلته .

كنت اشم شعرها العبق ، واقبل وجهها . وانزلقت بشفتي لاقبل فمها .. فأخذت تنأى بفمها قليلا ، وتقول هامسة :

ــ فيما بعد .

لكنني كنت أصر . وأخذت شفتها السفلى بين شفتي . بعدئذ [illegible] أقبلها كما أود واشدها الي . وكانت تقبلني برقة . انما هي قبلات [illegible] الروح في الجسد ، فتزيدنا انفعالا . فنهضنا معا عن المصطبة . وكنت [illegible] ذراعي على ظهرها . وكنت بين حين وأخر اقبل خدها برفق فيما نحن نتجول في الممر المقفر . بعد تقبيلة الفم كنا نتخاطب بصيغة المفرد .. لا بأنتم مثلما كنا نتخاطب طيلة الوقت من قبل . كنت احس معها احاسيس أخرى . ماهي بالفتاة ، انما هي امرأة . واية امرأة ! ان لوجهها شحوبا غريبا ، ولكتفيها الرحبتين اختلاجة باهرة . واية ساقين ! كنت اشعر بالزهو قرب امتلائها الباذخ . أي نعيم مع امرأة مثلها ! لاشيء يعدله فوق البسيطة كلها ! كانت

تدرك افكاري هذه خير ادراك • فهي تبتسم مرة واخرى ابتسامة ملكية متفكرة •• ربما بما تمتلك من كنز وعطاء عظيمين •

كنا نقترب من بيتها • والطرق ساكنة الا خفقا عاليا لخطى امرأة متأخرة قادمة عن بعد • ووقفنا في المدخل الدافيء • فأخذتها بين يدي • كنت اقبل فمها قبلة اخيرة ، هاتنا بشفتيها الممتلئتين •

صباحا فتحت الكوة لاجدد الهواء •• كان باردا لاذعا • فأرتديت معطفي الثقيل والشابكا • ستكون نزهة الليل رائعة بعد تساقط الثلوج • وتذكرت فالا وجولاتنا في حدائق الجامعة ، والثلوج تتكوم تلالا هشة ، وتهبط في تسارع • ورأتني المناوبة في معطفي الثقيل • قالت :

ـ حسنا فعلت • انه لصباح بارد •

وتساقطت الثلوج ، غزيرة ، خلال النهار • فأكتست المدينة اردينها الناصعة • ومع المساء المبكر كانت الثلوج متكاثفة • كنت سائرا تحتها لآكل عشاء خفيفا في المطعم • والصبايا فرحات بتكوم الثلوج ، يتصايحن لاهيات ، ويتقاذفن بالحفنات منها • وقد خفت البرودة ، وطاب التنزه •

جاءت لينا في العاشرة • جاءت في فرائها الضافي • ووجنتاها في مثل حمرة الغسق • كانت جميلة باهرة ، جميلة جدا • ولم تعد الثلوج تتساقط • كانت متكومة في كل مكان • كان الطقس رائقا ، باردا في اعتدال • ومررنا بالساحة الصغيرة أخر الممر • هنا كانوا يتزلجون منذ قليل • هنا تتزلج الصبايا كلما اثلجت السماء غزيرا • وكنا نرى ، هنا أو هناك ، ازواجا مثلنا يتجولون عائدين من السينما •

ـ ايعجبك شتاؤنا الروسي ؟

ـ خاصة حين تتساقط الثلوج •

ـ هل تجيد التزلج ؟

ــ لم اتعلم منه الا نزرا •

ــ طيب • سأدربك • وتتزلج معا في الضاحية • أنا احب التزلج حبا جما • هناك يتزلج المئات وستبتهج كثيرا •

ــ لكنني سأشعر بالاسف حين اجدني عاجزا تقريبا •

ــ ستتعلم • سيسرك الامر •

ــ وقد تنقطع الثلوج •

ــ كيف ؟ مازلنا في الشتاء •

ــ وانــه لشتاء بديع •

كنا وراء الاشجار المثقلة بالثلوج • فأحطتها بيدي • وقبلت شفتها الممتلئة السفلى • فنأت بفمها عني ، وهي ترمقني بأرتياح :

ــ كلا • ليس على الفــم •

ــ فأين اقبلــك اذن ؟

ــ قبلني هنــا •• وهنا •

واتنقلت بالسبابة من وجنة الى وجنة • فقبلت جنتيها • لم تشأ ان أقبل فمها طويلا • كانت تخشى ان امتص شفتها فتتأثر وتنفعل • كنت ارى في نظراتها الي مايسرني ، فأضمها • فتنفلت مازحة • فأحس بانزلاق يــدي فوق الفراء الناعم • قلت :

ــ متى انتظرك غــدا ؟

ــ في السابعة • أيناسبك هذا ؟

ــ أي وقت تقترحينه هو مناسب لي •

ــ أتودني هكذا حقــا ؟

ــ انظري الى وجهي •• اتشــ ن ؟

ــ من الصعب أن اتكهن • لكنني أثق بك • انت طيب معي •

ـ لاأرى طيبة اعظم من طيبتك •

ـ أنا اخشى أمرا واحدا •

ـ مـــاهو ؟

ـ كنت اتحدث كثيرا عنك هذا اليوم • فقيل لي انك تحبين •

ـ وأي ضير في أن تحبي ؟

ـ أا حب انت ؟ انت اصغر مني بسنين •

ـ لكنني احبك صادقا • وانت اعظم فتنة من اية فتاة •

ـ ستـتغير نظرتك الي بعد حين • أما انا فسأزداد تعلقا بك •

ـ اتحسبينني رديئـــا هكــذا ؟

ـ لن احسبك هكذا يوما ما • انما هو الشباب ، وطبعه ان يتقلـب ويتنقل من زهرة الى زهرة •

ـ لينا •• أنا احبك • ونحن في اول عهدنا • فكيف تحكمين على الامور منذ الان ؟ سنتجول كل ليلة معا • بندخل السينما والمسرح • أي شـيء يمنع ان نظل معـــا ؟

ـ أنا افهم ان يرغب شاب مثلك في امرأة في مثل عمري •• ويتحـول عنها بعد زمن قليل • هذا أمر افهمه جيدا • لكن مالا ارتضيه هو انّ تجـد المرأة نفسها مغرمة بشاب يصغرها عشر سنين في الاقل ، ولا تتأمل الوضـع جيدا • هذا مايحيرني • أترى ؟ أردت ، اليوم ، وأنا عائدة من العمل ، ان اترك لك ورقة اعتذر فيها عن المجيء •• ولم استطع • بالرغم من انني أرى هذا صنيعا لن يسيء لك او يضرك بشيء • فمثلما تعرفت بي •• تستطيـع غدا ان تتعرف بغيري ، وبالسرعة نفسها • غير انني لم استطع اعتذارا لـــك • أتدري مامعنى هـــذا ؟

ـ انك طيبة جــدا •

ـ قلت انك ستعلميني كيف اتزلج •

ـ بالطبع ســأدربك •

وأخذت أقص عليها تدا يني الرياضية الاولى في التزلج في بارك غوركي ، وكيف اجتزت اختبار الرياضة هذا مع استاذنا ، وأنا اكاد اتهــاوى علــى الارض • كانت تضحك ، وأنا اصف اضطرابي وتعلقي بالعارضتين ، وبيدي المرأة المدربة • ووجدتها مبتهجة ، منطلقة في رواية شيقة عن هذه الرياضة الساحرة • وفي المدخل الى بيتها كنت اقبلها مقتربا بفمي من شفتيها • فأبعدت وجهها قائلة :

ـ انسيت ؟ لقد اتفقنا ان نظل بمنأى عن هذه الامور •

ـ الا يقبل الصديق صديقتــه ؟

ـ لاعلى الشفتين • انما هنا وهنا •

ووضعت اصبعها على جانبي وجهها • فأمتثلت لمزاجها ، وقد تقلب ، الليلة ، من حال الى حال • وكنت اتساءل مع نفسي ، عائدا ، أهي جادة ؟ أي شيء دفع بها لان تعترف بحبها لي ؟ اتراها احبتني هكذا سريعا ؟ ليس غريبا على المرأة الروسية أن تحب وتكره خلال دقيقة واحدة ! كنت اراها تتحول بين المرح والجد • وكانت تتحدث جادة وهي تعترف • لتكن مازحة أو جادة • هذا شيء لااحب ان افكر فيه • اني لاتحرق رغبة بها • ثم انها طيبة ، تصفي الصديق ودها بلا تدلل أو تمنع متقصد • ينبغي ، اذن ، ان اكون رفيقا بها ، مجاريا لها ، وان اسلك معها سلوكا لاتهور فيه • لن اسكرها فقد تنقلــب علي • سأقول لها قولا صادقا ، وأريها اية مودة اكن لها •

في السابعة مساء كنت انتظرها • كانت الثلوج متكومة في الاخاديد • وكان الهواء باردا بلا قسوة تجعلك تسرع الخطى • وكنت انتظر • والثلــج يدور متطايرا متلاعبا ، ويحط خفيفا فوق الشابكا والكتفين • ورأيتها آتية

ـ ماكان يوما بيد المرء أن يحب او لايحب •• لكنه قادر على أن ينأى بحبه مرغما ، وبشوقه كله •• يتنحى جانبا ، منكفئا على لوعته وشقائـه ، مؤرقا حزينا • وكفيل بالزمن والابتعاد أن ينسياه •• ويغدو هذا كله ذكرى أو شيئا شبيها بحلم •

ـ أي شيء غيرك هكذا فجأة ؟

كانت تنظر الي ، طويلا ، متسائلة ، وكأنني لم ادرك شيئا من حديثها كله ، وكأنني لا أعي شيئا من هذه الامور كلها • ثم تناءت بعينيها هامسة مع نفسها •• وكأنها تخاطب شخصا أخر :

ـ هو انني •• أحـب •

والتفتت الي ، وفي وجهها تساؤل :

ـ وهذا أمر لا أقره لنفسي •• معك •

وافتر وجهها ، قليلا ، عن اجمل ابتسامة :

ـ مع شاب •• كنت اتصور اننا سنكون صديقين •

ـ لكننا صديقان •• وأنا احب ان اراك كثيرا •

ـ أتعدني بشيء ؟

ـ اعـدك •

ـ لكنك لاتدري ماذا سأطلب منـك •

ـ وهل سأرد لك طلبا ؟

ـ أريد الا تسألني شيئا غير صداقتي • اتعدني بهذا ؟

ـ أنا لا اريد ان احرم من صحبتك •

ـ طيب • سأمر عليك غدا •

ـ سأنتظرك في السابعة كما اتفقنا •

وأردت أن اسوق معها حديثا مغايرا :

ـ أية طيبة هنا ؟ كنت راغبة أن اراك . كنت افكر بك طوال الوقت ، واتحدث مع صاحبتي عنك . اتدري ماذا قالت ؟ قالت : لو انني كنت في مكانك لقضيت وقتا جميلا معه وانسحبت !

ورفعت الي عينيها جادة . أي تتلب طبع هذا ! من المرح الصافي الى محاكمة النفس ! ها أنا أراها امرأة اخرى ، غير امرأة المشى الراغبة ، الحارة بين ذراعي منذ قليل ! وأحببت أن اغير الحوار :

ـ لكنك لم تذكري أي كاتب مسرحي تفضلين ؟

ـ دع عنا هذا . أنا جادة فيما قلت .

ـ في حبك المسرح ؟

نظرت الي مستنكرة ، وفي عينيها بروق :

ـ في ان احب شابا .

ـ أتودين ان تحبي شيخا ؟ أية خسارة ! هذه الفتنة الطاغية كلها ، هذا الجمال الرهيب لشيخ ؟

فجأة انفرج وجهها وضحكت :

ـ لكنهم يعشقون الصغيرات .

ثم عاد وجهها جادا .

ـ اية تعاسة في ان تحب امرأة فتى لايحبها !

ـ لكنك تعلمين انني احبك .

ـ قد ترغب بأمرأة مثلي .. لكنك لن تحبها . وهي رغبة لن تطول على أية حال .. وستنقضي بعد يومين او ثلاثة .

ـ كلا . سترين انني أحبك حقا .

ـ انت تتخيل هذا .

ـ انا أعرف نفسي .

متباطئة الخطى • وحيتني تحيتها القصيرة الملاطفة :

ـ مرحبـا •

كان وجهها مثلما اعتدت رؤيته •• شاحبا ، لا اصباغ عليه • انما هي حمرة خفيفة على الشفتين • وكانت وجنتاها في اشتعالهما البنفسجي • ورأيتها تبطيء الخطى وتتوقف • وكنا قريبين من مدخلنا • وكانت تتأملني باسمة :

ـ اترى هذا ضروريا ؟

ـ أي ضرر في أن نجلس في غرفتي ونشرب قدحا •

ـ كنت أظن أننا سنتجول قليلا ، ونشاهد فلما •

ـ لكننا سنتجول في العاشرة •

ـ مارأيك أن نزور صديقتي • ليس بعيدا • انها في عمارة مجاورة • هي تود ان تراك • سنلعب الورق معها ونتسلى •

ـ أنا لم اتعلم هذه اللعبة •

لم تكن هذه اللعبة من القمار بشيء • فلا رهان فيها • غالبا ماارى المناوبات يتسلين بها في مدخل البيت •

ـ سنعلمـك •

قالت هذا وهي تبتسم لي • قلت باسطا بيدي بيأس :

ـ ماكنت أحسب انك ستكرهين غرفتي •

ـ لاتتحدث هكذا • أنا احب الهواء الطلق •

ـ كما ترين • سنمضي اينما ترغبي •

وخطوت لاريها أنني غير مصر على رأي لاتحبذه • فأمسكت بذراعي ممازحة ، وكانت تتأملني باسمة طيلة الوقت :

ـ لاتغضب • سأصعد معك • انما كما اتفقنا •

ـ اسمعي لينا •• اذا كنت ترينني غير جدير بثقتك •• فلا تجبـري

نفسك على زيارة لاتعجبك • سنقضي الامسية في أي مكان تحبين •

ــ لكنني اثق بك ، سأصعد معك •

كانت ليلة أحد • وكنا متقابلين عبر المائدة • وكنا نرتشف الخمرة متمهلين • كنت أرى في عينيها اغضاء وتفكرا • وطوال ساعة كنا نتحدث من أي شيء غير المرأة والرجل • ولم أشر بكلمة الى جمالها الجسدي الدافق ملء عيني • ولم ألمس منها يدا أو اقم بتقرب ما . كنت اتكلف حركاتي تكلفا • وكانت ترى تكلفي هذا فتكاد تضحك • كانت ممتلئة باتساق فائق • وكانت فاتنة في حنوها علي واصغائها واهتمامها بأمري •

ــ مابك ؟ لم تعد مرحا • الم تسرك زيارتي ؟

ــ بل ابهجتني كثيرا •

ــ لا أرى بهجة في تصرفك • أتدري ؟ حين رأيتك اول مرة في الحافلة • كان وجهك حزينا • بلى لقد رأيتك • رأيتك اولا عبر الزجاج • وكنت واقفا في الصف • وظللت انظر اليك • وحين صعدت لم تكن منتبها الي • كنت تريد ان تجلس • حين رأيتك احسست بشيء كالحنو •• بالرغبة في أن اخفف عنك • أي حزن كان في نظرتك ! فيم هذه الكآبة كلها ؟

ــ ان لك قلبا رحيما • الديك متسع من الوقت غدا صباحا ؟

ــ غدا ؟

ــ اني لاود ان نتجول في المدينة •

ــ لكنني سأكون منشغلة طوال النهار •• بالشقة وتنظيفها • لكننا سنقوم بالجولة مساء •• سأكون حرة •

ــ سأكون ممتنا لك •

ــ الا تكف عن لهجة التكلف هذه ؟ وكأنني غريبة !

واغتم وجهها قليلا :

ــ حتى كأسك تتذوقها تكلفا .

ــ أنا اود ان تروق لك هذه الامسية . ارضاء المرأة شيء عظيم !

ــ أية حكمة ! سأسجلها . تسرني كثيرا لهجة الحكماء هذه ! قل لي من فضلك الا تتحدث معي في الفلسفة ؟ أنا لم اتعلم منها شيئا كثيرا . سأكون مسرورة لو انك تحدثت .. عن شوبنهاور مثلا .

لم اتمالك نفسي اخيرا . فأخذت اضحك عاليا . اما هي فلم تضحك . كانت تطيل النظر الي متشككة .. وعلى ملامحها تبسم خفيف . فنهضت في غير ماعجل ، وأمسكت بكتفيها بلطف . فلم تقل شيئا . وقبلت شعرها اولا . ثم أخذت ألثم وجهها كله لثمات اشبه باللمس الرقيق . وأغرى بي صمتها وسكونها فأقتربت بفمي من فمها لاقبله باشتهاء . فتناءت بوجهها عني :

ــ كفى .. كفى . ليس هكذا . من الجليد الى اللهب في لحظة واحدة . اجلس اجلس . أريد ان اشرب .

كانت مطرقة ببصرها ، وقد علا شحوبها تورد . فرحت اصب النبيذ في قدحها اولا . قالت :

ــ اقترح نخبا .

ــ في ذكرى شوبنهاور .. فقد اعادك الي . اتعلمين ان عدو المرأة المبين هذا .. كان يتحرق توسلا ، في أخر عمره ، عند قدمي ممثلة شابة من أجل ان تقبله بعلا لها ؟

ــ أريد نخبا أخر .

ــ في صحة فتاة الحافلة .. فقد جعلتك تلتفتين .

ــ كنت سألتفت بدونها .

ــ نخب صدفة رائعة جمعتنا معا في الحافلة .

ـ هذا نخب لطيف •

فرفعت كأسي ماسا كأسها برفق • في تحرقي الجسدي اليها كنت اجدها جمة اللطف ، تتكشف ، كل مرة ، عن امتاع ومؤانسة اخرين •

ـ أيروقك ان تكون المرأة اكبر منك ؟

ليس كل امرأة •

ـ هناك عندكم •• اكنت تحب امرأة ؟

ـ أجل •• كنت أحب •

ـ أهي في مثل عمري ؟

ـ تقريبا •

ـ صفها لي أرجوك •• انما بحق •

تلك امرأة تشبهها نحوا ما • انما كانت بشعر احمر داكن وعينين خضراوين • وكنت حذرا في اجابتي ، متوجسا أن تغتم •

ـ اذن مازلت تحبها • ولا ضير في هذا • يعجبني ثباتك في حبك • وانت انما تريدها في أنا • بينما انا فلا احب فيك شخصا اخر • وهذا سبب قوي أخر يزيدني حذرا • لن اكون اكثر من صديقة لك • اترى ايها الشاب ؟

قالت جملتها الاخيرة باسمة ، ملاطفة •• لا كما يقال عندهم لامري شاب عابر أو غريب •

ـ قبل لحظات كنت تتهمينني بالحكمة •• وها انت تحكمين على الاحاسيس القلبية عبر منظار الحكماء الصارم •

ـ ينبغي ان اكون حكيمة في عمري هذا • لكنك كنت تتكلف الحكمة والحذر تكلفا • وكأنما الامر سينطلي علي •

ـ اسمعي لينا • الانتهي من فارق العمر اخيرا ؟ ما الفرق في ان نحب امرأ اكبر أو اصغر منا ؟ مع انك في الثلاثين •

ـ اتظن اننا نحب ، عندما نحب ، بارادة منا ؟ انا اوافق الا اهمية هنا لفارق العمر .. انما حين نحب حقا .

ـ لكنني احبك . وانت تعلمين هذا جيدا .

ـ انت تريد امرأة اخرى في .

ـ ها انت تبتكرين حاجزا اخر متوهدا بيننا .

ـ انا لاابتكر .. أي شر في انك احببت قبل سنة او قبل سنين ؟ كنت أحب زوجي . ولقد احببت غيره في صباي . لكنني حين التقيتك أحببتك وكأنني أحب لاول مرة . اتدري أي شيء يجعلني حريصة على صداقتك ؟ انني لاحس معك انت أحاسيس شيقة لم اعرفها من قبل .. لم اعشها . ربما كنت ، في غيرما وضوح ، اتمنى ان اعيشها . انني لاحس بقربى عجيبة تشدني اليك . وهذا السرور الغريب في أنني معك ! انا لااستطيع أن اتحدث عن هذا كما ينبغي . انك تنظر الي أو تلمسني فتتملكني رقة عظيمة نحوك .

ـ سأقول لك قولا جادا صادقا .. فلا تنظري الي الا جادة ايضا .. أقسم انني سأقترن بك صباح الاثنين .. لو انك ستقبلين .

ـ ارى انك قد ابتعدت كثيرا . هذا أمر لم يخطر في ذهني لحظة واحدة . ماذا دهاك ؟ لاتعكر علي هناءتي معك .

ـ اتسمحين لي بمراقصتك ؟

ـ ها انت تتحول من الحكمة الى المكر !

ـ أي مكر في ان نرقص ؟

ـ لامكر في الرقص نفسه . انت تعلم ماذا اريد ان اقول .

ـ ما الشر في أن احتضنك في الرقص واقبلك ؟

ـ الشر في أنني سأنفعل وأضعف . قلت لك انني احبك . انت ترى انني صريحة معك . وأنا اعرف انك راغب بي .

ـ أهي رغبة وتنقضي ؟ انا احبك ، وأود كثيرا ان تتأثري فتضعفي •
انما لا أريد ان امكر بك فتندمي على ثقتك بي •

ـ انك لماكر كبير حقا •• وذو حيلة • فيم هذا التحايل الناعم مـع
امرأة تحبك ؟ أتريد ان تؤثر في بكلمات ؟ انا لا انكر عليك رغبتك هذه • بل
اجدها امرا طبيعيا • أنا امرأة • ويسرني ان ترغب بي • انما لاأريد أن اكون
لك مع هذه الرغبة وحدها • اتظن انني سأحتمل نظرتك الي ، بعدها بأيام ،
وقد مللتني ؟ سأشقى بالطبع واكتب لك واتلفن • فيم هذا كله ؟ لاشيء في
الحياة يستحق هذه التعاسة الرهيبة غير حب الرجل لامرأة أحبته •• فكانت
له • لكنك تستطيع ان تنتظر •• سنلتقي كل يوم • وسأزورك ، وسأضعف ،
مرة ، بين يديك • وهذه ، بالطبع ، قضية اخرى • ولعلك لم تفطن لها ••
بالرغم من انك ذو حيلة بديعة • وبعد ؟ لا اظن انك ستفكـر أنني كنت
اتصنع معك لتتحرق رغبة بي •• مع انني اود ان اعجبك كثيرا • اترى ؟ ها
انت تعرف كل شيء عني أخر الامر !

لم اقل شيئا • كنت اود ان اتزوجها حقا • لا ادري ماذا جرى لي ؟
كانت في قولها ونظرتها صادقة صدقا أقعدني عن اي تفكير ا٠ر •

ـ اسمعي لينا •• أقسم لك انني اود ان اتزوجك •

ـ الم تفكر بشيء اكثر تسلية ؟

ـ لكنني جـاد •

ـ لا أحب جديتك الثقيلة هذه • الا تريد ان تبهجني بقول اخر ؟ انت
تريد أن تتزوج في امرأة اخرى • أتفهم ؟

ـ تلك قصة قديمة نسيتها منذ زمن بعيد •

فردت غير مصدقة :

ـ حسنا فعلت • اريد ، هذه المرة ، أن امسي مرحة تماما • دعنـا

نشرب قدحا اخر • أنا احب هذه الخمرة المولدافية • أتدري ان تشرشل من اكثر الناس اعجابا بالكونياك المولدافي ؟ ارجو ان تتاح لك فرصة ما لزيارة مولدافيا في أخر العام • حيث السماء الزرقاء الصافية والشمس المتوهجة المتقدة حرارة ، والارض لما تزل متشحة بثلوج البارحة • شمس وصقيع كما قال بوشكين • اليس بديعا ؟

ـ سأجلس قريبا منك • اتسمحين ؟

ـ فيما بعد •• دعنا نشرب متقابلين هكذا • أحب ان انظر اليك •

ـ يلذ لي ان اقبلك

ـ افهم هذا • لكنني لا اريد ان انفعل •

ـ سأقبل وجهك •

ـ طيب • انما قليلا •• وليس على الشفتين •

انحنيت ألثم وجهها وعدت لاجلس • ورأيت وجهها يتلون ثانية بالحمرة الغسقية • كانت تتأمل قدحها في شرود • فدعوتها لان تشرب • كنت حريصا على امتاعها وتسليتها • فكنت اصب الخمرة مقترحا نخبا أخر كل حين • وكانت ترتشف خمرتها مستمتعة •

ـ لكنك لم تأكل شيئا •• كل •

ـ سأكل حين تأكلين •

ـ انا احرص ان يكون عشائي خفيفا • ماكنت اعلم انني سأرضخ لرجائك فأزورك •• لكنت جئت بشيء من البيت •• بخيار مملح • ايعجبك •

ـ كثيرا •

ـ سأتي به في المرة القادمة •• حتما •

ـ نخب صديقتك الناصحة •

فتذكرت وضحكت ضحكة ناعمة :

ــ لااظن انك تريد أن اخذ بنصيحتها .

ــ بالطبع لا . أنا امزح .

ــ انت اكثر تقديرا لي من أن تفكر هذا .

أوشكت القنينة ان تفرغ . فجئت بالثانية . كانت خمرة جيدة . وكنت احب ان اشرب معها ، وأزيد لقاءنا مرحا . كانت تنظر الي وأنا اصب النبيذ متأملة . قالت بلطف :

ــ هذا كثير .

ــ اتخشين أن اسكر .

ــ كلا . لكنني لااريد اكثر مما شربت .

ــ لن أحثك على شيء منه . وارجو سماحك بأن اشرب قليلا .

ــ بالطبع . يمكنك ان تشرب . انما باعتدال . لن ادعك تشرب الكمية كلها . هذا كثير . يكفيك قدح أخر أو قدحان . وسأشرب انا قدحا اخر لاجلك . ولا أظن انني سأسكر .

ــ اتعرفين ماذا سأفعل لو انك سكرت تماما ؟

ــ ستتركني انام في هدوء وارتياح . انت اكثر طيبة من ان تزعجني بشيء . والان دعنا نشرب نخب نجاحك شاعرا .

ــ شكـرا .

ومست كأسها بكأسي ، ناظرة الي بابتسامة ملء وجهها كله ، وبحركة رشيقة لاأرق منها . وكانت عيناها تتسعان في ارناءة طويلة . أي حنو ! اي توق في هاتين العينين الرانيتين !

ــ لينا .. لكم اود ان المس اكتافك .. أن ألمس شعرك ، أن المسك انت واقبل هذا الجمال كله !

ــ أتريدني كثيرا هكذا ؟

ـ بلى .. أحبك وأريدك .

ـ لاتقل أحبك . انت تريدني ، واعرف هذا .

ومرت فوق وجهها حيرة ما . ثم رأيتها تغض طرفها ، متأملة ، وفي عينيها طيف غيمة ، ندى دمعة ستعلق بأهدابها بعد قليل .

ـ لاتحزني . لـن اطالبك بشيء .

ـ أي نفع في ان تهنأ بي ليلة .. وتلفظني كالنواة ؟ أيهمك جسـدي هذا اكثر من أي شيء اخر في ؟ الا تفكر بي الا جسدا ؟

ـ لكنه جسدك انت .. لا أي جسد اخر .

ـ الا تفكر بي ؟ بحبي لك ؟ وبأنني سأخرج من هنا ، وربما غدا ، مهزومة يائسة ، خاسرة كل شيء ، وقد ابصرت بالملل والسأمة في عينيك ؟ أتريد هذا ؟ اتريدني ان اتعذب طويلا ، واتوسل وأذل .. أتريد هذا مـن اجل ليلة معي ؟ من اجل أن تطفيء رغبة فتكتفي وترتاح ؟ الاترى انني احبك ، ولا اريد ان افقدك ؟ دعني أر يوما انك تحبني ، دعني أر هذا ، مرة ، في عينيك .. في نظرتك الي انا .. لا الى جسدي وحده أو امتـلاء ساقي . اتظن انني لا اعرف ؟ ان ماجتذبك الى هو هذا .. هو هاتان الساقان . اتدري ؟ كنت متعمدة حين اظهرت لك ساقي في الحافلة . أجل . كنـت متعمدة . ولربما كنت أنانية . كنت اريدك لي . كنت اريد ان الفت عينيك الي فتهتم بي . أي شيء كان يمكن ان أريك مني غير هذه الساق ؟ أي شيء كان ظاهرا غيرها ؟ لو أنـك كنت قبالتي ، تتأمل وجهـي معجبا ، راغبـا بصداقتي ، وهذا ما نعرفه جيدا نحن النسـاء ، ومن نظرة واحدة ، لو انك لم تكن ورائي قليلا .. الى الجانب الاخر وكنت تستطيع رؤية وجهي .. لمـا تعمدت معك تلك الحركة . وهي .. تقريبا غريزية فينا . اتفهمني ؟ كنـت حزينا جدا ، وبنظرة لا اشد اكتئابا وتوحدا منها . ورأيتك مختلفا عـن

الاخرين ، مختلفا تماما ، فأحببتك . وجدتني منجذبة اليك فجأة ، وخلال برهة واحدة . لقد رأيت روحك المتوحدة في نظرتك الحزينة تلك . لاتنظر الي متسائلا هكذا . هذا يحدث . رأيت نظرتك عبر زجاج الحافلة . وكنت واقفا غير منتبه لي . من يدري ؟ ربما ادركت انني احبك حين كنت اتحدث مع صاحبتي عنك لكنني أحببتك في الحافلة نفسها . هذا شيء لاينسى . وكيف انسى انني رأيت روحك وحيدة ، محزونة حزنا رهيبا في نظرتك ؟ أية نظرة حزينة كانت ! كنت اريد صداقتك . وسأبقى اريدها . فبها وحدها سأحتفظ بك لي . ماالذي جعلني متأكدة تقريبا من انك ستريدني ، وتتبعني دون تلك الفتاة المتضاحكة ؟ ربما لانني أعرف سطوتي الجسدية ، سطوة امرأة في مثل عمري عليك . قلت : لاظهرن مني مايجتذبه الي . وسيفهمني بعد حين . سيفهم أنني أحبه .. وسأعلو في نظره . فيودني ويحرص على مودتي له . قلت : ربما سيحبني يوما ما . لابأس ، بعدها ، من ان أتألم . يكفي ان يحبني مرة ! اتفهمني ؟ لكم كنت راغبة أن اخفف عنك .. ان اقترب من روحك المتوحدة .. فأخفف عنها !

واخذنا نشرب صامتين فترة .

ـ الا ترين انني احبك .

ـ ارى رغبتك وحدها .

ـ اسمحي ان اقول انك مخطئة .

ـ وهذه النظرة الراغبة .. مافتئت تلقيها على جسدي مني وحده ؟

ـ لانني احبك .

ـ اتظن ؟

ـ اي شيء استطيع عمله فتعرفي انني أحبك ؟

ـ لاشيء .

ـ فكيف ، اذن ، ستعرفين ؟
ـ حين أرى انك تحبني •
ـ لكنك تفكرين بحب لارغبة فيه •
ـ متى قلت هذا ؟ ألم اقل لـك انني سأضعف ، مرة ، وأكون لك ؟ انك تقبلني وتلمسني •• أما تحس بي كيف اتوق اليك ؟ انت ترى هـذا جيدا • بل انك رأيته حين ضممتني اليك لاول مرة • أي حـب لاجسدية فيه ؟ ام انك تحسبني ملائكية ، هابطة من عالم أخر ؟ انا امرأة • واحب كما تحب الاخريات • غير أنني احس معك بشيء أخر •• لقد قلت لك • شيء فوق كل رغبة • مع انني اريدك • لم ارد أحدا ، في حياتي ، مثلما اريـدك انت • اترى ؟ الم تفهمني اخيرا ؟
ـ مع هذا •• لاافهم •• لااحتمل أن يبيت احدنا بعيدا عن الاخر •• هذا أمر في منتهى القسوة • رغم انني أقدر رأيك تماما •
ـ اتراني قاسية معك ؟ أنا ؟

كانت تبتسم لي في رقة عظيمة •• رقة لاتمتلكهـا الا امرأة تحبك ، وتدري انها ستمنحك عطاءها كله يوما ما •
ـ مادام هذا قاسيا كما قلت •• الا تجد أنني قاسية مع نفسي اكثـر من قسوتي معك ؟ لكنني سأبيت عندك مرة • اجل ! سأبيت •
ـ وتتركينني وحيدا هذه الليلة ؟
ـ سنتجول بعد العاشرة •
ـ وبعد الجولة ؟ وحيدا أعود ؟ اية وحشة !
ـ الست سعيدا بجلوسي معك ؟
ـ لن اكون معك غير سعيد •
ـ حقـا ؟

ـ اجل ! لن اكون معك الا سعيدا .

ـ لكنك لن تكرهني حين اذه ؟

ـ اكرهك انت ؟

ـ اترى كيف تلفظها ؟ وكيف تنظر الي ؟ انك لتودني كثيرا .. هذا واضح . اتدري ؟ حين ترنو الي أجدني جميلة . اية نظرة حزينة هذه ! ستحبني ذات يوم . اجل ! من يدري ! ربما ستحبني . ليس طويلا .. انما لايام . كلا .. كلا . أنا احلم . ربما لانني شربت . لكنك حزين جدا ! أمن أجلي أنا هذه الكآبة كلها ؟ الانني سأتركك ؟ لكننا سنفترق يوما ما . سنفترق بلا موعد ، بلا لقاء . سيكون الامر مختلفا عند ذاك . ستكون قد سئمتني ، ورغبت بغيري . كلا . لاتشرب بعد . هكذا يكفي . لاتنظر هكذا الي ، وكأنني سأضيع منك . وكأنك ستفقدني ، بعد ساعة ، الى أبد الابدين . قلت لاتشرب . لااريد ان تكون الخمرة سببا في اشتهائك لي . اتراني سكرت ؟ كلا . لست سكرى . أنا مرهقة قليلا . اتدري ؟ أنك تستطيع ان ترغمني على البقاء معك . لاأقول انك سترغمني بألحاح أو توسل منك . بل بهذه النظرة الحزينة وحدها . بنظرة منك لاغير . كن مرحا معي ارجوك . اترى ؟ ها انت تبتسم لي . انك لاتريد ان ترغمني على شيء . انك لتقدرني كثيرا . اتدري ؟ بدأت أشعر انك .. كلا .. كلا . انني اتخيل . هذا لانني شربت .

ـ كلا . انت ترين انني احبك .

ـ كلا . هذه هي الخمرة .

كنت أود ان اتجرع مزيدا ، وباعتدال . وماكنت لاريد لها أن تشرب . انها مرهقة . وكنت مترددا . ربما ستفهمني خطأ .

ـ لينا . هذا النبيذ لايؤثر بي كثيرا . انت ترين انني غير ثمل .

ـ كلا . لست ثملا . انما انت حزين بسببي .

ـ اجل . أنا حزين بسببك . لكن ليس كما تظنين . ارأيت أنني لم أصب لك ، ولن ادعك لتتعبي نفسك بمزيد من الخمر ؟

ـ اعرف هذا . تقول انك حزين بسببي . وليس كما أظن ؟

ـ أجل . اتسمحين لي بكأس ؟

ـ أشرب مادمت راغبا .

كنت ارتشف ببطء .. وأنا ادري اية وحشة ستحل في غرفتي بعد انصرافها . وكنت احاول المرح عبثا . اني لاود ان تبقى .. أن تظل معي حتى الفجر . اجل ! كنت سألثمها قليلا . ولن احاول معها شيئا لاترتضيه . هاهي قريبة مني تتطلع الي . وتقترح علي رحلة الى الضاحية لتعلمني التزلج . وتحدثني عن بيتها الخشبي الصيفي في الضاحية ، وحديقته . سنقضي صيفا ممتعا هناك . سنقطف المالينا ، ونجمع الكماة في الغابة ألمجاورة . سيكون صيفا رائعا جوار البحيرة والغابة . وسألتني أن أصب لها فاعتذرت .

ـ طيب . سأخذ كأسك . لن تصدني عن هذا .

وصببت لي في كأسها . وكنت اصغي اليها بانتباه :

ـ سنقضي الصيف معا في الضاحية . لن ارتحل جنوبا هذه المرة . ستعيش معي صيفا روسيا بديعا . سنقضي اوقاتا لاتنسى . وستكتشف الغابات الروسية جيدا . ستحبها كثيرا . وسنسبح في البحيرة كل صباح . سنقوم بجولات طويلة . وتتغدى هناك في الغابة نفسها . سنكون حرين . وسنلتقي بالمئات من المتنزهين . وتتعرف ببعضهم ، ونقوم معهم بنزهة طوال النهار . اسكب لي ايضا . هذه اخر كأس . اسكب ارجوك . اتظنني سكرت ؟ كلا . انا اريد ان اشرب معك . ماذا دهاك ؟ اسكب لي . لن اسكر . لاتخف علي . شكرا . انت لطيف . انت طيب جدا . جميل انك

لم ترد طلبي • انت لن ترد لي طلبا • اعرف هذا • لن ترد لي رجاء في ايما يوم • هاهي نظرتك الحزينة ثانية ! وكنت اقول لنفسي : انني سأسعده بصحبتي • لكن حقا انك لحزين ! ألم يسرك حديثي ؟ بالطبع انت مكتئب بسببي • الافضل لو أنني لم أزرك • لكنك لم تعد تتعذب برغبتك في • أنا أرى هذا • بلى •• أنا ارى هذا • قلت لي أن هناك سببا أخر • ترى ماهو ؟

ـ لااريد ان تذهبي • سأحس بوحشة رهيبة •

ـ حقا ؟ اذن سأبقى • سأمكث معك •

وتطلعت الي بعينين متسعتين :

ـ بالطبع انت لاتفكر بأي شيء أخر • سأبيت الليلة هنا • اتظن أنني سأمضي واتركك وحيدا ؟ لن اغمض لي جفنا حتى اراك نائما ، هادئا • وسأبقى على كرسيي هذا • بالطبع استطيع • سأظل ساهرة حتى تصحو • ستحبني يوما ما • الطبع • وسنهنأ كثيرا • أي فأل طيب ! كل منا يشرب من كأس صاحبه • هذا فأل ممتاز ! يعني اننا سنبتهج كثيرا معا • سنقضي صيفا جميلا •• صيفا بديعا • لكن لماذا لاتشرب ؟ اشرب واسكب لي ايضا • أنا لااسكر • لاتخش علي شيئا • انني أحس بالنشوة لاغير • اسكب • شكرا • انت طيب • اترى ؟ أنا باقية معك • تعال •• تعال اقبلك • لم انت واقف •• كالمتحير • اجلس • اجلس قبالتي وانظر ناحيتي • اجل هكذا • اتراني اعجبك حقا ؟ أأنت حريص على ان اكون لك ؟ لاتنظر هكذا الي • فيم هذه الكآبة • يظن أنني ثملة ! لاشيء من هذا سوى أنني متعبة قليلا • ونعسى • لكنني سأسهر • بالطبع سأسهر •

ـ لينا •• انت مرهقة • ولن تسهري اكثر ••

ـ سأسهر •

ـ طيب • أنا لاأحس بأي نعاس • سأخرج قليلا • وتستطيعين أن تتمددي وترتاحي • وسنكمل السهرة فيما بعد • من الافضل أن تستريحي

قليلا .. انت نعسى ومرهقة . لابأس من أن تتمددي ساعة .
ــ طيب . سأغفو هنا على مقعدي .
ــ خير لك أن تتمددي فوق السرير . سأخرج وأعود بعد دقائق .
كانت تبتسم . وكانت في شبه حيرة . قلت :
ــ انا عائد بعد دقائق . سأقفل الباب .

وعدت بعد دقائق . كانت مستغرقة في نومها .. في فراشي . لم يستعد وجهها شحوبه بعد . كان متوردا ، مشتعــل الوجنتين . وكانــت في قميصها وحده .. فدثرتها بالاغطية جيدا . وانحنيت لاقبل وجهها . كانت نائمة لاتحس بشيء . وكأنني اقبل امرأة مخدرة . فأبتعدت عنها . وجلست الى المائدة . ورأيت ضوء السقف باهرا فوق وجهها المرهق الغارق في النوم .. فأطفأته . واشعلت مصباح الطاولة عند السرير . كانت الزجاجة فارغة .فغادرت الغرفــة مقفلا بابها . وقلت سأمر على جيلي . كان بابه موصدا . لم يعد بعد .

ولم ادق على جون . أي شيء غير الشاي في غرفته ؟ كنــت اريد كأسا اخرى . فأتجهت نحو غرفة ايفاس . كنت اسمع لغطا لديه . كانوا يشربون . فأبتهجوا بي صائحين ، متهللين .

قلت هذا أفضل من أن أجلس في غرفتي متحسرا . أي جمال نائم هناك ! وكانوا يشربون الفودكا .. في جدل متعاظم . وكان فكرت في ازهى تجلياته . كان ممسكا بكأسه لايضعها الا فارغة لتملاء . ورحت أشرب . كنت فــرحا ، مترع النفس بالامنيات الرائعة : انها هناك ، في فراشي نفسه . لكنها نائمــة . من يدري متى ستصحو ؟ فأذا صحت ؟ سأضمها واقبلها طويلا فلن تبخل . أهي الفودكا ؟ انني لاشعر بدوار . هاهو ايفاس يملا قدحي . وهذا أزر يعالج سنه المؤلم بالفودكا ودخان التبغ . وانبرى فكرت يقرأ لي اخر قصائده : ان نهرا كالضفيرة الذهبية يفصل بينَ جانبي وطنه . لااذكر كيف انفض سامرنا . لكنني اعرف انها في غرفتي .

ووجدتها ، مثلما تـركتها ، مستغرقة في نوم عميـق • ارتديت بيجامتي وانطرحت جنبها • وكانت نائمة كالمخدرة • كنت أحس بدفئها ، واسمع تنفسها الخفيف • وكان شعرها الاشقر متموجا ، غزيرا فوق وسادتي • كنت أود أن أضمها • لكنها نائمة • وكنت أحس نحوها باشفاق فالتزمت الهدوء • ستصحو بعد حين ! لو اكتفيت بالنبيذ وحده لظللت ساهرا • لكنها الفودكا • ولا اتذكر متى غلبني النوم •

كانت الساعة الثامنة حين صحوت • كان الفراش خاليا منها • وسمعتهـا تقول ، وكانت واقفة عند خزانة الانية :

ــ صباح الخير •• كيف نمت ؟

ــ جيدا •• وانت ؟

ــ ربما لم أنم في حياتي ، مرة ، مثل هذا النوم العميق •

ونهضت لاقبلها •

ــ كنت اقبلك وانت نائم •

ــ لم لم توقظيني ؟

ــ ولماذا ؟ سأعد لنا افطارا طيبا •

ــ سأساعدك •

ــ دع عنك هذا • لكنك لاتخزن شيئا لافطارك تقريبا •

ــ هاهي ثلاث بيضات •

ــ لابأس • سأجعل منها مع بقايا السجق وجبة عظيمة •

ــ أنا افطر ، عادة ، في بوفيت المعهد • كنت أحسب اننا سنأكل في مطعم الحي ، فلم اتسوق شيئا •

وارتديت ثيابي • وتبعتها الى المطبخ • رأيتها تسرع في حركاتها • وكانت جبيلة في اسراعها هذا وثقلها • قلت :

ـ أرى لـك همة .

ـ أنا هكذا في عملي .

كان افطارا شهيا مع الشاي . وأردت أن ابقيها .

ـ كلا . ينبغي ان اذهب . ستراني كثيـرا . سأراكِ في السابعة مساء اليوم . اجل . وسنقوم بجولة في المدينة .. كما اتفقنا .

ـ ليتنا نقضي الامسية هنا .

ـ كلا . سأزورك ليلة الاحد .

ـ هذا بعيد جدا .

ـ ماالعمل ؟ علي أن انهض مبكرة كل يوم . لكنك ستراني في العاشرة كل مساء . أم ان لك رأيا اخر ؟

ـ وأي رأي لي غير أن أراك !

ـ أحقا ؟ والان ينبغي أن اذهب .

ـ كم اود لو تبقين .

ـ شكرا . لااستطيع . انت تعلم .. البيت ومشاغله . ماكان عليك ان تفتح تلك القنينة الثانية . أحببت ان اكون اكثر مرحا فتعبت .

واعنتها في ارتداء معطفها . وأردت ان اوصلها حتى بيتها . قالت :

ـ ستوصلني حتى الشارع . شكرا على دعوتك لي .

كان يوما عاصفا . وكانت الثلوج تتهاوى طوال النهار . والتقينا فـي السابعة عند المنزل . فقصدنا الحافلة . وأمضينا ساعة تتجول في الازقـة القديمة . ودخلنا مقهى لاح لنا ، فجأة ، بلافتته المتوهجة . فأوصيت على قهوة وكونياك . وحطت على مائدتنا شابة جميلة متبرجة . فكان لها مع لينا حـوار شائق لم أشأ مشاركة فيه .. كانتا تتحدثان عن السينما .. عن الفلم الايطالي « روكو وأخوته » وعن فلم سوفيتي جديد لم اشاهده . كانت الفتاة طالبة في

المعهد السينمي ، وكان لها دور في الفلم • وخرجنا معا تتمشى • واتفقنا على رحلــة للتزلج •

لم اجد متعة كبيرة في رحلة الضاحية • ماكنت اعرف من التزلج الا نزرا • كنت أراوح في مكاني • ولقد بذلتا جهودا في تدريبي • كان يحزنني قعـــودي وأنا اراهم منطلقين فوق المنحدر الثلجي المترامي جوار الغابة • ثم اختفتا طويلا بين المئات من المتزلجين • وعادتا الي ضاحكتين متوردتين • وغاظني من لينــا ابتعادها عني مرة ثانية •• عاهدة بي لصاحبتها الممثلة • أهي تتعمد هذا تعمدا ؟ أتريد ان تجربني ؟ أهي فرصة لان تعرف حقيقة ماأكن لها من وداد ؟ أهي حيلة منها ؟ تتركني مع فتاة في مثل عمري •• لتعرف اي صديق أنا ؟ ام انني اتصور هذا تصورا ؟

طوال ساعة كنت مع الممثلة • ولقد سرها كثيرا اكتشافها في تلميذا طيعا لا يتقدم الا ببطء • وكانت على العكس مني في مرحها وانطلاقها • كنت أثـــار بملامستها لي ، وارتجاجها غير المتقصد بي •• وشعرها المتطاير على وجهي • أما هي فكانت في حركاتها كلها غير منتبهــة الا لشيء واحــد : هو تدريبي • وعادت لينا سعيدة متوردة • عبثا كنت أبحث في عينيها عن أية لمحة مــن مكر أو شك أو تساؤل • كانت مبتهجة بصديقتها الجديدة •• لا لانها ممثلة • فما من عادتهم ، هنا ، أن يكترثوا كثيرا بالشخصية الشهيرة • رأيت ، مرة ، ككارين وتيتوف ورائد فضاء أخر واقفين منتظرين دورهم في مطعم باكو • فما أثار هذا فضول أحد • ورأيت سابينا مغنية الاوبرا الاولى في عربة المترو •• وكــــان شأنها شأن اية امرأة اخرى • لااحد يتقرب أو يسأل • انما هي نظرة عابرة تلقى عليها وتنصرف عنها • غير انهم يتزاحمون على توقيعها هي أو غيرها من الشهيرين بعد الحفل ، بعد مشاركتها في أمسية اجتماعية أو فنية ما •

كانت لينا مسرورة بصديقتها •• لالشيء الا لانها لطيفة ، بارعة مثلها في

الرياضة • وكان ينبغي ان نشاهد فلمها • وكانت تمثل دور ممرضة فيه • وكانت لينا تقـول مصرة :

ـ لابد من أن نشاهد كاتيا في فلمها •

وفي عربة القطار ، قطار الضاحية ، كنا تتحدث عن جولتنا الليلية المتأخرة : قالـت كاتيـا :

ـ أية نزهة بديعة ! لو انني جارة لكما لشاركت يوميا •

واتفقنا أن نشاهد الفلم معا مساء الثلاثاء • كان علينا ان نهبط قبلها • فكانت تهتف بنا ونحن نغادر :

ـ لاتنسيا • في الثامنة الا ربعا عند مترو الجامعة •

كان الفلم في سينما بروكريس • كان وضعنا هذا اعتياديا بالنسبة لهما • أما انا فقد وجدتني في تجربة غريبة • ليست هي المرة الاولـى أن اجدني بين امرأتين في مقهى أو سينما • فمن السهل أن اختار بينهما • لكنني الان متحرج متكلف • أي ميل ظاهر مني ، أي تقرب لكاتيا الجميلة الفتية •• سأخسر معه امرأة رائعة • كنت أريد لينا • بل انني اتحرق رغبة بها • وها أنا أحس بطيف هوى ، برغبة مباغتة في هذه الفتاة الفتانة المرحة • وسألت لينا مازحـ :

ـ اهكذا هنت عليك ؟ تتركينني طوال ساعة ؟

ـ لكنك كنت مع كاتيا • اليست لطيفة ؟

ـ بالطبع هي لطيفة • أظن انها ستجيء مع صديقها مساء الثلاثاء • اهو ممثل ايضا ؟

ـ كلا • ستحضر وحدها •

ـ كيف ؟ اليس لها صديق ؟

ـ لاأظن •• مادمت ستحضر وحدها • لكن أية غرابة في هذا ؟ بالطبع أن لكاتيا زملاء كثرا • غير انهم زملاء لاغير • الم يحدث لك انك كنت ، مـرة بلا صديقة ؟

ـ حدث هذا مرارا •

ـ اتـرى ؟

وألقت علي نظرة باسمة :

ـ سألتها عنك ونحن نتزلج فأخبرتني انها معجبة بك •

ـ أي نبـأ !

ـ أما انا فلقد سررت • يبهجني ان تراك صديقاتي لطيفا وجذابا • هذا أمر ممتع • اليس جميلا أن تكون كاتيا معنا ؟

ـ أنا احب أن اكون معك وحدك •

ـ وأي ضير أن نلتقي بها ؟ كاتيا فتاة ممتازة •

كنا عند مترو الجامعة مساء الثلاثاء • وكانت كاتيا في انتظارنا • كانت تقرب بوجهها مني كلما سألتني أمرا ما • فكنت أناى بوجهي قليلا غير متعمد • وفي المترو ، بعد الفلم ، أخرجت كاتيا من حقيبتها تذكرتين :

ـ ستقام في معهدنا حفلة راقصة ليلـة الاحد • وارجـو ان تحضرا • ستقضيان وقتا ممتعـا •

وأردت أن اعتذر • فأصرت لينا أن نذهب • وافترقنا عن كاتيا عند محطة غوركي • كنت اعرف طالبة في معهد السينما • رأيتها ، مرة ، في حفلة هناك • وكنا مدعوين لقراءة شعرية • كان قوامها ناحلا تقريبا • غير أن لها وجهـا ساحرا ، وجه أميرة أو ملكة • سألتني أن ارقص معها ، فما افترقنا ، بعدها ، لحظة طوال الحفل • واتفقنا على لقاء • واعطتني تلفونها • لكنني لم احضر ولم اتصل بها • كنت أكره أن أحبها • أي شقاء رهيب أن أحبها هي ! اي اسى في عينيها ! أسى طفلة ضائعة لااحتمل رؤيته • ورأيتها ، صدفـة ، بعد شهور في شارع غوركي • كانت بين مجموعة كبيرة من الفتيات • وكنت مع اصدقاء • رأيتها تحييني ، وتتوقف قليلا لاتقدم منها • فرددت تحيتها مضطربا دون أن

القدم • وكنا في اتجاهين مختلفين • والتفت بعد حين • فوجدتها ملتفتة هـي الاخرى • فلم افعل شيئا غير ان اواصل سيري • ولامني اصدقائي ، يومها ، لوما لا انساه :

ــ اتترك فرصة كهذه ؟ أهذه فتاة تضيع ؟ أي جمال ! كنت تستطيع في الاقل أن تدنو منها وتصافحها • كانت تنتظر فأحرجتها •

قالت لينا ، وقد هبطنا من الحافلة :

ــ لن تتجول معي هذه المرة • ينبغي ان تقرأ •

ــ لكننا في الثلاثاء •• يوم الندوة • لم امكث في المعهد غير ساعـة • وكنت اقرأ طوال النهار •

كنا تتجول في الطرق الليلية الهادئة • وكنت احاول اقناعها بالعدول عـن حضور الحفلة • كنا نستطيع ان نعتذر بالتلفون • قالت لينا :

ــ كيف نعتذر ؟ الم نعدها ؟

ــ الم نتفق أن نكون معا ليلة الاحد ؟

ــ لكننا سنـذهب معا •

ــ قلت انك ستزورينني •

ــ سأزورك •• في يوم أخر • اتدري ؟ انني احبذ الذهاب لاجلك انت •• ستكون امسية فاتنة • وستشكرني •• سترى •

ــ طيب • لدي اقتراح •

ــ أي اقتراح جميل عندك •

ــ سنحضر الحفل كما وعدنا •• وسنكمل السهرة عندي •

ــ انك لنبتكر ! يجب ان ننهض مبكرين صباح الاحـد • فلا اريد أن اسهـر •

ــ وفيم نهوضنا المبكـر ؟

ـ سنمضي في رحلة تزلج . ستكون كاتيا معنا . هذه فكرتها هي .

ـ لاأرى فائدة من ذهابي معكما .

ـ كلا . ستذهب معنا . لن تكون الرحلة ممتعة بدونك .

ـ واية متعة في رؤيتي مضطربا ، باعثا على الضحك ؟

ـ لو تدري .. اية بهجة أن أراك مترنحا بين يدي !

ـ اتحرمينني من أن نكون وحدنا ؟ من ان اضمك وأقبلك ؟

ـ لكنك تستطيع أن تقبلني هنا .

فأردت أن اقبل شفتيها .

ـ كلا . لاعلى شفتي . سأنفعل .

ـ أنا اريد شفتيك .. أريد ان اضمك بين يدي .

ـ ستضمني كثيرا . اعدك بهذا . ستقبلني كثيرا حتى تسأم . سنقضي اوقاتا ممتعة في الضاحية .. في المنزل الخشبي الصغير .

أي رنين غريب في صوتها ! وهي حزينة . وفي عيونها تلتمع نداوة دمع ! فيم الحاحي هذا ؟ هاهي تتذكر وعودها . وهذه المرارة في توكيدها غير خفية عني . اتراني ألح لاقطف ماشاء من ثمرتها المتدلية .. ولارتوي من ريقها العذب كفايتي .. ولامل بعد حين ؟ بعد اسبوع او شهر ؟ لافرق . فأي صيف ؟ وأية وعود تبقى ؟ أهي ظلال وعود تلوح لها .. وهي تتصورني راغبا متأججا هذه الليلة ، زاهدا بها بعد ليال ؟ من الصواب أن اترك الامر كله لها . بالطبع كانت ستزورني ليلة الاحد لولا اقتراح كاتيا . لكنني سأنتظر . مع امرأة مثلها ! غير انها حزينة . وعيناها غائمتان .

ـ لينا .. صحيح أنني اريد زيارتك لي .. لكننا نستطيع أن نكون معا في ايما مكان . في السينما .. في المسرح . لا في الغرفة وحدها .

ـ كلا . سأزورك .

ـ لن أزعجك بشيء من هذا • أهـي الغرفة تجعلـك هكذا تحزنين ؟ أأضايقك من اجل لقاء في غرفة ؟ لاغرف بعد اليوم •• لاخمر ولا قبلات •

ـ ماذا جرى لك ؟ فيم هذه اللهجة الاحتفالية ؟ هاانت تنبري خطـيبا هذه المرة ! هاهو شيشرون يتجول معي في موسكو وأنا لاادري !

ـ ماانا شيشرون • انا سقراط • كلا • انا كانت الاعزب العجوز •

كنا نضحك عاليا ، وقد انقشع الغم عن وجهها •

ـ اسمعي لينا •

ـ ماذا ستبتكر ايضاً ؟

ـ سأصحبكما في رحلة التزلج •

ـ اهذا جديد ؟ بالطبع ستأتي •

ـ وستفخرين بي • سترينني متزلجا بارعا •

كانت تتأملني بعينين ضاحكتين :

ـ سأفخر بك مضطربا لاتستطيع وقوفا •

ـ سأثير عواصف ثلجية من التصفيق •

كنا في الممر الفسيح بين المصاطب المقرورة المقفرة • وكـانت الاشجار متشحة بالثلوج • وكنت اقبلها فتردني ضاحكة •

ـ اسمعي • اتدرين أي سبب يجعلني أتردد في ذهابنا الى حفلة كاتيا ؟ هناك سبب أخر غير احتفالنا الفردوسي في غرفتي •

ـ أي شيء هذا ؟

وقصصت عليها خبري مع الممثلة الجميلة •

ـ ألها مثل هذه السلطة عليك ؟

ـ لم تعد لها سلطة •

ـ فأذا التقيتها هناك •• اتحبها ثانية ؟

ـ لم أقل انني احببتها •• كنت اكره هذا •

ـ اسمع •• لقد اثرت فضولي •

ـ في أي شيء ؟

ـ في قصتك مع الممثلة • كان اصدقاؤك محقين • ماكان ينبغي أن تفوت فرصة كهذه •• فلقد أحبتك •

ـ ماادراك ؟

ـ هذا واضح • لكن كاتيا أجمل منها ، ولم يهزك جمالها كثيرا ؟

ـ لانني معك ، ولانك أجمل منهما معا •

ـ سنرى !

ـ ماذا سترين ؟

ـ قد نرى الممثلة •• وتتغير الامور •

ـ اتشكين في حبي لك ؟

ـ انا امزح معك • لتعد مرحا مثلما كنت قبل قليل • انا اعرف مودتك لي • انما ينبغي أن تعتذر لها • قل انك اضعت تلفونها •

ـ لاأظنها ستذكر شيئا •

ـ اهكذا تفكر ؟ هذا أمر لاينسى •• معها هي وبجمالها !

واردت أن اغير حوارنا :

ـ غدا سأمر على بائعة تذاكر اعرفها قرب بهو الاعمدة • لكنني لااعرف أية مسرحية تودين أن تشاهدي •

ـ شيء رائع انك تعرف بائعة تذاكر • حاول ان تحصل منها على تذاكر لعروض الفرقة الانكليزية ، فرقة شكسبير • ولتكن ثلاث تذاكر •

ـ الثالثة لكاتيـا •

ـ لقد حـزرت •

ــ فاذا تعذر على البائعة •• سأحصل على تذاكر من استاذتنا في مــادة المسرح ، فيشنيفسكايا • اتعرفينها ؟

ــ قرأت لها • مع هذا مر على البائعة • فهي اضمــن •

ــ فاذا شغلت كاتيا ؟

ــ ستحضر • يسرها ان تكون معنا •

ــ أرى ان تتصلي بها أولا •

ــ سأخبرها بعد حصولنا على تذاكر • ستسر اكثر •

ــ ليتك تفكرين بسروري بعض هذا التفكير !

ــ أتغار من كاتيا ؟

ــ بل أحســدها •

ــ تحسدها في ان تكون معنا ؟ أنا لاأفهمك • اليس بديعا أن تصحب فتاة لطيفة وفاتنة مثلها ؟ انسيت اهتمامها بك طوال أمسية التزلج •• لالشيء الا لتدربك ، ولانك صديقي ؟ ودعوتها اللطيفة هذه •• لتريك اجواء فنيــة أخرى غير جوك الادبي ؟ يجب أن نشكرها • ثم انها صديقتي • لكنك ستسر بصحبتها • هذه فتاة نادرة •

كانت كاتيا في انتظارنا عند باب المعهد • ورأيتها جميلة جدا • كان وجهها أبيض ناصعا ، وعيناها ساطعتين ، تظن زرقتهما سوادا متوهجا • وكان شعرها كستنائيا داكنا ، وقوامها ملتفا أهيف •

ــ اني لاشكرك كثيرا • اخبرتني لينا أنك حصلت على تذاكر • هــذا كرم عظيم منك • فعلا كنت سأجد مشقة في الحصول على تذكرة • سأعيــد قراءة « الملك لير » و « عطيل » حتى اتتبع العرض جيدا •

ثم أضافت مازحة :

ــ امن الممكن أن تعرفني ، من فضلك ، بصاحبتك بائعة التذاكر ؟

واخذت بذراعي :

ــ تفضلا •• سأعرفكما باصدقائي •

رقصت مع لينا أولا • ثم مع كاتيا • ورأيت لينا تبتسم لي ، وهي تراقص زميلا لكاتيا • ان لكاتيا حضورا هنا • ان كثيرا من المحتفلين يريد مراقصتها • وكانت لينا تعتذر كلما كان الرقص سريعا • ووجدتها تقترب مني ، وكنت اشكر زميلة لكاتيا راقصتها منذ لحظات • قالت هامسة :

ــ ارأيتها ؟ انها واقفة هناك •

ــ مــن هي ؟

ــ صاحبتك الممثلة • اذهب واعتذر لها •

فالتفت • فرأيتها جالسة في الجهة المقابلة • كان شعرها الاشقر اللؤلؤي ، في تسريحته الرائعة ، متجمعا فوق رأسها • وكانت ترمق لينا •• وتطيل اليها نظرة متأملة • ورأيت ابتسامة سرور خفيفة تعلو وجه لينا • فلقد رأت نفسها في عيني الممثلة ، رأت أية امرأة جميلة هي ! ألقت الممثلة نظرتها الزرقاء الناعمة الندية علي • وحيتني بانحناءة خفيفة • فأتجهت اليها أصافحها • فأسرعت تقول ، وعيونها تتأملني :

ــ كيف حالك ؟ انا مسرورة بلقائك •

ــ يسعدني كثيرا أن اراك •

ــ ارجو ان اسمعك ثانية هنا •

لم أقف معها غير دقيقة • واستأذنت عائدا • ان كاتيا لاجمل منها حقا • غير انني لاأحس مع كاتيا مثل هذه الارتعادة في الروح • اني لاتحرق رغبة بلينا ، بشحوب وجهها وجمالها الجسدي الرهيب • واجدني مستثارا بلمسات كاتيا • أما مع هذه الممثلة فكنت • شخصا أخر • ماانا راغب بجسدها • اني لاود ان اتطلع اليها • غير انني اخشى عينيها حين تحدثان بي • أي شقاء ان

احبها هي ! طوال الامسية كنت اتحاشى نظراتها الي • فكنت اتحول سريعا عنهـا •

حين تعتذر لينا عن الرقص كنت احب ان ابقى معها • فكانت تدفع بـي لاراقص كاتيا أو غيرها قائلة :

ــ ارقص معها • انت تدري •• هذه الرقصة السريعة غير ملائمة لي •

كان يسرها اهتمام كاتيا وانشغالها بي ، وحرصها على راحتي • كانـت كاتيا مضيفتنا فهي ترغب كثيرا أن استمتع بدعوتها هذه :

ــ اوصتني لينا الا تتركك لحظة • انها تكره أن تسأم • أنا اهنئك على صديقة مثلها • هذه امرأة نبيلة • وأي جمال !

لم تكن لينا وحدها لحظة واحدة • كانت في حديث شائق ، كما يلوح مع هذه أو هذا من اصدقاء كاتيا • وفي الحفل الزاهي المتألق لم يكن يهمها أن ترقب الا وجها واحدا : وجه الممثلة • كنت اراها تتفحصها ، محاذرة الا تراها ، كلما ابصرت بها ناظرة الي • ووجدت كاتيا تلتفت هي الاخرى ناحية الممثلة :

ــ لم تقل لي انك تعرفها •

ــ كنت ، مرة ، هنا في أمسية شعرية • ورقصت معها •

وسألت لينا ان ننصرف مبكرين • فأصرت ان نبقى حتى اخر الحفل • كنت أريد أن اقنعها بزيارتي ، فلعلها تلين •

ــ ها قد بدأ الحفل يحلو ، وانت تريد ان نغادر • فيم جئنا اذن ؟

ثم نادت كاتيا :

ــ كاتيا •• اترين ؟ يريد ان نخرج •

ــ كلا • لن تخرجا • لنمض الى البوفيت •

ــ نعم ماتقترحين • فأنا ظمأى •

لم تشأ لينا أن تشرب غير قدح من المياه المعدنية • وكنا نتلذذ بتجـرع الشمبانيا • فألححت عليها أن تشاركنا • قالت :

ــ صب لي قليلا هنا •

فأترعت كأسها •

ــ انظري كاتيا • هكذا هو دائما معي • دائما يفعل عكس ماأقول • طيب • سأشرب جرعة واحدة • وانت ستشرب هذا ايضا •

قالت كاتيـــا :

ــ لينا •• أي ضرر ان تشربي معنا •

ــ لكنني لاأريد •

قلت ضاحكا ، وأنا ابصر انقلاب لينا المفاجيء :

ــ اقسم لك ياكاتيا انها راغبة بكأس • لكنها تعاندني •

ــ أنا اعانده ! انظر •• لن ادع لك قطرة من كأسي •

وافرغت كأسها قبلنا • كانت كاتيا تضحك ضحكا ناعما :

ــ مع هذا جعلك تشربين •

لم تقل لينا كلمة ما • كانت تحـــدق في الفراغ ، وقـــد اتسعت عيناها وتألقتا •• وحين رجعنا الى الصالة توقفت ، فجأة ، قائلة :

ــ كلا • علينا أن ننصرف • لقد نسينا شيئا مهما •

قالت كاتيـــا :

وأي شيء نسينا ؟

ــ رحلة التزلج غدا • هذا يتطلب منا النهوض مبكرا •

ــ وفيم تبكيرنا ؟ يمكننا أن نصل في أية ساعة •

ــ اتظنيـــن ؟

قلت ، متعمدا أغاظتها ، متواطئا مع كاتيا :

ــ أما انا •• فأتلهف لان نغادر •

فألتفتت الي ، ورمقتني بنظرة ملتهبة :

ــ ومن قال انني حريصة على انصرافك معي ؟ تستطيع ان تظل هنا قدرما تشاء • على العكس •• انا اود ان تبقى وتستمتع •

قالت كاتيا معاتبة برقــة :

ــ لينا •• اتظنين انه سيتأخر بعدك ؟

ــ وأي جدوى في خروجه معي ؟ استطيع التجول وحدي •

ــ كاتيا •• هي تدري اننا سننصرف معا • وقد سألتها ، قبل قليل ، ان نخرج •• لكنها اصرت على أن نبقى •

واشارت كاتيا ان اصمت • وامسكت بذراعي لحظة • كانت تحدق ، متفكرة ، في الفراغ • فهمست كاتيا :

ــ انها تحبــك •

التفتت لينا متسائلة :

ــ فيم تتهامســان ؟

قالت كاتيا ، باسمة لي :

ــ قلت انك تحبين •

ــ أنا ؟ انك لمخطئة •

ــ لكنك تحبين • سنمكث قليلا ، ثم نخرج معا •

ــ يمكنكما ان تبقيا •

ــ وأية مسرة في بقائنا من غير لينا ؟

قالت كاتيا هذا ملاطفة ، أخذة بذراعينا الى الصالة • وسألت لينا أن نرقص • فتأملتني متبسمة :

ــ عليك أن تسألها رقصة •

ــ أســأل مــن ؟

ــ انت تعرف من اعني •

ـ تلك الممثلة ؟ لم تعد راغبة • فلقد اعتذرت عن أخرين •

ـ لن تعتذر منك • ليس من اللائق الا تطلبها •

قلت ممازحـا :

لـن ادعوها مادمت تريدين •

ـ أنا لاامزح • من اللائق ان تدعوها ، فهي تعرفك •

ـ اود ان ارقص معك انت •

ـ انت تتعمد اغاظتي •

ـ ايسـرك ان اراقصها ؟

ـ يسرني ان تكون لطيفا مع الاخرين •

ـ طيب • سأدعوها •

واتجهت اليها :

ـ ارجو ان تسمحي لي بالرقص معك •

فأجابت بلطف :

ـ يسرني هـذا •

كنت اراقصها ، محاولا الا ارى نظـرة عينيها النـدية ، نظرة الأسى والتساؤل الغامض البعيد • قالت :

ـ صديقتك جميلة جدا • هوذا الجمال الروسي !

ورأتنا كاتيا • فطاف في وجهها تكدر ما • غير انها سريعا ماعادت مرحة ، منطلقة • كانت واقفة مع لينا • وكانتا تنظران الي بارتياح ورقة • وكـانت لينا تتكلم • وبدأ لي انها تقص عليها قصتي مع الممثلة •

طوال الطريق ، في المترو ، كانتا تمزحان معي : لم تكن مصيبا في فرارك منها • هي فتاة كغيرها من الفتيات • كنت ستجدها مثل غيرها • وهي جميلة ولطيفة على اية حال •

صباحا ، في الضاحية ، نسيتا امرها تمـاما • كانت لينـا ، في انطلاقتها الرياضية ، متوردة ، ممتلئة مرحا • قلت :

ــ سأتمرن وحدي هذه المرة •

قالت كاتيا :

ــ سنأخذ جولة ونعود •• انتظرنا هنا •

واندفعتا معا • رأيتهما تبتعدان سريعا مع الاخرين • فأحسست بالبهجة لهما • كانت السماء بيضاء واطئة • والثلوج وثيرة ناصعة • وكانت الغابـة ساكنة ، مسحورة ، مثقلة بالثلوج عن قرب • فرحت اخطـو بين اشجارها • ورايت آثارا لاعرفها • أهي أثار ثعالب وأرانب ؟ كنت أتأمل الثلوج الباهرة ، وامتع طرفي بنقائها ، واكتساء الصنوبر والشربين بها • وكنـت اسمع مـرح المتزلجين فلا أحس انني وحيد • واوغلـت في الغابة تحت اشجـارها العالية المجللة بالثلوج • وكنت افكر بكاتيا • وتذكرت انها لم تعد تخاطبني ، منـذ البارحة ، بصيغة الجمع • ولم أشعر ، عندها ، بأي تغير في انتقالها المفاجيء هذا •• فكأنني زميل من زملاء المعهد او صديق قديم • مع انني كنت أحس بصعوبة ما في مخاطبتها : بانت •

وسمعتهما تهتفان باسمي :

ــ ايـن انت ؟

فأسرعت اليهما • كنت احبهما كثيرا • كانت لينا محقة ، أذن ، في دعوة كاتيا • ها انا اجد متعة عظيمة في صحبة هذه الفتاة الطيبة المرحة •

ــ لماذا عدتما سريعا ؟

قالت لينـا :

ــ أكنت سعيدا في وحدتك عنا ؟

فاقترحت كاتيا :

ـ لينا •• انت لن تصبري طويلا عن التزلج • فأنطلقي انت • وسأبقى معه لادربـــه •

كانت لينا مولعـــة ، متيمة بالتزلـــج • بـــل هي تعشقه عشقـــا • فلـــم نشأ ابقاءها معنا • وألححنا أن تنطلق ماتشاء • فأسعدها هذا منا • وشكرتنا بعينين ضاحكتين • وانحدرت متأنية أول الامر • ثم أخذت تتسارع باعتدال • ثم انطلقت باندفاعة رائعة • وكنا نتابعها بانظارنا معجبين •

ـ يالها من متزلجـــة !

قالت كاتيا هذا ، دون ان تحول طرفها عنها •• حتى توارت بين الاخرين • اجل ! كانت لينا مشبوبة ، فائقة في جمالها الجسدي وانطلاقتها بالرغم مـــن ثقلها • وتركت أمري لكاتيا شأن تلميذ طيع مع معلمته • كنت احس بجســـد كاتيا ملامسا لي فأثار • وكان وجهها خاليا من ايما انفعال غير مودتها وحماسها في أن اتعلم • ولربما فطنت ، مرة ، لتأثري بلدونتها وارتجاج ناهديها علي • فلقد رأيتها تبتسم غير ناظرة الي • وكنت احاول تغطية احاسيسي هذه متكلفا • وكانت تدرك هذا بحسها الانثوي فتضحك • ووجدتني ، مرة ، متأملا وجهها بافتتان • فافترت شفتاها الممتلئتان عن ابتسامة •

ورأينا لينا أتية في اسراع خفيف متواتر • وتوقفت عندنا راضية متبسمة • وكانت انفاسها متسارعة ، وصدرها الرحب الممتليء يتنفس بقوة ، ووجهها في اشتعال • كنت أرى جمالها واندفاعة صدرها ، وامتلاء البدلة الرياضية المتموج بها •• فأتأجج رغبة • كانت عيناها الضاحكتان صافيتين ، خاليتين من ايمـــا تساؤل • فأحسست بندم ما • لكنني لم اكن متقصدا في ملامسة كاتيا • انما هو هوى عابر يحسه الفتى في انسحاق صدر فتاة متوثب على صدره • قالت لينا •

ـ جاء دورك •• كاتيا •

دارت كاتيا حولنا دورة • ثم اندفعت بعيدا بفتوتـــها القوية المرحة •

وأردت للينا أن تستريح • فأقترحت أن نتجـول في الغابة • كنـت اريد أن اقبلها • قالت •

ـ لابأس • لكننا لن نذهب بعيدا • في السهل افضل •

اوقفتها وراء صنوبرة • واحطتها بذراعي •

ـ لاتقبلني هنا • ليس الان • ليس جميلا ان تلاحظ كاتيا •

ـ كاتيا بعيدة •• ولن تعود قريبا •

ـ مع هذا ستلاحظ •

ـ وأي ضير في أن تعرف •

ـ كلا • هذا غير جائز • من اللطف ان تتجنب أي شيء من هذا مادامت معنا • أنت تفهمني • أيسرك ان ينفرد صديق بصاحبته وانت وحدك ؟ ايغيب عن فطنتك شيء مثل هذا ؟

ـ قلت ان كاتيا بعيدة •

ـ لن يفوتها ان تلاحظ •

كان جسدها الممتليء اللاهث بين ذراعي • وكان صدرها يخفق حارا ، منضغطا بصدري • فرأت أن تتمازح وتنزلق مني • وعادت كاتيا لتقول :

ـ اسمعا •• أنا جائعة جدا • مارأيكما أن نأكل الان ؟

قالت لينـا :

ـ لنحضر متاعنا اذن •

قلت مقترحا :

ـ لاشيء امتع ، بعد هذه الرياضة ، من الحساء الحار • لنحمل حقائبنا ونتجه الى المحطة • سنصل المطعم بعد موقفين كما أظن •

قالت كاتيـا :

ـ سأكل لقمة هنا قبل أن ننطلق •

فأعترضت أقول :

ــ لن تجدي الغداء طيبا بعد هذه اللقمة .

ــ قد لانجد مكانا فنتأخر .

ــ سنجده فارغا تقريبا .. هذا مطعم لايرتاده الا قلة من الناس . مع انه مطعم جيد .. وروسي تماما .

قالت هذا لينا . فأذعنت كاتيا رانية الي برجاء .. علني أسمح لها بلقمة ، فأبيت . وكان فارغا كما قالت لينا . فأخترنا مائدة عند النافذة . كان المبنى خشبيا ذا طابقين . وكانت المقاعد دكات خشبية لامتكأ لها . وكانت الانية والاقداح خشبية ايضا . جيء لنا ، اولا ، بالكفاس البارد . فامتعضت كاتيا قليلا . وقالت :

ــ وأين هو الحساء ؟

فأجاب النادل بحكمة :

ــ سيأتي .. سيأتي ايتها الفتاة .

وشربت أنا من الكفاس الرائق البارد متلذذا . وكنت جالسا قبالتهما ، غير مستند بظهري لشيء ، مبقيا الحائط لهما . قالت لينا :

ــ سيحرمك هذا من الحساء

وكانت كاتيا تتذمر :

ــ لكن أين هو الحساء ؟

جاء النادل ، متمهلا ، بزجاجة الفودكا . فقلت راجيا :

ــ الا تتكرم علينا بصحن حساء واحد .. ثم جئنا بالسلطة .

ــ لايجوز ايها الشاب .. سأتي بالسلطة ثم الحساء .

وجعلتنا الفودكا منطلقين قليلا ، مرحين ، في هذا المطعم المنعزل بين الغابات . والثلوج متراكة عبر النافذة . وكنت أتأمل ، معجبا ، صديقتي

الفاتنتين • كان وجه لينا شاحبا ، مشتعل الوجنتين ، منخسف الخدين قليلا • أما وجه كاتيا الابيض الناصع فكان متوردا ، منفعلا • وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رائعة • ورأيت زرقة عينيها تزداد سطوعا • وتراءى لي ان عينيها تبتسمان لي ، وتقولان شيئا كنت احاول اخفاءه عنها في ساحة التزلج • لم يدم هذا الا لحظات •• فاسرعت تبدي اعجابها ببراعة لينا وتفننها في هذه الرياضة الشتوية •

كنت انتظر السبت • ولم أر كاتيا الا مرة خلال الاسبوع • كان هذا يوم الاربعاء • كنت خارجا صباحا • فوجدت ورقة بأسمي فوق منضدة الرسائل قبالة المصعد ، في الطابق الارضي :

« انتظرنا مساء اليوم في السابعة ، عند المدخل •

سنزورك •• أنا وكاتيا •

لينا »

قلت : ستكون أمسية طريفة • لكن كاتيا ، اتظنني اعيش حياة شبه زوجية مع لينا •• فلا بأس من أن نلتقي ، نحن الثلاثة ، في غرفتي نفسها ؟ ولينا ، أية افكار غريبة تطرأ لها ؟ هي تدري انني متشوق لان انفرد بها في غرفتي ، فأي شأن لكاتيا هنا ؟ أية تجربة ان تزورني كاتيا وحدها ! سنشرب ونرقص بالطبع • لكنها جميلة وشهية ! أأتركها دون ان اقبلها ؟ ستدفعنا قبلة واحدة لان نواصل وسأحاول •• ماذا سأفعل معهما اليوم ؟

وجاءتا متأخرتين عشر دقائق • كانت المائدة مهيأة منذ حين ، مزدانة بباقة ورد وبرتقال ، وبالخضر والاطعمة المعلبة ، وقنينتي خمرة وكونياك :

ـ سأكتفي بقدحي نبيذ لااكثر •

قالت هذا لينا متبسمة لي ، متذكرة سهرتنا هنا •

ـ أما انا فسأشرب الكونياك •

قالت كاتيا هذا ضاحكة الوجه • قلت فجأة :

ــ اتعلمين ياكاتيا انني خطبت لينا فرفضت ؟

ــ مع انها تحبــك ؟

ــ فكيف تفسرين رفضها ؟

أمسكت لينا بيد كاتيا :

ــ لاتدعيه يجرك في حوار لاطائل من ورائه •

ثم ابتدرتني قائلة :

ــ اتريد ؟ سأخطب لك كاتيا •

ورأينا في اقتراحها مزحة وملاطفة • قالت كاتيا ضاحكة :

ــ حقا انك ممازحة !

فأخذت اضحك معها • قالت لينا :

ــ انا اتحدث جادة وهما يضحكان •

فأزددنا سـرحا وضحكا •

ــ طيب • اضحكا • لكن لاتنسيا إن تفكرا فيما قلت •

أي مزاح غريب ! غير ان كاتيا لم تر الامر الا مداعبة ، فأنطلقت فـي ضحك صاف رائق • قلت متكلفا المسكنة :

ــ في لحظة واحدة ترفضني امرأتان ! يالي من خطيب خائب !

فأندفعت لينا قائلـة :

ــ لكن كاتيا لم تقل كلمتها بعد •

فأخذنا نضحك عاليا هذه المرة • قالت كاتيا :

ــ أي سرور ان اكون معكما !

كنت اراها جميلة • غير ان للينا جمالا أخر ملكيا باهرا ، جمال القـرن التاسع عشر ! ينبغي أن اتصرف معهمـا محاذرا • وفي العاشرة ارادت كاتيـا

أن تذهب . فنهضنا معا . كانت الثلوج تدور حثيثا ، والحافلة تمر صافرة . وكانت لينا تقول مؤكدة :

ــ ستوصل كاتيا حتى بيتها .

قالت كاتيـا :

ــ لماذا ؟ يمكنني أن اصل وحدي .

ــ كلا . سيوصلـك .

كنت أحس بالخيبة والمرارة بعد المرح والبهجة . كانتا معي ، في غرفتي ، عطرهما هناك وبقايا كأسيهما . وهاهما منصرفتان . كل شيء سيذكرني بهمـا الليلة . لو كنت ثملا ، في الاقل ، لجرؤت مع كاتيا بعد انفرادي بها ، ولرجعت معها . ولن تعرف لينا شيئا .

أي لمح تراءى لي في عيني لينا وهي تصافحني منذ لحظة ؟ أهي البروق النائية نفسها ؟ أي نفع في ان اوصـل كاتيا واعود وحيـدا ؟ طوال الطريق كانت تتكلم عن فلم قادم لها .. عن متاعبها في أن تنجح . احيانا كانت تمسك يدي . وفوق السلم المتحرك الهابط ، في المترو ، كنت أحس بظهرها ملامسا لي ، وكنا واقفين . هذا يحدث مع غريبة في مثل هذه الزحمة . وفي عربة المترو كنت اتطلع اليها معجبا ، راغبا ، وأرى الرغبة نفسها في عينيها . أهو الكونياك ؟

كان منزلها عبر الشارع ، غير بعيد عن المحطة . كان مبنى هائلا ، يمتد نحو باحته ممر متقوس السقف . وعند المدخل قالت كاتيا :

ــ شكرا . لااريد أن أؤخرك أكثر . كنت اريد ان اريك صورا لي من الفلم ، معلقة في بهونا . ستراها في المرة القادمة حتما .

وفوجئت بورقة ثانية من لينا . وكنت عائدا من معهدي مساء السبت :

« عـزيزي ..

اتصلت بي كاتيا اليوم صباحا وأنا في المصنع . ودعتنا لنقضي الامسيـة

عندها • لكنني مرهقة وبيتها بعيد • فرأيت ان تكون السهرة عندي • اعرف أنني وعدت بزيارتك • لكن ماالفرق ؟ ننتظرك في الثامنة •

لينا »

وكدت اعتصر الورقة • وتذكرت عيني لينا المحبتين ، ووجهها الشاحب الجميل ، وانخسافة خديها ، وحنوها علي • سأقرأ حتى الثامنة • وانكببت على بومارشيه •

وارتديت معطفي في الثامنة • أنا اعرف انها تسكن في الطابق الثاني ، أي فوق الطابق الارضي • لكن في أية شقة • وبحثت عن مفكرتي الصغيرة في مجر المكتب • واخذت اتصفحها • هاهي العناوين والتلفونات • فتذكرت وجوها لم أرها الا مرة أو مرتين ، ووجوها لم أحظ حتى بقبلة منها ، ولم تعد غير اطياف في زحمة المترو أو الباص ، ووجوها لم اعد اتصورها تماما ، فما كان لي منها غير لقاء عابر في المترو وأنا شبه سكران • وتذكرت سوسان وتفاحها وبرتقالها ، تضعه ، خفية مني ، فوق طاولتي ، ولقاء كل ليلة بعد الثانية عشرة في غرفة التدخين •• والتفاتتها لي بعد عام • أكانت هي ؟ وكنا في اتجاهين مختلفين ، في زحمة اول الليل ، عبر الشارع • رأيتها صدفة في طريقها الى الكوم • والتفت بعد حين ، وابصرت بها ملتفتة ناحيتي •• وفي ملامحها غضب ومرارة • ولم اتحرك • وألقيت بالمفكرة وخرجت •

وفتحت لينا بابها لي لاول مرة :

ـ كاتيا هنا • تعال اعرفك بأمي •

كانت لينا مرهقة قليلا •• وتقدمتني ، فرأيت ساقيها الطويلتين الممتلئتين • وتذكرت امتلاء فراشي بها ، تلك الليلة ، وقد حال بيننا نومها خدرة لاتعي من حالها شيئا • كانت أم لينا طيبة جدا ، لكن مزاجها حاد عصبي • ورأيت كاتيا في بنطلون أزرق ضيق ، ملتفة الفخذين ، يلوح تكورها

المغري في مواضعه الملائمة • كانت هيفاء • غير انها في امتلاء الرياضية الفتية ، فهي ممثلة على أية حال • لكن لينا بأمتلاء أخر •• امتلاء باذخ رهيب • قلت :

ــ أراك متعبة هذه المرة ؟

ــ كان علي ان اقوم بمهام زميلتي المجازة •

لم اسألها ، مرة ، عن تفاصيل عملها الهندسي • وما من عادتهن ان ينضن بتفاصيل • وكانت كاتيا مرحة ، مشبوبة الخدين • وأرتني لينا زجاجة ملاى بالخيار المملح :

ــ هذه لك • سأتي بها في المرة القادمة •

والتفتت نحو كاتيا :

ــ وهناك واحدة لك • أمي بارعة في تمليح الخيار •

ــ أريد أن اذوقه الان •

ــ هاهو امامك • ألم تلاحظيه ؟

ــ فعلا •• لم اكن منتبهة •

واخذت تقضم الخيارة المملحة في تلذذ :

ــ كيف أسرعت في تهيئة هذه المائدة البديعة ؟ سأعجز عن مثلها في السبت القادم •

ونظرت الي لينا كالمعتذرة :

ــ نسيت أن اخبرك • كاتيا تدعونا عندها مساء السبت • ورأيت أن اشكرها ، قابلة دعوتها ، نيابة عنك •

ورميتها بنظرة معاتبة ، فأطرقت متهربة • ووجدتها تنهض بعد حين •• فتبعتها • كانت واقفة في المطبخ • فأمسكت بكتفيها ، واقفا وراءها • كان امتلاؤها العصي ملء ذراعي :

ــ اسمعي لينا •• سأوصل كاتيا بالطبع وأعود اليك • أحب ان نجلس معا ساعة ، ونشرب أخر كأس منفردين •

ـ ستجدني نائمة . ولا أظنك ستزعج امي بالجرس .

ـ لكنها ليله الاحـد .

ـ قلت انني سأزورك .. وكاتيا احبت ان نلتقي .

ـ ولماذا لم تعتذري .

ـ اوه .. انك توجعنـي .. انك تعصرني عصرا . ماذا جرى لـك ؟ لاتؤخرني . فعلا .. ماذا دهاك ؟

ـ انت تتعمدين التهرب مني ليلة الاحد .

ـ ألسنا معا ؟ ألم ابت عندك تلك الليلة ؟

ـ لم تبيتي الا لانك مرهقـة .

ـ الا تتركني اخيرا ؟

قالت هذا ضاحكة ، وهي تنفلت مني .

ـ لم لم تعتذري ؟

ـ انك لقاس ! مع انك لطيف !

ـ اية قسوة أشد من قسوتك هذه ؟

ـ اوه .. قلت لك كل شيء وماتزال تصر .. لكننا تأخرنا حقا .

شربنا اولا في صحة أمها . ثم شربنا في صحة كاتيا ، ونجاحها في أن تغدو أعظم ممثلة في اوربا . ثم تركنا أمر الانخاب لكاتيا ، وقد زهاها أن تبتكـر ماتشاء من أنخاب . وكانت لينا تدعوني خطيبها مازحة :

ـ فيم انت تفكر ياخطيبي ؟ فيم هذا الصمت كله ؟

وجعلت من خطبتي لها نكتة . وكنت اضحك ، احيـانا ، بالرغم مني . كيف لاأضحك وهي تقول بأرق لهجة ، لكنها متهكمة وممتلئة حبا في الوقت نفسه :

ـ انظرا .. أي شقاء ان يكون خطيبي متجهما كالسحابة .

أو تسأل عائدة من المطبخ :

ـ لكنكما لم تتركا خطيبي وحيدا لاأنيس له ؟

وتقول امهـا مؤكدة :

ـ هذا يعني انها تحبك مادامت تناكدك هكذا .

كانت كاتيا تضحك مبتهجة ، وقد راقها المزاح . وكانت أم لينا معجبة بلطفها ومرحها ، وبهذا الضحك الصافي ، منبعثا من نفس رائقة شفيفة . وسمعت لينا تقول :

ـ وانت .. هلا قلت شيئا ، بيت شعر في حبك لي مثلا ؟

ـ سأدفن قلبي في ثلوج موسكو واستريح .

ـ لكنها ستذوب .

ـ سيخضر قلبي ، أذن ، كل ربيع مع أشجار الارصفة .

ـ سأقبلك جزاء لهذا البيت الجميل ... وستقبلك كاتيا .

ـ بالطبع سأقبله .

كانت كاتيا منطلقة . ورأيتها مسرفة في شربها تقريبا . لكنها مسرورة . كانت لينا تعرف أنني سأوصلها في التكسي فلا خشية عليها . ورأيت أخيرا آن ننهض . كانت الساعة الثانية عشرة . وفي التكسي كانت كاتيا صامتة . ووجدت رأسها الجميل ملقى على كتفي . كانت غافية . لكنها صحت قريبا من منزلها :

ـ عذرا .. لقد اتعبتك .

وتركنا التكسي وهي ترنح . فأخذت بذراعي .

ـ سأوصلك حتى بابك .. لا عود مطمئنا .

ـ شكرا .. أنا ثملة تقريبا .

ولم تزل ممسكة بذراعي حتى أوصلتها عند بابها .

ـ طيب . ها أنت عند بابك . الى اللقاء .

كانت تبحث في حقيبتها عن المفتاح • ووجدته • ومددت يدي لاودعها • فأخذت يدي مصافحة ، وفي وجهها تحير • كان المصعد واقفا في مكانه فأتجهت اليه •

وسمعتها تقــول :

ــ انتظــر •

فأقتربت منها • كان صوتها دافئا ، صادقا :

ــ لكن الجو قارس • وقد يطول انتظارك في الشارع • تعال معي • لــن ادعك تذهب في هذه الساعة المتأخرة •• تعال •

أغلقت الباب وراءنا في هدوء • وكانت الشقة صامتة •

ــ اعطني ، من فضلك ، معطفك لاعلقه •

ــ لابأس • سأعلقه أنا •

ــ تعال من هنا • في هذه الغرفة تنام أمي واختي الصغيرة • وهذه هي غرفتي • تفضل • اجلس حيث ترغب • سأعود بعد لحظة •

كانت بهوا وغرفة لكاتيا • هنا التلفزيون والمكتبة والارائك ا صغيرة • وكان سريرها واطئا • ورأيت صورا كبيرة لكاتيا معلقة على الحائط • هـنا فوق طاولة صغيرة حوض زجاجي مغلق ، في قاعه تلوح صخور بحرية ج بيلة ، وفي مائه تتحرك اسماك صغيرة حمراء • وحيال واجهة الشرفة أصص يعلـ ـها صبار أخضر • وعادت كاتيا بقنينة وكأسين • قلت :

ــ لكنك متعبة • لن تحتملي مزيدا من الشراب •

ــ لن اشرب غير قدح صغير • انت ظريف حقا • ،نت تخاف علي أن اسكر • كلا • اؤكد لك • لن اسكر •

ــ لكنك متعبة •• ونعسى •

ــ كلا • لم اعد راغبة بالنوم • وغدا عطلة •

كنت اخشى أن تسكر ثانية • وكانت تصب الخمرة واقفة • وكنت اتطلع الى قامتها الجميلة في بنطلونها الضيق • وتركتني لتعود بأنية برتقال •

ــ لم تقل لي أيك في غرفتي •

ــ انها بديعـــة •

ــ انت لطيف • بالطبع هذا ليس سريرا تماما ، بالرغم من انه مريح • هو سرير واريكة معا • كل صباح أجعل منه اريكة • فتعود الغرفة بهوا لاغرفـة نــوم •

فكرة واحدة تدور في ذهني : ستسكر • ورأيتها ترفع الزجاجة لتسكب • ولمست يدها برفق :

ــ كاتيا •• لاضرورة لان نشرب بعد • نحن مرهقان • وانت نعسى •

ــ اؤكد لك انني صاحية تماما •

ــ مايعوزنا هو الشاي أو القهوة •• لا الشراب •

ــ بالطبع ساعد لنا قهوة •• سأعدها حالا •

وانترعت كأسينا ضاحكة :

ــ أنت صديق يعتمد عليه •• انت لطيــف • في صحتك • هذا أخــر قدح • أؤكد لك •• أخر قدح • لكنك لاتشرب • اوه •• كلا •• اشــرب ارجوك •• لاجلي أنا • وبعد ؟ قلت لاجلي • أقســم أنني سأغضب منك • الست صديقة لك ؟ اشرب •

أي شيطان يدفعها لان تسكر ؟ كنت أشرب مرغما • ونهضت معتذرة • هاهي ذاهبة لتهيء القهوة • وتذكرت فجأة زجاجة الخيار المملح • لم يكــن مع كاتيا غير حقيبتها • كان علي أن احمل الزجاجة ، فلم أتيه • هل نسيتها كاتيا في التكسي أم في شقة لينا ؟ وعادت كاتيا بلا قهوة •

ــ كنت ادري أنك ستنسين •

ـ أنسيت شيئا

ـ نسيت القهوة .

ـ سأعدها حالا .

ـ انت مرهقة ياكاتيا .. سأعدها انا .

ـ كلا . سأجيء بالقهوة حالا .

لكنها لم تتحرك خطوة باتجاه الباب . ظلت واقفة كالحائرة . ثم جلست لتكمل كأسها . وكانت تبتسم في شرود . قلت :

ـ لنذهب الى المطبخ .

ـ طيب . سنعدها معا .

كانت تترنح قليلا ، أخذة بذراعي .

ـ أظن القهوة هنا . اجل هاهي . سأعدها انا . انت ضيفي .

ـ اسمعي . انت متعبة جدا . سأعود بك لتستريحي .

وعادت طائعة . أجلستها في مكانها . ورجعت لاهيء القهوة . اشعلت النار تحت الابريق . ووقفت منتظرا حتى اغتلى الماء . وجعلت القهوة قوية مرة . وملات فنجانين . كانت كاتيا غافية في مقعدها ، ووجهها منحن فوق صدرها . وكان شعرها متهدلا .

ـ اهي ذي القهوة .. كاتيا .

وكأنما اخاطب الجدار . امسكت بها بلطف واوقفتها . وقدتها الى فراشها . وكانت تغمغم بين يدي .

ـ انت لطيف .

أجلستها فوق سريرها . وقلت :

ـ سأتركك تنامين .

ـ شكرا . سأنزع ثيابي اولا .

لم تكن واعية تماما . غير انها تعرف كيف تلقي عنها حذاءها وبنطاونها وبلوزها الثقيل . ورأيتها تستلقي تحت اعطيتها . كان وجهها جادا وعيناها مغمضتين . قلت : سأشرب القهوة اولا . ثم جلست فوق حافة سريرها . كانت مستغرقة في رقاد كطفلة . فأنحنيت الثم وجهها .. وعدت الى مقعدي .

ماذا ترى سأفعل ؟ سأتطلع اليها من هنا ، وقوامها مستلق بالتفافه ، وتحت الغطاء البني يتنفس صدرها الشهي ؟ سأنتظر حتى تصحو . ينبغي أن اتسلى بشيء سأدخن لفافة واقفل الباب بعدها .

كان قدحها فارغا . بالطبع لقد شربته . وكان قدحي ممتلئا لمايزل .. لن اسكر ، بعد القهوة ، بكأس نبيذ . بالطبع لن اسكر . انت لطيف . وضحكت . كانت ترددها في تدلل . فعلا انها فتاة ظريفة . انما هل سأقضي الليلة جالسا ؟ لااظنها ستصحو بعد ساعة أو ساعتين . هاهي تتنفس عميقا ، متوردة . لا بأس بكأس ثانية . لن اسكر . هاهو وجهها يطل علي ضاحكا متدثرا بالفراء في هذه الصورة الكبيرة . أي جمال ! لكنها نائمة . كانت جالسة فوق فراشها ، وكنت أراها في قميصها وحده . حتى ـي نسيت أن اخرج حين جعلت تنزع بنطلونها . وهذه الخمرة اللعينة ؟ أي مذاق ممتع لها ! لكنني صاح تماما . والوقت يمر بطيئا ثقيلا . سأبدد قلقي بكأس اخرى ، وسيمر الوقت سريعا . ورأيت كاتيا تتحرك قليلا . كانت نائمة على ظهرها في رقاد عميق . لكنني بعيد عن دفئها ولينها . سأتمدد قربها ، والثم وجهها في الاقل . وأي جدوى في أن اقبل فتاة غارقة في نومها . لن يصحيها عناق أو قبلات . ولماذا أزعجها ؟ سأنتظر . سأكل برتقالة واشرب .

اخيرا رأيت ان اتمدد قربها وانتظر . لكنني نمت . بعد انتظار طويل نمت . حين صحوت لم تكن كاتيا معي . كانت الستائر مزاحة لنور الشمس الباهته . وكان الباب مغلقا . وكنت اسمع حركة خفيفة في الشقة . لن اغادر فراشها .. فقد تعود بعد حين . وغفوت ثانية .

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة حين افقت . وسمعت اصواتا هادئة ، فأسرعت بارتداء ثيابي . وفتح الباب برفق . هذه كاتيا ، عيناها تشعان زرقة تحسبها سوادا . وضحكت حالما رأتني :

ـ طاب نهارك .

ثم قادتني الى المائدة . وعرفتني بأمها :

ـ لقد حدثتها عنك . اجلس من فضلك . سأتي بافطارك . جعلته خفيفا لاننا نعد غداء رائعا لنهار الاحد .

كانت اشبه بامها . غير ان امها بنظارة ، وكانت تسألني برقة الامهات ولطفهن . واقترحت كاتيا أن تتسكع في البولفار حتى تحين ساعة الغداء . وكانت تمسك بذراعي قائلة :

ـ لن تظل السماء صاحية طويلا . لكن قل لي ماذا دهاك البارحة فافرغت الزجاجة كلها ؟ بالطبع ستغرق بعدها في رقاد عميق مثلي .. حاولت ايقاظك حين افقت ، انما عبثا .

كانت الثلوج تجلل الشجر ، ملتمعة ناصعة . واخذت تضحك :

ـ حين افقت من نومي وجدتك بين ذراعي . كنت احتضنك وأنا نائمة من غير أن اعي . وهززتك لتفيق .. انما عبثا . قلت : هو ذا رجل يستهين بقبلاتي وعناقي له . كنت اقبلك . وكنت مضحكة وانا اهزك بلا فائدة .

وطفقت تضحك ثانية .

ـ ليتني كنت واعيا .

ـ ماكان عليك ، اذن ، ان تفرغ الزجاجة .

ـ لكنك ستأتين معي .

ـ كلا . ليس هناك . ستكون الشقة خالية بعد الغداء . ستذهب أمي واختي الى السينما كما اعتادتا كل احد .

حين غدت الشقة خالية الا منا •• لم تقل كاتيا شيئا ، ولم تتحرك •• كانت جالسة ، غاضة بصرها • فأوقفتها برفق ، ورحت أقبلها • واتجهنا معا صوب فراشها •

كان علي ان التقي بلينا في السابعة • فنهضت لارتدي ثيابي • وكنت أرى كاتيا في ضوء مصباح الطاولة الازرق مشوشة الشعر • وكانت مشتعلة الوجه ، جميلة جدا • فعدت لاقبلها •

ــ متى ستجيء ؟

ــ في أي وقت تحبين •

ــ في الثلاثاء •• في السابعة •

ــ لكننا سنشاهد الملك لير في الثلاثاء • انسيت ؟

ــ اذن في الاربعاء •

ــ في السابعة ؟

ــ اجل • وجيء بكتبك معك لانك ستبيت هنا • ويمكننا أن نقرأ معا • لاتنس لانني سأنتظرك •

ــ بالطبع سأجيء •

وكنت افكر بلينا • وفي السابعة كنت واقفا ، منتظرا عند رصيف المنزل • ورأيتها آتية من ناحية البريد • واخذت يدها مصافحا • كنت اتأمل وجهها الشاحب ، بانخسافة خديها ، ووجنتيها الشفقيتين ، فأدركت أنني احبها • ورأت لينا نظرتي هذه فأبتسمت ، واطرقت قليلا • كانت في فرائها الباهر ، وعلى شفتيها حمرة خفيفة ، موحية بسمرتهما الاخاذة • كنت اتأملها بعينين معجبتين • وكانت ترى وتبتسم في غير غرور •

ــ اين تودين أن نذهب •

ــ سنتجول قليلا •• ثم ندخل السينما •

ووجدتني مترددا • فسألتني مازحة :

ــ أم انك زاهد بالتجول معي ؟

ــ مع مليكتـــي ؟

ــ كيف وصلت كاتيا •

ــ نامت طوال الطريق تقريبا • وهذا ماعانها •

ــ نسيت ان اعطيها خيارها •

ــ سنأخذ الزجاجة معنا ليلة الاحد •

وحيتنا امرأة عابرة • وكانت تبتسم للينا راضية بارتياح •

ــ أرأيت نظرة جارتي اليك ؟

ــ لعلها تظننا في شهرنا العسلي •

ــ انك لمحق • ان ماعجبها هو اختياري لك مع فارق العمر بيننا •

ــ بل ماعجبها هو اختياري لامرأة في مثل روعتك •

ثم سألتني فجأة :

ــ الاحظت شيئا على كاتيا امس ؟

فارتبكت قليلا :

ــ لم الاحظ شيئا • كانت مرحة كالمعتاد •

ــ ألم تر التماعا في نظرتها وشرودا ؟

ــ كانت منطلقة •• فشربت اكثر مما تحتمل •

ــ لم يكن هذا بتأثير الخمرة •• بل بتأثير رجل • انها تحب • رأيت هذا في وجهها حالما سمعنا رنين الجرس • كانت قلقة مختلجة العينين • وسرعان ماانتبهت • فهي ذكية •

ــ أي جرس تعنين ؟

ــ كاتيا متيمة بك •

ـ حمدا لله انك تغارين •• وتتخيلين •

ـ انها ذائبة رغبة •

قلـت مازحـا :

ـ ليتك تذوبين مثلها • غير ان هذا غير صحيح •

ـ نحن نرى هذه الامور افضل رؤية منكم ، معشر الرجال •

ـ لينـا •• انك تظلمينها •

ـ انت لم تفهمني •• أي شر في ان تهواك ؟

ـ هـذه ظنون •

ـ أنا لااظن •• انما اعرف •

ـ يسرني كثيرا ان تغاري •• فتليني •

ـ أنا لااغار من كاتيا •• لانني ادري انك لاتحبها • ثم انني اودهـا • لا اجد أي ضرر في ان تحبك • هذا شيء ينبثق انبثاقا من اعماق نفوسنا • لا ارادة لنا في ان نحب شخصا معينا • وستلقاني محبة لها مثلما كنت قبـل حبها المفاجيء لك • لن يغير هذا شيئا من التقائنا بها • الا يبهجك أن نحبـك نحـن الاثنتيـن ؟

ـ أنا لايهمني الا حبك انت •

ـ انت تعلم انني احبك •• وهذا خطأ لم استطع اصلاحا له •

ـ اغفري لي حين اقول انك تتكلمين كطبيبة •

ـ لكن هذا مديح لي •

ـ لنفترض ان كاتيا كما تتصورين •• فكيف ترتضين صحبتها لنا ؟

ـ قلت لك انك لاتحبها • فاذا احببتها سأتركك لها •

ـ حقا انا لاافهمـك •

ـ ستفهمنـي •

ـ لكن كاتيا لاينقصها المعجبون •

ـ مع هذا •• اتظن ان احدا لم يسألني مودتي غيرك ؟ لكنني احببتك انت دون غيرك • هذا يحدث •

وانطلقت ضاحكة :

ـ الم اجتذبك بساقي في الحافلة ؟

ـ اساقاك وحدهما اغرتاني ؟

ـ مابك ؟ أنا امزح •

ـ وتعرفين أي حب يشدني اليك •

ـ اقرأت اليوم جيدا ؟

ـ انت تدرين انني أقرأ •

وكنا ننتظر كاتيا ، عند المسرح ، مساء الثلاثاء • وجاءت متبرجة ، متألقة • ورأيت عينيها تختلجان مرة • وسريعا ماأمسكت بأمر نفسها • فكانت هي كاتيا المرحة الملاطفة ، كاتيا التزلج والرقص • ورأيت جمالها ساطعا في المسرح • مع هذا فلقد كنت أتبين في عينيها غيرة خفية من لينا • في لينا شيء لاتمتلكه هي : شيء يشع اشعاعا باللذة القصوى مع امرأة في مثل جمالها الجسدي الرهيب ! وكنت اتبصرف معهما ، في كل شيء ، كما اعتادتا أن ترياني • وحمدت لكاتيا رقتها مع لينا • وكنت أحس انني اكذب • وهذا مازعجني •

لم تثر هذه المسرحية لغطا اكثر مما أثارت « عطيل » • ولقد رأى النقاد ، كما اتذكر ، في اخراج « عطيل » تفسيرا غير شكسبيري • كان لورنس اولفيه ، في تمثيله ، زنجيا بسيطا لااكثر • كان عطيل ، هنا ، مفرغا من عظمته الشكسبيرية •

وكنت عند كاتيا مساء الاربعاء • وسألتني :

ــ كيف اعتذرت للينا عن جولة الليلة ؟

ــ قلت انني مدعو عند اصدقاء في الجامعة •• وسأتأخر •

وسألتها ونحن نقرأ :

ــ الا ترين ان تعتذري عن دعوة ليلة الاحد ؟

ــ ولماذا اعتـــذر ؟

ــ سأشعر بأحراج •

ــ لكنك لم تكن محرجا في المسرح •• أي ضير في ان تزورني وتلتقي بي ؟ السنا صديقين ؟ لاتشغل ذهنك بأمر اعتيادي كهذا •

ــ اترينه اعتياديا ؟

ــ بالطـــبع •

ــ فاذا عرفت لينا ؟

ــ عندئذ سنعتذر لهـــا •

ــ لن تقبل منا عذرا •

ــ اوه •• دعني اقرأ من فضلك •

ــ لكن لينا جادة •

ــ وبعد ؟ هذا أمر يخصنا نحن الاثنين •

ــ ولينـــا ؟

ــ لكن •• مابـــك ؟ مادمنا نستطيـــع ان نلتقي في غرفـــتي •• فلماذا لانلتقي ؟

واضافت بعد تفكـــر :

ــ واحب ان اقول لك شيئا •• مادمت معي فلا اريد ان تفكر الا بـــي • حين كنت عارية بين ذراعيك ، وانت تقبل جسدي كله ، أحسست لاول مـــرة انني أحب وانك اول رجل يحبني •• لكنني اشغلك عن قراءتك • سأتي لنا بقهـــوة •

بعد ساعــة قلت :

ــ الا ترين اننا نمثل ؟

ــ نمثل ؟ أي دور ترى اننا نمثل ؟

ــ في أن نقرأ •

ضحكت كاتيــا :

ــ نحن مرغمان • لابد من ان ننتهي من هذه القراءة اللعينة • اتجدني مغرية هكذا فيصعب عليك ان تقرأ ؟

ــ معك انت ؟ بالطبع • أم تظنين ان هذا الكتاب في تاريخ أوربا الاحدث أكثر فتنة واغراء منك ؟

فضحكت ضحكة صافية • وعادت مرحة ، رائعة المزاج :

ــ بعد العاشرة سنشرب كأسا ونلهو •

ــ معي في حقيبتي زجاجة •

ــ لكنني احضرت قنينة قبل ان تجيء • أي صنف عندك ؟

ــ بلغاري ابيض •

ــ أنا جئت بنوع افضل •• نبيذ مولدافيا الاحمر الحلو قليلا •

ــ لاضرر من كأس مع القراءة •

ــ هذه فكرة ! سأحضر خمرتي فهي امتع •

ــ وهــذه ؟

وأخرجت قنينتي • قالت كاتيا :

ــ سأحتفظ بها بعيدا عن أيدينا •• في غرفة أمي •• كيلا نغرى بها بعدئذ فنتعب • هاتها من فضلك •

وخرجنا صباحا معا • وكنت مضطرب النفس مساء السبت • سألتقي بهما معا • شد ماأكره الكذب والخداع ! وهاأنا اكــذب واخدع امرأة طاهــرة

الفؤاد . ماكنت مغرما بكاتيا . مع انني اودها . وهي شابة ساحرة بطبعها المرح . كنت أحب ' نا . وهي اشعال جلدي الابدي . كنت انتظرها في السابعة ، في مدخل المترو قبالة بهو الاعمدة . فلقد رأيت أن اقضي زمنا في مكتبة الاداب الاجنبية ، مواصلا قراءتي في « حديث الاربعاء » . ومرت الدقائق دون ان تصل . مرت خمس عشرة دقيقة فأحسست بالقلق . ربما هي الحافلة متوقفة في زحمة مباغته . ومرت عشر دقائق أخر . ورحت اشغل نفسي بخارطة المترو الكبيرة المعلقة .

ـ مرحبا .

والتفت اليها معتكر النظرة . وكانت تبتسم ابتسامتها الساخرة المحبة ، هي تتأمل عيني المتجهستين . فأقبلت عليها ممتلئا حبا وفرحا . ونسيت تأخرها نصف ساعة عني . قلت مقاطعا اعتذارها لي :

ـ لينا .. لن نزور كاتيا . سأعتذر لها في التلفون .

ـ أجننت ؟ هاك عني زجاجة الخيار هذه . الم تلاحظها ؟

ـ لندخل أي مطعم . أريد ان اسهر معك وحدك .

ـ انهم ينتظروننا .. لنمض .

ـ سأقول لها انني متوعك .

ـ لايصح ان نفعل هذا . لنذهب . وانتبه لزجاجة الخيار .

كان المترو مزدحما هذه الساعة . وكان الناس مسرعين في اتجاهات متباينة . كانت المصاطب ، عن جانبي المحطة ، ملاى بالمنتظرين . والمترو يمر خافقا صافرا . والهواء يهب مكيفا ، دافئا على الوجوه . وكنت أحمل الزجاجة في كيس قماشي صغير بيدي . ولم نلق مكانا فارغا في عربة المترو . فظللنا واقفين بين غيرنا من الواقفين . وكنا نمسك بالعارضة . وعند كل محطة تندفع موجة بشرية خارجة وتدخل اخرى . فرأينا ان نتكيء على

الباب المقفل الاخر • ثم شققنا طريقا لنا لنخرج • ينبغي ان نغير الخط • كانت لينا تتقدمني ، والزحمة تدفعني نحوها دفعا • وكنت أحس بامتلائها الدافيء الباذخ • وارتقينا سلما مرمريا لنوغل في ممر طويل • ثم هبطنا سلما متحركا طويلا أخر • فدخلنا محطة ثانية • وركبنا مترو أخر • اتذكر أن احدهم كان مسرعا ليدخل ، وكان حاملا طبقة بيض ، فانفلتت من يده و تكسرت • كان الضحك عاما • فأخذ يضحك مع الضاحكين • وخرجنا من المحطة الى الليل البارد ، وعبرنا الشارع • قالت لينا :

ـ هوذا البيت • وهاهو الممر اليه •

فتحت كاتيا الباب طائرة فرحا :

ـ كدت ايأس •• اين كنتما ؟

ـ لاذنب له في تأخرنا • كنت انتظر مخابرة من أوديسا فتأخرت •

وناولت كاتيا زجاجة الخيار •

ـ شكرا لكما •• شكرا لينا •

لم أر اية اختلاجة في وجه كاتيا هذه المرة • كانت في بنطلون احمر ضيق وبلوز صوفي ابيض • وكانت لينا في ثوب أزرق داكن ، لم اره عليها من قبل • وخيل لي الا رداء يبدي مفاتنها الخطيرة خيرا من ثوبها هذا • وحول المائدة كانت كاتيا في مواجهتي • ورأيتها تتأمل لينا ، مرة ، متأججة العينين • وكانت لينا منشغلة مع أمها • وكانت لينا هادئـة تتحاشى عيني التائقتين • فرأيت وجه كاتيا يتكدر • كانت ترى عيني المشتعلتين رغبة بلينا • فأسرعت قائلا :

ـ أي فرح في وجه كاتيا ! انظري لينا • انها مسرورة بك •

ـ أقسم انك ستكتب قصيدة عن كاتيا • ولعلك كتبتها منذ كنا في الضاحية ولم تخبرني • أي شاعر لايهزه مثل هذا الجمال ؟

والتفتت ناحية كاتيا :

ـ اتعلمين ؟ انه معجب بك . بالطبع ان له عيني شاعر .

قالت أم كاتيا فجأة ، متأملة لينا باهتمام ، ملتفتة الي :

ـ انني اهنئك . ان لك صديقة ، واية صديقة !

وكانت تبتسم ابتسامة من يقول : هو هذا ، اذن ، مايعجبك في المرأة ، هذا الجمال الجسدي ! وأي جمال ! ولم تكن علاقتك بكاتيا الا رغبة عابرة .

ـ لينا .. انت لاتشربين .

قالت كاتيا هذا ملاحظة .

ـ أنا أشرب .. لكنني لاأحب ان اكثر . علي ان انهض مبكرة .

ـ اوه لينا .. غدا الاحد .

ـ تنتظرني مشاغل منزلية عديدة .

ـ مـع هذا .

أي خاطر يدور في ذهنها ؟ قلت : هي وشأنـها . أما انا فسأشرب . ودفعتني الخمرة لان العب لعبة مع لينا . فأخذت اغازل كاتيا غزلا خفيا أول الامر . ثم أبنت قليلا . فاتسعت عينا كاتيا ، وافهمتني بنظرتها ان اكف . غير انني لم اطعها . بل ازددت مكاشـفة . فأحتملت الامـر ساكته . واخذت تدخن . وفجأة راحت تضحك . وكانت لينا وأم كاتيا في انشغال عنا . لكنهما فطنتا اخيرا . وضحكتا . فرمتني كاتيا بنظرة محرقة . ورأتها لينا فأسرعت تتحدث عن كاتيا ودورها في فلمها . واصغت كاتيا اليها منصرفة عن الشرب . وبدأت الامر ركبتها بركبتي فأزاحتها عني . فأقتربت بالحاح ، أخذا ركبتها بين ركبتي . فتركتها لي حينا . ثم غطت وجهها بيديها ، وقد اشتعل حمرة . وضحكت عاليا ، منهزمة الى غرفتها . وكنا نضحك معهـا ضحكا صافيا . وعادت بعد قليل ، ولم يزل وجهها محمرا :

ـ لينا •• اعذريني مـن فضلك •

ـ ولماذا ؟ الانك تبعثين السرور في نفسي ؟

قالت أمها مازحة ، متواطئة مع لينا :

ـ كاتيا عاشقـة •

فأضافت لينا :

ـ سأخطبها لخطيبي •

فأشار هذا ضحكا عاليا •• زاده اندفاع كاتيـا خارجة مرة اخرى • فصاحتا بها معا مبتهجتين :

ـ تعالي •• تعالي • نحن نمزح •

وعادت كاتيا قائلـة :

ـ بالطبع انتما تمزحان •

كانت نظرتها غريبة الي • ولم تحاول اخفاءها • أهي نظرة شك ؟ كنت اشرب فلم أعر الامر أهمية • وكنت افكر بلينا : لم تكن لتشرب الا رشفات متباعدة • حين أن لنا ان نغـادر أصرت كاتيا أن توصلنا حتـى الشارع •• فأبينا • فودعتنا عند المصعد • وكانت شبه سكرى ، ناسية مزاحنا منذ ساعة •

كان الثلج يتساقط • وكانت لافتة المترو تتوهج حمراء عبر الشارع • كنت اريد أن اوقف تكسيا • فأصرت لينا :

ـ مهما تقل فلن نركب التكسي • دعنا نعد في المترو • انا أحب المترو ليلة الاحد • سنرى اوضاعا بشرية متنوعة •

ـ لكننا سنتأخر عن جولة الليل •

ـ فات أوان النزهة • لن تتجول بعد الحادية عشرة على أية حال •

فأتجهنا صوب المحطة • وقبالة بهو الاعمدة أصرت أن ننتظر الحافلة • ولم تقل كلمة واحدة عن كاتيا طوال الطريق • كانت صامتة صمتا غريبا لاعهد

لي به معها • وكانت تتأمل الامزجة البشرية باهتمام ، في هذه الساعة من الليل ، وما اشد تباينها حقا ! وكان يقلقها شيء في نظرتي اليها • فهي تعرف جيدا فيم افكر • والليلة هي ليلة الاحد • أي عذر ستبتكر ؟ واية مشاغل منزلية في انتظارها غدا ، تمنعها من أن تبيت الليلة معي ؟ وهي حرة ، غدا ، طوال النهار ؟

ونزلنا من الحافلة اخيرا • فأمسكت بذراعي صامتة • واجتزنا الشارع • فأرادت أن تتجه ناحية بيتها • لكنني توقفت • فتأملتني قلقة :

ـ مابك ؟ الا تريد أن توصلني حتى بيتي ؟

ـ اسمعي لينا •• انت لم تشربي هناك الا جرعات • تعالي معي • سنشرب كأسا وتتحدث • أحب أن اسهر معك الليلة •

ـ اتظن انني سأتركك تشرب بعد تلك الاقداح كلها ؟

ـ طيب • لن نشرب • سنجلس ونتحدث لاغير •

ـ في هذا الوقت المتأخر ؟ لست جادا بالطبع •

ـ تعرفين انني جاد •

كنا واقفين • فرحت افكر قليلا :

ـ طيب • سأوصلك •

فتأملتني متشككة :

ـ اترى ؟ انت لاترد لي طلبا • انت أطيب من ان ترد لي طلبا •

لن ترضخ لتوسلي بالطبع • وستتهرب من قبلاتي في الشارع • فأنحدرنا معا في الزقاق • وكانت تحدجني قلقة • وفي عينيها تساؤل وتفكير • وتوقفت عند بيتها منتزعة قفازها لتصافحني :

ـ شكرا على أنك اوصلتني • أراك غدا في السابعة •

واتجهت لتفتح الباب • والتفتت باسمة ملوحة بيدها • وكنت واقفا

مزمعا أمري على شيء • لم اقف الا قليلا • ودفعت الباب الثقيل وتبعتها • كانت ترتقي الدرجات الى الطابق الاول ، طابقها • فالتفتت الي :

ـ انسيت ان تقول شيئا ؟

قالت هذا ، متكلفة المرح تكلفا •

ـ كلا • لم انس شيئا • سأوصلك حتى بابك •

وتوقفت متفكرة في الفسحة • كان قصدي واضحا •

ـ فيم انت واقفة • سأوصلك حتى بابك واعود •

ـ أي ابتكار بديع ! لكنني وصلت •

ـ مع هذا •• اريد ان اطمئن •

واخذت تصعد متباطئة • ووقفنا عند شقتها صامتين • لم أرد ان اقول اي شيء • وأي جدوى في ان اتكلم • وكنت اتطلع ، متعمدا ، الى الجدار المواجه •

وسمعتها تقول مؤكدة :

ـ انا اعرف انك لست ثملا •

وظللت صامتا •

ـ الا تتكلـــم ؟

أخرجت علبتي لادخن • وكنت هادئا تماما •

ـ الا ترى انني مرهقة جدا ، واريد ان انام • ان مشاغل كبيرة تنتظرني غدا وعلي ان اصحو مبكرة •

اشعلت لفافتي ، ورحت ادخن •

ـ الا ترد علي ، اخيرا ؟ ماذا جرى لك ؟

فأبتعدت عن بابها متكئا على الحائط :

ـ لينا •• انت عند شقتك • افتحيها وادخلي •

ـ وانت ؟ بالطبع ستذهب .

ـ اعلمي انني سأظل واقفا هنا حتى الفجر . لن اتحرك من هنا .

ـ هل جننت ؟ فيم وقوفك ؟

ـ قلت ادخلي انت . سأظل واقفا .

ـ أجاد انت ؟

ـ انت ترين انني جاد . ادخلي انت . ماذا تنتظرين ؟

ـ كيف ادخل واتركك واقفا ؟ انت تمزح . الى اللقاء .

وفتحت الباب واغلقته وراءها . كنت استطيع ان ادخل معها . لكنني سأزعجها عندئذ . ستكون حركتي غليظة ، جافية . انا اعرف طبعها . يكفي ان اقبلها واضمها في غرفتها فتكون لي . لن اسلك معها هي غير طريق الرقة والحنان .. فما هي بالمتصنعة حتى أخذها عنوة . وأنا ادري انها لن تغمض جفنا حتى تتأكد من انني ذهبت . وهي الان عند النافذة تتطلع لتعرف .

أخرجت لفافة ثانية . ورحت ادخن . كنت اتصور وجهها الشاحب ونظرتها الزرقاء القلقة الى الزقاق . لكنها لن تفتح بابها قريبا . فهي تعرف أنني لن أبرد هنا .. فالدفاءة تحت نافذة الفسحة . سأظل منتظرا . بعد خمس دقائق سمعت بابها يفتح . فلم التفت أو اتحرك .

ـ ماذا تنتظر ؟ ادخل .

فلم أجب بكلمة .

ـ اوه .. اقول لك ادخل .

كانت عيناها ضاحكتين . فدخلت . وكان البهو مضاء . قالت :

ـ سأعد لنا شايا .

ـ لنترك الشاي الان . تعالي .. اجلسي .

ـ طيب . قلت انك ستتحدث .

ـ لم كنت تقتصدين في شرابك ؟
ـ كنت تشرب في غير اعتدال . ينبغي على احدنا ان يظل صاحيا .
ـ ألديك شيء نشربه ؟
فضحكت ضحكة خافتة :
ـ لم اكن انتظر ضيفا بعد الثانية عشرة . لكنك شربت كفايتك .
ـ لم يبق شيء في رأسي .
ـ هناك بقية من تلك الليلة . ولن تشربها كلها .. فتتعب .
ـ سنشربها معـا .
ـ بالطبع سأشرب معك . لـن اتركك تشرب وحدك .
وجاءت بزجاجة نبيذ ابيض ، شبه ممتلئة .
ـ سأتي بشيء تأكله . انت لم تأكل جيدا هناك .
ـ لكنني اكلت .
ـ مع ذلك سأتي بشيء .
ـ شكرا . لست جائعا . اجلسي .
ـ لابد من أن تأكل .
وعادت بصحن مثقل باطعمة متنوعة .. هي السلطة الروسية الشهيرة باللحم والبيض والخضر . وجعلت اصب الخمرة متمهلا .
ـ كنت احسب أنك ستيأس وتذهب .
ـ وكنت تتطلعين من النافذة .
كانت تتأملني باسمة :
ـ اتدري لو انك ظللت واقفا في الزقاق لما تركتك تتأخر هكذا . ماكنت لادعك تبرد بالطبع .
ـ كنت مخطئا قليلا اذن ؟

ــ الم تفكر بهذا ؟

ــ وانت ؟ اكنت تتخيلين انني سأرابط عند بابك ؟

ــ هذا شيء لم يخطر لي . انما خطر لي شيء أخر .

ــ وهــو ؟

ــ انك ستصر على ذهابي معك . وكنت سأعتذر بالطبع . لكنني سأدخل شقتي حزينة جدا لانصرافك غاضبا كئيبا .

ــ فلماذا هذا ؟

ــ هذا لانني احبك .. ولا أريد أن تملني بعد ليال .

ــ أمل منك انت ؟

كانت ترتشف خمرتها متفكرة :

ــ كنت قلقة كيف سأتصرف معك . لكنك نسيت خوفي عليك ان تبرد في هذه الساعة المتأخرة . لو ظللت واقفا في الزقاق لهرعت اليك . ربما لاقنعك أن تذهب . أما ان اتركك في الصقيع فلا . كنت سأمضي معك أو ادخلـك معي . اما أن تبقى منتظرا في البرد .. كلا . لكن كيف عرفت انني سأفتح

ــ لن تتركيني واقفا على أية حال .

وسألتني فجــأة :

ــ قل لي .. أبينك وبين كاتيا شيء ؟

ــ كــلا .

ــ اكنت تريد اغاظتي .. فأخذت تتقرب منها لاهيا ؟

ــ ربما .

ــ انا اعرف انك لاتحبها . لكنها تريدك . هذا أمر واضح .

ــ وأنا اريدك انت !

ــ اترى ؟ لابغية لك في الا جسدي .

ـ مهما أقل انني احبك فلن تقتنعي • طيب • لست مرغمة على البقاء معي حتى الفجر • مع انني اود هذا كثيرا • يمكنك ان تذهبي الى غرفتك في أيـة لحظـة •

ـ واتركك وحيدا مع هذه القنينة اللعينة ؟

ـ لن اشرب بعد •

ـ وهذا ابتكار أخر !

ـ ليكن • لكنني ارى النعاس يداعب عينيك الفاتنتين • أن لك ان تنامي •• لا تقلقي علي • أذهبي الى غرفتك ، واقفلي بابك بالمفتاح • لاتنسي ان تقفليه • أما انا فأحب ان اسهر •

واشعلت لفافة :

ـ اسمعي نصيحتي واذهبي • وانت تعلمين أنني لن ادق بابك أو أناديك • لو كنت وحدك لفعلت • لكن امك نائمة ، ولا أريد ازعاجها بشيء •

ـ حيلة أخرى !

ـ اتسمين نصيحتي حيلة ؟

ـ الاتكف عن تحايلك هذا ؟ لماذا تريد اغاظتي ؟

ـ لن أرد عليك بكلمة • قولي مايحلو لك أن تقولي • لكنني أذكرك أن من الخير لك أن تنامي وتقفلي عليك •

كنت أتامل وجهها معجبا بانفعالاته المتقلبة • وكنت أبتسم لها ، راغبا أن اقبلها • لكنني لم أحاول ان امس حتى يدها • وهي ترى انني اتعمد هذا معها تعمدا •• بالرغم من تحرقي اليها •

ـ وبعد ؟ أنا نعسى واريد ان انام • سأترك لك غرفتي •

ـ وأين ستنامين ؟

ـ في غرفة أمي • هناك سرير سفري •

ـ قلت لك اذهبي ونامي •

ـ وأنـت ؟

ـ سأبقى هرا حتى الفجر •

ـ واية متعة في ان تسهر وحدك ؟

ـ سيظل طيفك ماثلا امامي •

ـ وعنيد ايضا ! طيب • سأكون عنيدة مثلك • وسأسهر حتى الفجر •

ـ لن تستطيعي •

ـ سترى • اسكب لي خمرة من فضلك •

كنا نشرب صامتين • ونهضت اتصفح مجلة فوق التلفزيون •

ـ ماذا دهاك ؟ اتقرأ وانا اشرب معك •

وعدت لاقول :

ـ ستزيدك الخمرة نعاسا •

ـ أنا نعسى بدونها •

ـ قلت انك ستسهرين •

فأخذت تضحك بالرغم منها :

ـ نسيت انني قلت هذا • انت انسيتني •

ورأيت من العبث ان اعاندها • قلت •

ـ طيب • سأنام في غرفتك • سأشم عطرك في وسادك في الاقل • وسأنعم بدفء فراشك الوثير • تصبحين على خير •

تركتها متحيرة ، واقفة في البهو • ودخلت غرفتها • ألقيت عني ثيابي ، والتففت باغطيتها • وسمعت نقرة خفيفة • وفتح الباب • ورأيتها تدخل في ضوء الغرفة البحري الحالم • واقتربت مني فلم اتحرك •

ـ كن لطيفا واستدر • اريد ان اغير ثيابي •

فأطعتها • كنت ادري انها ترقبني ، فلم التفت •• بالرغم من انني كنت متشوقا لان اتفرج • واحسست ، بعدئذ ، بشعرها العبق متهدلا فوق وجهي • فأستدرت • كانت تنحني علي لتقبلني • فلثمت جبينها • كانت في ثوب حريري سماوي طويل ، عارية الذراعين ، منكشفة الصدر قليلا • وخرجت لترد بابها من ورائها في هدوء تام • غير انها رجعت ثانية لتقول :

ــ ارجو المعذرة • نسيت ان اخذ غطاء لي •

واخرجت من الخزانة بطانيتين ملتفتين • وانصرفت متأودة • وسمعت صوت أمها • كانت تصيح متذمرة :

ــ فيم هذا التدلل كله ؟ انك تزعجينني • اذهبي من هنا •

وفتح بابي قليلا • كانت امها تهتف بي :

ــ اقفل الباب في وجهها • لاتدعها تدخل •

وتطلعت فاتحا بابها قليلا ، فرأيت لينا حائرة باغطيتها فأخذت أضحك • واقفلت كما أمرت • وعدت اتمدد في فراشها • لاملجأ لها غير أن تتوسل بي • لن تجد في البهو غير الكراسي • فهل ستنام فوق كرسي ؟ وكنت اضحك متكتما • ومر وقت • وسمعت نقرا خفيفا • فلم اتحرك • ومر وقت آخر • وسمعت نقرا أخر ، مثابرا خافتا • فنهضت • قلت هامسا :

ــ من الطارق ؟

ــ لاتكن عنيدا • افتح الباب •

ــ ألم تجدي متسعا في البهو ؟

فردت علي بهمس يشتعل غضبا :

ــ قلت افتح الباب • افتحه اخيرا •

ــ اصبري قليلا • دعيني ارتد بنطلوني في الاقل •

وارتديت بنطلوني وفتحت • وتركتها تمر • واقفلت الباب في هدوء •

كانت هيئتها منقلبة تماما • طارت فلسفتها وخططها • ورمت اغطيتها بغضب واقتعدت حافة السرير • فأتجهت الى الناحية الثانية • ونزعت بنطلوني وأنا في فراشها • كان شعرها الاشقر الكثيف متهدلا • قلت :

ـ خير لك أن تدخلي الدير •

فأسرعت ترد بالتفاتة حردة :

ـ قل هذا لكاتيا • ماأنا بأوفيليا •

كنت اضحك بالرغم مني •

ـ ستثور أمي ثانية • لاتضحك •

كانت تتأجج غضبا • فلم أقل شيئا • ولم اقم بأية حركة • كنت هادئا ، مطمئنا • وسمعتها تقول بعد تفكير طويل ، مغيرة نبرتها الغضبى :

ـ بالطبع ستدعني انام في هدوء •

ـ وهل قلت أنا شيئا أخر •

والتقطت اغطيتها لتفتحها •

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ كما ترى •

ـ فيم حاجتك لاغطية اخرى ؟

ـ سألتف بها لانام •

ـ لن يتسع السرير لهذه الاغطية كلها •

ـ سيتسع لو سمحت فأبتعدت قليلا •

ـ وأين ابتعد ؟ اتريدين ان اسقط على الارض ؟

ـ لكنه يتسع لنا لو تنصفني ، وتبتعد قليلا •

ـ قلت لك سأسقط • اعيدي اغطيتك الى مكانها • انت ترين جيدا ان السرير سيضيق بهذه الاغطية كلها • ماكان علي ان افتح لك •

ـ لكننا سنتدبر الامـر •

ـ لافائدة من النقاش معك • ابعدي اغطيتك • أريد ان انام •

فأعادت الاغطية الى الخزانة • وجلست على حافة السرير • وتركتهـا لشأنها • تركتها وأنا اكاد أضحك • فألتفتت الي بابتسامة منهزمة :

ـ انت عاقل •• لن تزعجني بشيء •

وتسللت تحت الاغطية في حذر • وتمددت متعمدة الا تلامسني • كنا تحت غطاء واحد • وكانت حارة وجميلة جدا • وهي تعلم انها الليلة لي • منذ ازعجت امها وطردتها وهي تعلم انها لي • فأقتربت منها • ورحت الامس وجهها بشفتي • كنت ألامسها واقبلها في هدوء وتعبد • فألقت عنها ثوبها بعيدا • أية لدونة فائقة لاانتهاء لها • تلك الليلة كنت معها في أهنا لذة على الارض ••

صحوت في العـاشرة • ولم تكـن لينا معي • كـان دفئها لما يزل في الفراش • وكنت اشم شذاها فيه • وكنت افكر بها • أية نعومة ! وغفوت • وحين استيقظت كانت لينا تتأمل نفسها في المرآة • فدعوتها الي • كانت في ثوبها السماوي • وكان ذراعها الممتلئان الجميلان عاريين • وجاءت لتجلس على حافة السرير • فأمسكت بذراعها وقربتها مني • كانت تعرف ماذا ابغي • فأبتسمت لي • ورفعت الغطاء لتتمدد بامتلائها الرائع • واخذت تتجرد • كان الفراش ممتلئا ، مترعا بفيضها الجسدي اللؤلؤي الناعم الدافيء • وسبحت بين ذراعيها ساعة • ثم قلت :

ـ لينا •• لابد من أن اتزوجك •

ـ أنا زوجتك •

ـ أريد ان اقترن بك •

ـ لكنني زوجتك •• ارتد ثيابك وتعال لنفطر •

ـ ساتبعـك •

لكنني نمت • نمت نوما هادئا عميقا • حين صحوت ثانية •• رأيت لينا على حافة السرير ، في ثوبها المنزلي الاحمر الداكن •

ـ اتدري ماذا لاحظت عليك ؟

ـ ماذا ؟

ـ بعد •• هذا •• تبدو أصغر من عمرك ، تبدو صبيا تماما • كنت أقبلك وأنت نائم • لكنني نسيت أن اخبرك • كاتيا تلفنت لي •

ـ كاتيا ايضا •

ـ ستنتظرنا في السابعة عند مترو ماركس •

ـ كان عليك ان تعتذري •

ـ كلا • ستكون لطيفا معها •

جاءت كاتيا متأخرة قليلا • كانت متبرجة كما رأيناها لاول مرة في المقهى • ولم تكن مرحة هذه المرة • قلت :

ـ أين ترغبان ان نمضي •

قالت كاتيا :

ـ لافرق عندي •

فأقترحت لينا :

ـ لنمض الى المقهى • انما انتظرا قليلا • سأتلفن •

فتحت الكشك ، واغلقته بعدها • واعطتنا ظهرها متعمدة كما لاح لي •

فأسرعت كاتيا تهمس لي :

ـ لدي تمرين غدا • وسأتأخر • تعال في العاشرة •

قلت متسائلا :

ـ صباحا ؟

فأشتعلت عيناها بنظرة مستنكرة • ولم تقل شيئا • واشاحت بوجهها عني متكلفة الكبرياء • قلت موضحا :

ـ قلت انك ستتأخرين • فحسبت انك تريدين ان اراك صباحا •

اراحها تفسيري قليلا ، فلان وجهها :

ـ كنت اعني العاشرة مساء •

ـ سأجيء •

كان لابد من ان اقول هذا •• تجنبا لاي تبدل في نظرتها الي • وكنت اعلم انني ساعتذر في التلفون • وعبرنا النفق • كنا نقصد مقهى « موسكو » أو « الفضاء » • وكان الصف عندهما طويلا • فأقترحت ان نجرب في الرصيف الاخر من شارع غوركي • فدخلنا مقهى لم اعد اتذكر تسميته • ولعل لافتته لم تحمل غير مفردة : مقهى •

جاءت النادلة بكونياك وشكولاته وقهوة • وكانت لينا تتحدث • وكنت اتأملها صامتا • ورأيت كاتيا تحدجني بنظرات قلقة • كان الشراب قويا ، حادا • وكنا نرتشفه ارتشافا • واردنا أن نوصل كاتيا حتى المترو • قالت :

ـ شكرا • لاأريد ان تتأخرا •

ـ لكننا سنركب الحافلة من هناك •

وافترقنا عند المترو • كانت نظرتها تقول لي في جلاء : سأنتظر • واسرعت تدخل المحطة • ورأيت لينا تبتسم ابتسامة ذات معنى • قلت :

ـ اسمعي لينا • هل تلبين لي طلبا صغيرا ؟

ـ أي طلب لديك ؟

ـ أرى من الخير لنا ، نحن الثلاثة ، الاتتصلي بكاتيا •

ـ بالطبع لن اتصل بها قبل ان تتلفن لي • لم تعد كاتيا تريدنا معا • هذا واضح • انها تريدك وحدك • وستتصل بك •اؤكد لك •

ـ سأعتذر •

ـ كلا • ليس هكذا •

قلت مازحا :

ـ اتريدين ان التقي بها ؟

ـ لاتمزح • دعنا نفكر •

ـ وهل يتطلب الامر تفكيرا ؟

القت علي نظرة طويلة مستنكرة :

ـ اهكـذا ؟

واضافت بعد تأمل :

ـ على أية حال انت حر في أن تراها • انما عليك ان تخبرني •

ـ ولماذا أراها ؟

حين هبطنا من الحافلة قلت :

ـ مازال المخزن مفتوحا • لنعرج عليه •

ـ ماذا تريد من المخزن ؟

ـ سأتزود بشيء •

وابتعت أناناسا وموزا وقنينة فودكا • وسألتني :

ـ هذا كثير • الديك ضيوف •

ـ هذا لوالدتك • ازعجناها البارحة كثيرا •

ـ انا أزعجتها • انت لم تزعجها بشيء •

ـ كنت أنا السبب •

ـ لو كنت حذرة لما افاقت • لكنك ستغضبها بهذه الكمية الكبيرة من الفاكهة • ستثور عليك • سترى • ستؤنبك •

وجرى الامر مثلما توقعت • حالما رأتني أمها داخلا بحمولتي انقلبت ساخطة علي مؤنبة •• صائحة :

ـ اتنفق مالك على هذه المتدللة المتفلسفة ؟ اتترك امرأة تضحك منك ؟ أين عقلك ؟ ومثقف ايضا !

كانت لينا مستغرقة في الضحك . لقد وجدتها فرصة لتثأر مني .. جاء دورها لتضحك كما ضحكت منها البارحة .. حين وقفت متحيرة بأغطيتها . وسريعا ماالتفتت أمها اليها . كان سخطها على لينا أشد واعنف . وكنت اخشى ان اضحك فتنقلب ثانية علي . فأخذت الفاكهة ودخلت المطبخ . كنت اسمعها معنفة :

ـ كيف تسمحين له ، وهو طالب ، بأنفاق ماله عليك ؟ ألم تخجلي من نفسك ؟ أين كان ضميرك ؟ أين كان ؟

ـ لكنني اعترضت ولم يقبل .. أسأليه .

ـ اسألي نفسك اولا .

مع هذا كانت لينا تبتسم . كانت فرحة بانقلاب أمها علي . وعدت لاهمس لها بأن نخرج حتى تهدأ امها . قالت :

ـ كيف نخرج ؟ بلا عشاء ؟ سنتعشى أولا .

فألتفتت أمها ناحيتي :

ـ انزع معطفك واجلس . بدلا من ان يقرأ .. يتجول .

ـ كان يقرأ طوال النهار .

ـ اسكتي انت . منذ اول يوم معه وانت لاتريدين ان يتركك لحظة .

ومضت الى المطبخ . فأسرت لينا الي :

ـ حاول أن تقنعها بقدح فودكا . ستقبل بعد الحاح منك . انها تودك . لن اتأخر عنك طويلا . سأساعدها في تهيئة العشاء .

كانت مكتبتها في البهو . فتناولت مجلدا لجيخوف ، ورحت اقرأ . اجل ! « فولوديا » و « الساحرة » .. وتذكرت مجموعة مترجمة من هذه القصص قرأتها صيفا في قريتنا ، وكنت في الرابعة عشرة من العمر . لاطعم اكثر امتاعا مع الفودكا من الرنجة ! هذه السمكة الصغيرة البيضاء المملحة .

كنت اقطعها بالسكين قطعا صغيرة . وكانت أم لينا تلح علي ان أكل مزيدا . فلقد أرضاها ان تجدني مستغرقا في القراءة . وسألتـها إن تشرب قدحـا صغيرا أخـر .

ـ لكنني سأنعس بعد قدحك هذا .

واضافت باسمـة :

ـ أم انتما راغبان في ان يخلو لكما الجو سريعا ؟ انا لاأحب السهـر عادة . نادرا جدا ماأتأخر حتى العاشرة .

ـ أنا اريد ان تبقي معنا .

ـ لابأس . سأشرب بعد حين .

بعد العاشرة كنت ولينا في جولتنا الليلية منعطفين حيال مبنى البريد . وكان الهواء باردا نقيا ، منعشا بعد الفودكا ، فلم أحس بلذعة البرد . ودرنا حول شارع دوبرولوبوف حتى المطعم مرتين . ومن هنا قطعنا الساحة الصغيرة بأتجاه البريد ، قاصدين منزل لينا .

وفي فراشها كانت مستلقية مشبوبة الخدين . وكنت أمسح بشفتي ندى عرق عن وجهها ، ويدي لاهية بثدييها الممتلئين .

ـ كنت خائفة من انك ستملني بعد أول ليلة .

فانحدرت بشفتي ويدي لاثما كل موضع من جسدها .

ـ اتعلمين أنني احس بروحك تحت شفتي وأنا اقبلك .

ـ لانني أحبك .

وتضيف ممسكة بيدي :

ـ قل لي .. لن ازعجك حين انهض مبكرا ؟

ـ ابدا . أنا أحب ان اصحو قبلك لارى وجهك وألثمه وانت نائمة . أي نعيم ! اية بهجة ان ارى وجهك أول ماأرى كلما فتحت عيني صباحا !

ورددت علينا الغطاء سائلا :

ـ الم تقتنعي ، بعد ، بفكرة زواجنا ؟

فأجابت ضاحكة :

ـ ستملني زوجة بعد شهر .

ـ ألم ترى أنني أحبك ؟

ـ انا لك في أي وقت تشاء . أنا زوجتك .. ألست زوجتك ؟ أتريد حبا أكثر من حبي لك ؟ فعلا ألست زوجة لك ؟ معا ، هناك ، في سريرك ، أحس أنني خليلة لك . انما هنا ، في فراشي ، فأنا زوجتك . هنا أحس انك تحبني وأنا عارية معك . انا لم أحب احدا حبي لك . أية سعادة ! انك اصغر مني بعشر سنين .. ولانه أخر حب لي . لاأظن ان احدا غيرك يقبل امرأة مثل هذه القبلات . فعلا .. أنا اشعر انك تقبل روحي وانت تقبل ساقي وكتفي وشفتي . وأظن انك لم تقبل امرأة غيري مثل هذه القبل . سأكون لك عارية في فراشنا هذا كل ليلة . لكن لا .. ستمل مني سريعا هكذا . بلى . ستملني . ستبيت معي كل ليلة احد . هذا أفضل .. أو مرتين كل اسبوع . لكن ماذا تريد ؟ انت تقبلني ثانية هنا . انك تقبل روحي هنا . انت تقبل جسدي كله هنا . اوه .. اتريد ايضا ؟ انا مرهقة .. وانت تريد . انت تحبني . أنا لك . أنا جاريتك . انا عبدتك . دعني اقبل قدميك .

كان اصطراعا وعناقا معا . كان وجهها على قدمي . كانت تلثمهما مرتجة شبه باكية . أي انين ! وأية أهات ! وصباحا حين خرجنا الى الشارع لم تقل لينا كلمة عن كاتيا .. تاركة الامر كله لي . وكان واضحا لي كيف سأفرغ منه .

مررت على المنزل لاتي بحقيبة الكتب . وكانت لينا تنتظرني عند زليوني دوم . وعدت اليها لنركب الحافلة . كان الوقت مبكرا . فأوصلتها حتى المترو .

ستعود كاتيا الى بيتها حوالي العاشرة من الليل . فاتصلت في التاسعة . كانت امها ترد علي . قلت . اننا سننتظرها غدا عند المسرح . وصعدت لاواصل قراءتي حتى العاشرة .

كانت اشجار الغبيراء مثقلة بالثلوج ، والزقاق خاليا . وكانت لينا أتية متثاقلة الخطى . قالت متأملة وجهي ، باسمة :

ـ مرحبا .

فأسرعت الثم وجنتيها .

ـ أتدري من تلفن لي قبل خمس دقائق ؟

ـ كاتيا .

ـ حزرت . كنت اتوقع ان تتصل بك اولا . كانت تعتذر عن لقائنا غدا . قالت انها منشغلة بالتمرين . وستتصل في الاسبوع القادم .

ـ مارأيك ان ندعو والدتك الى المسرح غدا ؟

ـ سيسرها هذا . اتشعر ببرد ؟

ـ كلا . لنتجول .

واخذنا نتمشى حوالي نصف ساعة . وكنت الف ظهرها بذراعي :

ـ لنمض اليك .

ـ غدا سأروقك اكثر .

ـ أأترك هذا الثراء كله وانام وحيدا .

ـ لكنك ستملني سريعا هكذا .

ـ مع غيرك ربما .. انما معك انت ؟ منذ سنين وانا احلم بك .

وتوقفت لي محدقة بعيني :

ـ وبالنبرة نفسها ! اكنت جادا ، اذن ، تلك المرة ؟ انني اكتشف نفسي في عينيك وبين يديك . لم أر نفسي ، من قبل ، مثل هذه الرؤية . أنا اعلم

ان لي جسدا وساقين • غير انني اشعر انني جميلة حين تنظر الي • واحس أننا خلقنا لبعضنا أنا وانت • أنا لم اخلق الا لاكون لك • وهذا ماأحسست به حين رأيتك لاول مرة •• فأردت أن اجتذبك الي • كنت جادا ، اذن ، حين قلت لي هذا بعد الحافلة •• بعد ان تركت تلك الفتاة الضاحكة وتبعتني •

ــ ماذا قلت ألذاك ؟

ــ قلت انك تحلم بي منذ سنين •

ــ اكنت تشكين ؟

ــ لم اكن متيقنة • لم يكن الامر واضحا مثل هذا الوضوح • الـم تهجر كاتيا من اجلي ؟ لكن هذا غرور مني • انا امزح • لاترمني بالغرور من فضلك • لكنني أحسست برنة الاسى في صوتها منذ حين • احسست بهـا متألمة أسية • يشق عليها بالطبع أن تستخف بجمالها من أجل امرأة اكبر منها •

ــ ربما هو ميل عابـر •

ــ لكنها تحبـك •

ــ طيب • لنفترض هذا • ماذنبنا نحن • ستنسى بعد يوم أو يومين • ستنقل فؤادها ماشاء لها من الهوى •

ــ بالطبع ستنسى • لكنها ستتألم فترة •

ــ مااكثر اصدقاءها !

ــ لن ينسيها هذا سريعا •

ــ ليا •• لنمض اليك •

ــ اسمع ، أمي نائمة • ولا تريد أن يزعجها احد حين تنام • اتـذكر غضبتها تلك الليلة في وجهي ؟ سندخل في أتم هدوء •

ــ لاتخشي من ناحيتي شيئا • ربما جاء الخطر من ناحيتك •

ــ ستطردنا كلينـا •

ـ وسنقضي الليلة في غرفتي •

ـ ماحاجتنا لغرفتك ولـدي شقة ؟

وكدت اضحك ونحن تتسلل كلصين • فأشارت باصبعها على فمها منذرة • ودخلنا البهو وكان مضاء • واقترحت لينا :

ـ مارأيك بقدح فودكا صغير بعد صقيع الشارع ؟

ـ رأيي انك اسمى مقاما من ملكة بريطانيا •

ـ أمازالت في العالم ملكات متوجات ؟ كنت أحسب انهن انقرضن منذ زمن بعيد •

ـ ومارتضي وصيفة لك غير سميتك هيلين •

ـ اضف اليها اسبازيا صديقة الفلاسفة من فضلك •

قالت هذا منحنية على المنضدة الصغيرة واضعة كأسين • وكنت أتملى انحناءتها الباذخة متأججا • وكانت كتفاها الرحبتان تخفقان مرتعشتين ترفا ولدونة • فالتقطت لينا نظراتي باسمة • وجاءت ببقية الفودكا :

ـ ستكون عاقلا وتكتفي بكأس •

ـ سأكتفي بالتعبد في حضرتك •

ـ اتتعبد جارية بين يديك ؟

ـ انت كاترينا الاولى والثانية •

وضحكت لينا ضحكا متكتما ، خافتا :

ـ اتدري أن اخر عشيق لكاترينا الثانية كان في عمر حفيدها ؟

ـ أتدرين انني سأجن •• ان لم تنزعي الجورب وتدعيني اقبل ساقك في هذه اللحظة ؟ اتضحكين وانا اكاد أجن ؟

ـ بل انت جننت فعلا •

ـ أساقك وحدها ؟ سأقبل قدميك •

ـ لكننا كنا في غير هذه الحال .. أنذاك .

ـ لافرق . هنا أو في سريرك . سأقبلهما .

ـ أي عناد ! قلت لا . لاتلمسني . انت تدغدغني . سأضحك . اوه لا .. ليس هنا . قلت لا . اجلس .. دعني أغير ثيابي في الاقل .

وتأخرت لينا . كان بابها منفتحا قليلا فدخلت . كانت واقفة في ثوب حريري طويل ، عارية الذراعين .. تسرح شعرها ، وتبتسم لي في المرأة . فأحطت ظهرها بيدي . ورحت الثم شعرها وارفعه لاقبل جيدها وكتفيها . وأخذت بيدها لتنطرح . وكشفت باطراف اصابعي المبتهلة عن ساقيها الطويلتين البضتين الممتلئتين . وانحنيت ألثم ساقيها وقدميها . وعدنا الى البهو .

كنت مفتتنا باتساقها الجسدي ، وقد ران علي وجهها طيف حزن . وارتشفت من كأسها ، وهمست في شرود .

ـ لماذا لم التق بك قبل عشر سنين ؟

واضافت باسمة :

ـ ماكنت لتحبني وأنا فتاة .

ومررت عليها مساء الثلاثاء لاصحبهما الى المسرح . وأبصرت في الاستراحة باستاذتي فيشنيفسكايا . فأبتسمت ابتسامة الرضا وهي ترى لينا معي . واقتربنا منها نحييها . وتركتنا لينا لتقف في الصف عند البوفيت . كانت ظمآى . فقالت استاذتي باسمة :

ـ أراك أخذا بنصيحتي .

وتذكرت فابتسمت . ودعوتها لتشرب شيئا . فشكرتني قائلة :

ـ ستحدثني عن رأيك في العرض فيما بعد .

وتبعت لينا ، فسألتني هامسة :

ـ عن أية نصيحة كنتما تتكلمان .

ــ سأخبركَ عندما نجلس •

مرة ، في الكورس ، كنا نطرح افكارنا عن الجمال الانثوي •• وكانت استاذتنا تقول : مع المرأة الممتلئة الصدر يحس الرجل بلذة اكثر •

واخبرت لينــا • فضحكت :

ــ لو لم يكن صدرها ممتلئا لما تحدثت هكذا •

في الامسية التالية ، وكنت عائدا من المعهد ، وجدت خبرا من كاتيا : ستتصل ثانية بي في السابعة • ورجوت المناوبة ان تخبرها انني لم اعد بعد • غير انها طلبتني بعد يوم • وكنت هابطا لانتظر لينا في العاشرة كما اعتدنا • كانت المناوبة تهتف بي :

ــ كنت أهم بارسال احدهم اليك •• هذه المخابرة لك •

كانت كاتيــا :

ــ اردت ان اعتذر لك عــن تخلفي مساء الثــلاثاء • انت تعــلم انها التمارين • اخبرتك لينا بالطبع • لكنني أحب ان اعرف شيئا واحدا • قلت لي انك ستجيء •• فأي أمر اقعدك ؟

ــ كنت أظن انني ساجد عذرا تقتنع لينا به • فلم اجد   ألم تقل والدتك انني اتصلت ؟ هذا يعني انني لم اجد عذرا •

ــ لم تجد عذرا ؟ كيف ؟ أأنت ملزم بالتنزه معها كل ليلة ؟ حرا في تحركك ؟ هل افهم من هذا انك لم تعد تريد رؤيتي ؟

ــ انت تعلمين اننا نحبك انا ولينا •

ــ أنا اسألك انت • اتريد رؤيتي ؟

ــ بالطبــع أريد •

ــ تعال ، اذن ، الان •

ــ لكنني لااستطيع • لينا تنتظرني •

ـ انت تحيرني • ترد ولا تستطيع ! لكنك ستجيء غدا ؟

ـ وماذا اقـول للينا ؟

ـ اتسألني أنا ؟ قل أي شيء •

ـ سأحـاول •

ـ كلا • سأنتظـر •

ـ أليس من الافضل ان اتلفن لك اولا ؟

ـ أيهمك ان أظل اترقب التلفون متى يرن ؟ ايهمك هـذا كثيرا ؟ أي شيء فعلت لك لتعذبني ؟ لو انني اعلم انك لم تكن صادقا معي ، لو انني اجهل حقيقة نفسك الطيبة لما اتصلت بك • قل لي أخيرا اتجيء غدا أم لا ؟ الا تريد ان تتكلم ؟ كنت لطيفا جدا معي •• فماذا جرى لك ؟ في هـذا التبدل الطاريء المفاجيء ؟ انا لاافهمك • قل انك لاتريد ان تجيء حتى افهم • قل انك لا تريد • اكنت تظنني واحدة من العابثات الطائشات ؟

ـ كاتيا •• اتحسبين أنني رديء لافكر هكذا ؟

ـ لو كنت احسب انك رديء لما وهبتك قبلة • ألم تترفق بي وأنا غائبة عن الوعي في فراش واحد معك ؟ وهل سأتصل بك لو انك غير ماأعلم ؟ مايحيرني هو انك اكثر رقة وطيبة من ان تتخلى عني بعد هذا كله • أم انك سئمت ؟ اسمع • لن اقول شيئا أخر • سأنتظرك غدا •

ـ كـاتيا ••

ـ الى اللقـاء •

واغلقت تلفونها • فأسرعت للقاء لينا • كانت واقفة في الزاوية •

ـ لينا •• أنا أسـف •

ـ مابك ؟ انت قلـق •

ـ أسف انني تأخرت •

ـ لابأس • هذا يحدث • انما اريد أن اقول لك شيئا • أناأحب ان اجدك في انتظاري كل مرة اتجه فيها لالتقيك • أحب ان اراك من هناك حين أنعطف من ناحية البريد • اتفعل هذا من اجلي ؟

ـ بل ستجدينني واقفا عند بابك • هناك سأنتظر •

ـ كلا • لااريد هذا • لاشاعرية في ان تنتظر هناك • احب ان تنتظرني هنا • أريد ان افكر بك وأنا في طريقي اليك • أريد ان اتعب قدمي قليلا من اجلك • اننا نجد متعة وجمالا في توجهنا لمن نحب • سأخص نفسي بهـذه المتعة من دونك • اتسمح بها لي ؟ بالطبع ستسمح • متـى رددت طلبا لي ؟ لكنك قلق • مابك ؟

ـ كنت اتحدث مع كاتيا قبل لحظات •

ـ ألم أقل لك انها ستتصل بك ؟

ـ كاتيا تريد أن اراها •

ـ لاتقل أي شيء لي •

ـ كلا • ينبغي ان تعرفي كل شيء •

ـ مابك ؟ لاأريد ان اعرف شيئا الان • ستراها وتخبرني •

ـ لن التقي بهـا •

ـ لايجوز ان تتركها تنتظـر •

ـ لينا •• فيم تفكرين ؟ اتظنين انني سألقاها وهي تريد أن تـراني منفردا ؟ حاولت أن أفهمها انني احبك • وتحدثت معها حديثا لطيفا • فلـم تفهم • لم ترد أن تفهم • من الخير الا اتصل بها •

ـ ستتألـم •

ـ وانت •• الن تتألمي حين التقي بأخرى ؟

ـ أنا اكبر منها ، واعرف انك لاتحبها •

ـ اسمعي • لااريد أن تتحدث عنها • لن اترك لها خبرا • هكذا افضل •• وأظن انها ستفهم • بالطبع ستفهم •

ـ طيب • ماذا كنت تقرأ ؟

ـ في « الفردوس المفقود » •

ـ أنا لم اقرأ هذه الملحمة • اهي ممتعة ؟

ـ انه لشعر عظيم • غير انني ارى أن شعرنا العربي القديم أعظم قوة •• سأحاول ان انقل لك ابياتا منه • واحسب انك ستحبينه •

ـ لكنك ستنقل لي ابياتا مختارة • انما لابأس • أريد ان اطلع على شي منه • قل لي من فضلك •• اهناك نماذج منه مترجمة الى الروسية ؟

ـ اجل • غير انها ترجمة لاروح فيها •• هذا مايلوح لي •

ـ لابد من انه شعر صعب •

ـ كان غوته من اكثر الشعراء اعجابا به •

ـ وبوشكين ايضا • أ •• نسيت ان اخبرك • صديقتي تلك صاحبة النصيحة ، تود ان نزورها غدا أو السبت • مارأيك ان نمر عليها غدا ؟

وتوقفت لينا متحيرة ، متسائلة : كنت اضحك ضحكا غير متوقع •

ـ مابـك ؟

ـ اسمعي •• هذه المـرة سأصاب انا بحب صديقتـك • سأحبها • سترين • فاذا عرفتك بصديق لي ستقعين في حبائله • من الخير الا نلتقي بأحد •

ـ أنا اريد ان اهيء لك جوا لطيفا •

ـ لا اريد الا ان اكون معك وحدك •

ـ كيف ؟ انعيش منعزلين ؟ لابد من صداقة الاخرين • كيف نرفض مصاحبة الناس ؟ كنت احدثها عنك فأحبت ان تتعرف بك • وهي مغـرمة بالشعـر •

ـ لتكن اخماتوفا نفسها • لن اذهب • غدا سنشاهد فلما بولونيا في « أريول » •

ـ « رماد وماس » ؟ يقال أن فيه جديداً • طيب • سنـدخل السينما غدا ، ونزورها ليلة الاحد • انت طيب •• لن ترد لي طلبا •

ـ لست طيبا • أنا رجل مريض • رجل حقود أنا •

ـ وتعيش في قبو ؟ كلا • سنزورها •

ـ مهما تقولي فلن اذهب • واغفري لي •

ـ اتتحدث جادا ؟

ـ أليس لها بعل أو صـديق ؟

ـ بالطبع لديها اصدقاء •

ـ لن اذهب •

ـ وبماذا سأعتذر لها ؟

ـ لن يعوزك عذر • أنت فيلسوفة •

ـ قل مثل أمي : انت متفلسفة • لن اغضب •

ـ سنقضي أمسية السبت في أي مطعم تريدين •

ـ قلت لك أنا لا أحب المطاعم •

ـ سنسهر عندي اذن •

ـ كلا • في شقتنـا •

ـ أخشى ان تضيق والدتك ذرعا بنا •• بعد هذا كله •

ـ لكنني زوجتك • انسيت ؟ ومع هذا فأمي تريدك عندنا كل يوم • وهذا ما يسرها كثيرا • اتدري ؟ انها تصفني بالعاقلة لاول مرة • لانـني أحببتك • أمي طيبة وتحبك • انها تتحدث عنك باحترام •

كنا نلتقي في العاشرة من كل ليلة ، وفي السابعة مساء كل سبت • احيانا

كنا ندخل السينما ، ونعود متأخرين في الثانية عشرة من الليل تقريبا . وكانت الثلوج تذوب . والخضرة بادية والبراعم تتفتح . وكانت السماء تتلبد بالغيوم ، والامطار تنهمر وابلا فنلزم الشقة . وسريعا مامر الربيع ممطرا باردا .

واقبل الصيف . كانت امها في بيتها الخشبي الصغير في الضاحية . وكنا نزورها لنبيت هناك . وكانت الخضرة الندية متفجرة في كل مكان . وكنت الح على لينا أن تتمتع باجازتها جنوبا . كنت اراها مرهقة شاحبة . فأصررت أن تقضي عطلتها حيث البحر والشمس والهواء الجنوبي الرائق . وكانت تعترض مازحة : انت تريد ان تتخلص مني .

وسافرت لينا . فأحسست بالفراغ القاحل ، بعدها ، منذ اول ليلة .. وكانت غائمة ممطرة . وكنت وحيدا . كنت أقرأ ، طويلا ، في منزواي من مقهى الشباب أو في مكتبة الاداب الاجنبية . والعشايا لاطعم لها غير طعم الحساء البارد ، حساء الفاكهة النحيل . وشراب كل أمسية هو هذا القدح الكبير من الكفاس . هل مر اسبوع أم عشرة أيام ؟ لااتذكر . وذات صباح ، في الحادية عشرة ، كنت في المعهد . كان علي ان انجز اوراقي لارحل جنوبا خلال يومين . ورأيت الاستاذة الشابة هناك . كنت واقفا في الممر أنتظر الموظفة . فابتدرتني الاستاذة بتحية مندفعة ، وبابتسامة مرحبة . وكانت متهيئة لان تخرج . فسألتها ان ارافقها ، قليلا ، في الطريق .

الوكنـــات

سألتها ان ارافقهـا قليلا •

ـ ألم تسافر بعــد ؟

ـ كلا • وانت ؟

ـ لم يزل زوجي في هلسنكي •• سيعود بعد أسبوع •

وعرفت أنني لــن اسافر • كانــت نضرة عبقة في ردائهـا الصيفـي الخفيف • كنا على رصيف غوركي نمشي في غير عجل • ودعوتها لان تقضي ساعة في المقهى وكنا حيالـه •

ـ لابأس • مع ان الوقت مبكر •

وأردت ان أوصي على شمبانيا • وسألتها :

ـ أم يعجبـك شيء أخــر ؟

ـ أنا لا افضل شرابا على الشمبانيا •

ـ وفي الشتاء ايضـا ؟

ـ لكننا في الصيف •

كانت الشمبانيا باردة •

ـ أتدري ؟ أنا لم ادخل مقهى منذ زمن بعيد ؟
ـ أهي مشاغل البيت ؟
ـ كلا . أنا احب السير في الهواء الطلق .
ـ لكم أود ان اسير معك عبر موسكو كلها .
ـ ألـن تتعب ؟
ـ معك انت ؟ لن أشعر بأي تعب .

وتجمع حبي القديم كله في عيني . كانت ترى هذا جليا فتفض بصرها باسمة ، وتعود تتطلع الي . وانصرفنا من المقهى في الواحدة . فأخذنا نسير في غيرما اتجاه معين . ومررنا بمكتبة ، فدخلنا تتفحص الكتب . وسألتهـا أن تتغدى فقالت انها ليست جائعة . فأقترحت ان نشاهد فلما . وبعـد السينما كانت آخذة بذراعي بلطف . قلت :

ـ مارأيك أن تتغدى الآن ؟
ـ كنت أريد ان امر على أمي . لكن لا بأس مادمت راغبا .
ـ أي مطعم تفضلين ؟
ـ لافرق عندي . في أي مطعم تحب .

وتذكرت المطعم العائم قبالة متنزه غوركي . فركبنا اليه . كانت فرحة ، خالية البال . وشربنا زجاجة . فأردت أن ازيد . قالت انها تود أن تتجول في البارك . واخذنا تتنقل من بقعة مزهرة لاخرى . واكترينا قاربا في البحيرة . كنت اراها رائعة المزاج ، منطلقة في اعتدال . وكنت حذرا في تحركي معها . وخرجنا في العاشرة من الليل . ماكنت اعلم أين تسكن . فسألتها لاوصلها في التكسي .

ـ ولماذا في التكسي ؟ مازال الوقت مبكرا .

كنا منحدرين في حدائق الضفة . والنجوم الياقوتية تتوهج فـوق

ابراجها . واجتزنا الساحة باتجاه الكـوم .. وكانت مأهولـة بالمتنزهين . وعبرنا الشارع ناحية المحطة . وسألتها أن نمر على مخزن الاطعمة . وكـان قريبا من المترو في جانب من الفندق . فأبتعت زجاجة نبيذ . قلت .

ـ مارأيك ان نشرب شيئا . نحن في عطلة . ولدينا وقت .

فردت ضاحكـة :

ـ كيف ؟ في الشارع ؟

ـ أمن الممكن عندك ؟ أعني قليلاً .

ـ ممكن . طفلي عند أمي . سأتلفن لها .

دخلت كشك التلفون . ثم جاءت الي :

ـ لابأس . لنذهب .

في شقتها كنت أحس بارتباك . غير اننا كنا نشرب . وكانت مرحـة مبتهجة . وكنا معا فوق اريكة واحدة نتجرع الخمرة الطيبة . وامسكت مرة بذراعها العارية فتركتها لي زمنا . ثم سحبتها مني في هدوء لترفع كأسها . فجأة اخذت الامطار تهطـل قوية . وكانـت النافذة مفتـوحة . فنهضت لتوصدها . وتبعتها .. فأخذت بكتفيها الرحبتين برفق ملامسا ظهرهـا الرائع . ثم هبطت بيدي فأحطت ثقلها الشهي المبتغى بهما . فأستدارت بين ذراعي نحوي . وكنت أضمها والثم وجهها وفمها . ولم تكن تتمنع . انما تقول هامسة ، وفي عيونها رغبة وذبول :

ـ لا .. ارجوك .. دعني .

وكنت اقبل عنقها وذراعيها .

ـ لا .. لايجـوز .

واخذت شفتها السفلى بفمي . كانت حارة ، طرية جـدا بين ذراعي . وكانت تقربني منها وتشدني وتقبلني هامسة :

ـ اين كنت عني ؟

وفي فراشها كان عريها نهرا مترعا متقلبا ، مالئا سعة السرير كلها • كانت الفرس الجموح تنتهب الارض • وحين تبلغ الفرس حافة الطريق ، حافة الهوة الفاغرة الوثيرة •• تطفر طفرتها الاخيرة ، لتنطرح مسبلة اهدابها ، مطلقة آهة طويلة دفينة ، محتبسة منذ سنين • وطوال ساعات طويلة •• كانت خافقة ، دافقة متأوهة بالرغبة العارمة • وكانت افخاذها المديدة الملاى نهبة ليدي وشفتي • وكان صدرها الثلاثيني الممتليء العريض مرتجا منسحقا ، مبددا • كانت رطبة مبتلة الشعر والوجه ، مأخوذة متعفرة • حتى اذا الفجر لاح كانت تئن متضرعة ، موجوعة ، مضعضعة مهدودة الكيان •

كنا نلتقي كل يوم في الثامنة مساء • فنتجول طويلا في الحدائق أو البولفار • أو نقتعد ركنا من المقهى • ونقصد شقتها في منتصف الليل مع زجاجة خمر • وسريعا مامر اسبوعنا العسلي • وكانت تقول :

ـ اين كنت عني طوال عامين ؟ أين كنت ؟

كانت غرفتي موحشة ، خالية • وكانت لينا تبعث لي برسالة كل يوم • وكنت أجعل من رسائلها كراسة لنقرأها فيما بعد • ولقد اخبرتها في اول جواب انني غير مسافر • قلت انني شغلت ، فجأة ، بقراءة بروست • كنت قد استعرت « الزمن الضائع » من صديقي علي الاذربيجاني • وكان مترجما في ستة مجلدات • كنت أقرأ طوال النهار • وأعود لاقرأ في الليل •• بعد جولة في الحديقة أو ساعة في المقهى • وفي طريقي الى مخزن الحي •• كنت اتوقف عند بائعة الكفاس منتظرا دوري في الصف ، لتملاء لي قدحا من صنبور البرميل الخشبي • طوال الصيف كنت اجد هذه البراميل ، فوق عجلاتها ، على ناصية الشارع • وكان يدعى قديما بيرة الموجيك •

كان المنزل مقفرا تقريبا •• الا من زائرة أو اخرى ، تحل ضيفة في غرفة

ما ، قادمة من جهة ما من جهات البلاد الاربع •• لتقضي في العاصمة اجازة قصيرة وترتحـل •

مرة كنت عائدا من المخزن • كان الوقت مساء • فرأيت عند المصعـد امرأة فتية من هذه الزائرات العابرات • كانت خارجة ، توا ، من الحمام • كان شعرها مبتلا ، وفي قميصها نداوة • وكان يشد قامتها الهيفاء العالية بنطلون ضيق • فأجريت معها حوارا • كانت شاعرة استونية من تالين • فأقترحت أن اترجم بعض قصائدها الى العربية • وكنت اروم وصالـها بالطبع • قالت انها ليست بالشاعرة المهمة • واغلقت دوني السبيل • فأتيت غرفتي قانطا • وبعد أقل من نصف ساعة سمعت نقرا فوق بابي • كانت هي الاستونية وفي هيئتها تلك • جاءت تسألني قبضة شاي • كيف اهتدت الى غرفتي ، وهـي في غير طابقي ؟ فلقد واصلت صعودها حتى السادس • هذا مالم اتوصـل لمعرفته • ولم أسألها عنه • فدعوتها مرحبا لان تجلس • ورحت أعد لهـا الشاي • وكنت افكر مبتهجا : فيم كان انقلابها هذا ؟ تصدني جافية وتسرع الي بقدميها ؟

كان باديا عليها انها باقية • فلقد فرغنا من الشاي ولم تتحرك • كـان وجهها لطيفا ، وكانت نضرة ، شذية بعد اغتسـال • ورجوتها ان تنتظرني حتى اعود مـن المخزن بشيء •

ـ طيب • اعطني أي كتاب اقرأ فيه حتى ترجع •

ـ هذه الكتب كلها بين يديك •

وعدت سريعا بالخمرة والزاد • كان الهواء يهب بليلا من النافذة • وكان المطر يتساقط بين حين وأخر • وبعد منتصف الليل ، وقد ارتوينا حبا ، كنا نقف عاريين عند النافذة المفتوحة لنبترد • وكنا نكسر الفستق باصابعنا أو بأسناننا ، ملقيين بقشوره في منفضة وضعتها عند النافذة • وباغتتنا زخـة

مطر • فاغلقنا النافذة • وعدنا متعانقين ، في العتمة العابقة بالليل ، وكان الشرشف الابيض يتراءى فوق الفراش في غموض •

كانت لينا تريد أن تقطع اجازتها مسرعة الي ، باعثة لي صورة كبيرة لها ملتقطة تحت شجرة مشمش منعزلة • فأصررت ، في جوابي ، ان تنهي اجازتها حتى أخر يوم • وكانت تتساءل في خطابها : اترى هو بروست وحده حال دون ان تسافر ؟

واكتشفت وجها عابرا أخر • في الغرفة المواجهة لغرفتي تحل ضيفة رائعة • هي هذه المرأة الاوزبكية الشابة ، ذات الملامح الروسية والعينين الخضراوين والشعر الاسود • في وجهها سمرة خفيفة ، وقوامها الريان يملاء الذراعين • كانت تحدجني بنظرات متأججة • فأقتربت منها :

ــ مساء الخير • أنا جارك في الغرفة المقابلة •

ــ بلى • اعرف هذا • فلقد رأيتك •

ــ وشرقي مثلك •

فأبتسمت عارفة نيتي منذ اول خطوة •

ــ انت عربي ؟

ــ أجل •• وانت اوزبكية كما يبدو •

ــ بلى • أنا اوزبكية •

ــ من طشقند •

ــ أنا من سمرقند •

ــ أخارجة انت في نزهة ؟

ــ كنت أود ان ادخل سينما روسيا • أنا لم ارها من قبل •

ــ اتسمحين لي بمرافقتك ؟ ان ماجرأني هو اننا جاران •

ــ لطف منك ان تصحبني • اننا اخشى انك شاهدت الفلم من قبل

فتضجر • لاأريد ان اغدو سببا في سأمتك •

ــ أنا لم ارتد السينما منذ زمن بعيد •

كان الفلم هو « عطلة في كابري » فخرجنا مرحين • ودعوتها لان تتعشى في مطعم • فركبنا الحافلة لم يكن المطعم مزدحما • انه الصيف •

ــ أنا اسمي نظيرة • أنا جارتك منذ يومين •

ــ لو كنت اعلم !

ــ أما انا فلقد رأيتك • كنت داخلا •• وكنت اتحدث في التلفون • ألم تزر اوزبكستان ؟

ــ سأزورها بالطبع • أنا متشوق لزيارة بخارى وسمرقند وطشقند • غالبا ماأتغدى في مطعم اوزبكستان لاشرب الشاي الاخضر •

ــ اتحبه ؟

ــ وكيف لا ؟

ــ ستشربه الليلة معي • جئت بعلبة كبيرة منه • وسأتركها لك • عندنا في المقاهي •• نفضل الشاي على غيره •

ــ وعندنا ايضا • الشاي وليمون البصرة •

ــ أهو حامض •• هذا الليمون ؟

ــ أجل •. ويحضر كما يحضر الشاي •

كان وجهها مكلثما ، وصدرها ممتلئا عامرا •

ــ انك لك وجها أسمر وعينين خضراوين • وكأنك عراقية •

ــ يسرني ان اشبه نساءكم • من يدري ؟ فلعل جدي الاقدم كان عربيا • فلقد كنا ، قديما ، طرفا منكم • لكن العيون عندكم عادة ماتكون سودا كعيون الشرقيين عامة • أم انا مخطئة ؟

ــ ان ماتذكرينه هو عين الصواب • انما صدف ان تجدي عراقية

سمراء بعينين خضراوين .. أو تجديها بيضاء ناصعة بشعر اشقر قليلا .

كانت الساعة الثانية عشرة حين انصرفنا من المطعم . فركبنا التكسي . ورغبت نظيرة ان نشم الهواء العبق تحت اشجار الغبيراء . فأخترنا أخر مصطبة وراء الاشجار . كانت طيعة شأن المسافرة العجلى . كنت اقبلها، وأهمس لها بأرق الكلمات . وداهمنا المطر غزيرا . ففررنا الى المنزل . ورأتنا المناوبة آتيين متأخرين ، وعلى اثوابنا بلل . فأشارت لي باصبعها ، في غفلة من نظيرة ، مؤكدة انني احسنت اختيارا ، صاحبا معي هذا القوام الشهي المتليء الشرقي . في المصعد كنت اقبلها وهي تضحك هامسة ان القبلات في الحدائق لا في المصاعد .

ــ سأعد لك شايا أخضر .

ودخلنا غرفتها .

ــ انتظرني قليلا . وسأعود بالشاي .

ــ بل سأذهب معك .

ــ ألديك غدا وقت ؟

ــ اتظنين أنني سأضن بوقتي عليك ؟

ــ ربما لديك عمل .. أو مايشغلك .

ــ سنمضي اينما تودي .

ــ انني لاود أن اتجول في المدينة لاغير .

ــ لن اتركك لحظة واحدة .

ورحت اقبلها في المطبخ . فانفلتت ضاحكة :

ــ ليس هنا . سيروننا .

ــ لاأحد غيرنا في الطابق .

ــ مع هذا .

وسألتها في غرفتها ، وكنا نتجرع الشاي الاخضر ، والامطار تهطل قوية ملحة ، وتضرب الزجاج :

ـ أأنت كاتبة ؟

ـ أنا اترجم القصة الاوزبكية الى الروسية .

وتذكرت حفلا صاخبا أحياه فكرت في هذه الغرفة نفسها . كان طعم الشاي حلوا في شفاهنا . وكنت أقبل فمها ووجهها . واحمد صدفة جعلتها جارة لي . وخطوت لاطفيء ضوء السقف . فأوقدت هي مصباح الطاولة . ورجتني أن استدير لتغير ثوبها .

ـ الان يمكنك ان تراني .

كانت في رداء حريري عريض ، منسدل فوق امتلائها المثير .. في رداء من هذه الاردية الاوزبكية الخفيفة . فأحتضنتها مقتربا بها من سريرها ، وهي تتمنع قليلا وبلطف . كانت الامطار تضرب النافذة طوال الليل . وكانت تنطق بألذ الهمسات عارية ، متأوهة بين ذراعي . ولقد سرها انني راغب بجسدها رغبة قوية . كانت أسيا الروسية عارية جامحة تحت يدي .

وكنا معا ثلاثة أيام . وكان « الزمن الضائع » منتظرا جانبا . وكانت لينا تبتسم لي معاتبة تحت شجرة المشمش . وكنت اعتذر بالصيف والوحدة .. بالمرح والشباب . وكانت نظيرة تحزم امتعتها . ستركب التكسي بعد دقائق لتلحق طائرتها . وصعب علي أن تنطلق وحيدة في التكسي . مع انني اكره ساعة الوداع . وتذكرت قبلاتها واحتضانها لي . فركبت معها . وعدت وحيدا في باص المطار الازرق . ونزلت في المركز ، في أخر موقف : فانحدرت لاشرب القهوة المرة في الطابق الاول من فندق موسكو . وكنت أستعيد همسات نظيرة :

ـ سأكتب اليك . وسأعود وانزل هنا .

ستصل لينا بعد عشرة ايام . ينبغي أن أزور امها غدا في الضاحيـة . سأحمل معي بطيخة أرجو ان تكـون حمراء . لـن تزعجها هـذه الهدية الرخيصة . سأتغدى معها واتجول ، ساعة ، في الغابة ، وأمر على البركـة لاسبـح .

وعاد جيلي وجون .. وعدنا نشرب الشاي في ساعة متأخرة . كنـت اقرأ طوال النهار . واتغدى في مطعم الحي مع قدح بيرة . لم يعد المنـزل مقفرا . جاء اولا طلبة الكورس الاول ليؤدوا الامتحان . ثم جاء الاخرون . كنت اتنزه ساعة مع اندريه ، الشاعر الحزين ، في ليالي الشارع المزدانـة بالصبايا والزهور . واتمتع بقدح الكفاس كلما مررت على المخزن .

صباحا كنت انتظر لينا في المحطـة . ورأيتها أتية متثاقلـة الخطى . فأسرعت لاقبلها واحمل عنها حقيبتها . كانت الشمس الجنوبية قد لوحت وجهها الشاحب تلوحا طفيفا . وجعلت تتأملني في ارتياب . غير انها سريعا ما أعطت وجهها بسمة عذبة ، ملتفتة الي في حنو :

ــ هاأنا ذي عائدة . أأنت سعيد بعودتي ؟

ــ أهذا سؤال . انت تعلمين انني كنت اتحرق انتظارا .

ــ لكنك قلـت انك ستسافـر .

ــ وأي فرق ان ابقى أو اسافر .. مادمنا بعيدين عن بعضنا ؟ ماكنت لاقدر أن احجز في مصيفك . فما هو في عداد الامكنـة المخصصة لنـا . ووجدتها فرصة لان انصرف للقراءة .

ــ كنت أريد لك ان تقضي اجازة ممتعة . كيف هي أمي ؟

ــ بخير . وهي متشوقة لرؤيتك .

ــ سنزورها حالما اضع متاعي في الشقـة .

وعادت تحدجني بالنظرة المتشككة . ونزلنا من التكسي عند منزلها .

قالت متفحصة حجرات الشقة :

ـ أمي كانت هنا • كل شيء مرتب ونظيف •

وكنت أقبل وجهها وجيدها • وأردت ان ندخل غرفتها • فألقت علي نظرة مشتعلة • وانزلقت مني :

ـ لاأظنك مشتاقا الي كثيرا •

ـ أنا أريدك في هذه اللحظة كما لاأريد أي شيء أخر •

ـ اتـرى ؟ أريــدك !!

ـ انا أريدك فأنا أحبـك •

ـ كوجيتــو أخـر !

كنت اضحك محتضنا قوامها المتأود اغراء • فأخذت تتوسل :

ـ ارجوك • ليس الآن • لن يكون الامر جميلا هكذا • لقد مـر شهر وأنا بعيدة عنك • لابد من أن استحم وأخذ زينتي • دعنا ننطلق لنري أمي اولا • كن لطيفا وانتظرني في البهو • سأغير ثيابــي • هيا • انتظرني هنــاك •

وقصدنا الضاحية في القطار الكهربائي • كانت أمها في انتظارنا • وكان الغداء رائعا : حساء اللهانة الـروسي والبطاطا المهروسة ولـحم الضان • والسلت لينا لتستحم في مغطس الداجا • وجعلـت اتسلى في الحديقـــة الصغيرة : أقطف التفاح وحب الكبش : المالينا القرمزية أو الشهباء بلون العنب الابيض • هذه الاسيجة الخشبية تذكرني بالمدن الريفـية الصغيرة عند دستويفسكي • وكنت اسمع وسوسة الغابة عن قرب •• واشـــم انفاس الخريف في نسائم الصيف الندية بالمطر ، وأراها متموجة بالحـــور والبتولا • ولما تزل الخضرة كثيفة ، محمرة ، مصفرة هنا أو هناك في المروج والاحراش • وابصرت بلينا أتية الي •

كانت في ثوب حريري أزرق منفتح قليلا عند صدرها ، وكانت عارية الذراعين حتى كتفيها . كان جمالها الاخاذ ملء عيني ، فكنت ابتسم اعجابا ومحبة . فأقتربت منها . ولم تقل أي شـيء . ودخلنا معا لنرتقـي السلم الخشبي الى غرفتها . كنت أقبل جسدها المتليء العاري الجميل كلـه .. من الرأس حتى أصابع القدمين . وكانت عيناها الدامعتان ضاحكتين .

ثم انطلقنا نتنزه في الغابة ونجمع الكماة . وابتعدنا ، متوغلين ، تحت أشجار الصنوبر والشربين العتيقة . ومررنا باشجار البلوط الهائلة . وبعيدا عند البركة يتعالى لغط المتنزهين . وعثرنا على قذيفه من بقايا الحرب مرمية تحت الاعشاب . وكانت السلـة ممتلئة . فتمددنا فـوق الاوراق اليابسة المتكومة . وجعلت اقبل وجهها واكشف عن صدرها . وكانـت تضحك . واردت منها أن تنضو ثوبها . والريح تهز أعالي الغابة المتهامسة . وكـانت تتمنع :

ـ أجننت ؟ هنا يروننا .

ـ لا أحد هنا .

ـ قد يمـر بعضهم فجـأة .

ـ لن يرونا . نحن بمنجى عن الانظار في كهفنا الشجري هذا .

ـ لكـن لماذا هنـا ؟

ـ انت حورية الغابة وأنا بعلـك .

ـ انك لمجنون . وأنا أحبك . انتظر لحظة لانزع .

واطبقت سترتي السفرية وسادا لها . وبسطت قميصي لاقـي ظهرها الناعم من خشونة الورق . لم نكن حافلين بشيء . وفي غمرة اصطراعنـا كان رأسها بعيدا عن سترتي متمرغا بالعشب والاوراق .

وخرجنا من بين الاشجار المتقادمة . وكانت الاوراق اليابسة عالقـة بشعرها . فأخذت التقطها واخبئها في جيبي .

ـ لماذا تحتفظ بهـا ؟

ـ سألون بها كراسـة رسائلـك •

وعند البركة اكتشفت اوراق البردي الطرية الزرقاء • وكـنا نقطف الزهر البري النابت أعوادا عالية في المرج حيال حافة الغابة • وعدنا مثقلين بأكوام متاهونه منه • كان الوقت مساء ، والسماء صاحية • وكـانت السلة ملاى بالكماة • وكان وجه لينا مخضبا بحمرة الحب • وابهج الام ان نوفق بهذه الكمية الكبيرة من الكماة • وقالت انها ستنظفها حالا ، وتعد منهـا وجبة طيبة مع فطائر الشوشبرك والفودكا •

لم تعد نظرة لينا متشككة • انما هي نظرة محبة حنون هادئة • وكان الزجاج متوقدا بأشعة الشمس الغاربة • وعند المائدة طفقت لينا تقص اخبار رحلتها الجنوبية • وفجأة اخذت السحب تتجمع ، والريح تهب قوية • وسريعا ماانهمر المطر وابلا • قالت لينا :

ـ ستسقط الرياح كثيرا من تفاحنا • سنجمعه صباحا •

كنا نسمع حفيف الغابة المتكاثف • والسماء مبرقة مرعدة • والشجر عابق بروائحه • وانهزمت الزوبعة مبتعدة ، مولية بعد قليل • وفتحنا النافذة لهواء الليل •

وفي الغرفة الخشبية كنا نسمع وسوسة منتصف الليل • كانت مستلقيـة هادئة • وكنا متدثرين بالشرشف الابيض الكبـير حتى صدرينـا • وكنت أزيحه لالثم ثدييها المتكورين الناعمين • والنافذة منفتحة لروائح الحدائـق المثمرة المبتلة • وكانت تتناهي الينا اصوات المتنزهين المتـأخرين • واغنيـة « أنا اذرع طرقات موسكو » تدندن في مكان ما • بعد غد ستعاود لينا عملها • وسيبدأ العام الدراسي ايضا • وكنت الامس بيدي جسدها الطري الساكن •

ـ كنت قلقة عليك في المنتجع •

ـ اكنت تخشين شيئا ما ؟

ـ ماأقلقني هو تخلفك عن السفر •

ـ لكنني اوضحت لك في رسائلي •

ـ كنت أظن انك تخلفت بسببها •

ـ بسبب مـن ؟

ـ كاتيـا •

ـ اتفكرين بها وقد نسيتها منذ زمن بعيد ؟

ـ وما أدراني ماذا كنتما تدبران !

ـ انا لم أرها منذ آخر مرة في المسرح •

ـ ألم تتصل بك ؟ بعد سفري ؟

ـ ولماذا تتصل ؟ تلك كانت رغبة عابرة •

ـ لكن مالي ازعجك بوساوسي وانت تغطيني بشفتيك •• بقبلاتك ؟

وعدنا في قطار الضاحية محملين بهدايا الغابة والحديقة المثمرة • لم يبق احد من اصدقائي الاذربيجانيين • فلقد تخرجوا وسافروا • ولم نعد نـراهم الا زائرين •

وفي السابعة مساء كنت انتظر لينا • كان معطفها الرمادي الصيفي منفتحا عند صدرها • وكان شعرها الاشقر متكوما تحت قبعة خفيفة •

ـ أين يعجبك أن نذهب ؟

ـ لنتجول ساعة • وبعدها نتعشى في الشقة •

ـ مارأيك •• في احد المطاعم ؟

قالت مبتسمة في عيني :

ـ ألم تسأم من مطاعمك الخانقة ؟ لابد من انك دخلتها مرارا في غيابي •

أنا افضل عليها •• هذا الهواء •

ـ لنمر على المخزن اذن •

ـ اعرف ماذا ستشتري • لدي مايعجبك • جئت لك ، من هناك ، بنبيذ بنوبي رائع ، نبيذ أحمر •

وفي شقتها ، حوالي الثامنة ، كانت تقول :

ـ سأتحرر اولا من هذه البدلة • في ثوبي المنزلي أحس بارتياح •

كنت في البهو اتصفح كتبها • وعادت في ثوبها الاحمر الداكن • وكنت أحب أن ترتديه ، فهو يظهر شحوبها الشهي متألقا كما يظهره الازرق الداكن • فنهضت لاقبل وجهها •

ـ انت تقبلني وكأنك تلتقي بي لاول مرة • أهو ضميرك يؤنبك ؟

ـ الانني متيم بـــك ؟

ـ طيب • اتدري من رأيت في المنتجع ؟

قلت ممتعضا :

ـ أهو زوجــك ؟

ـ مابك ؟ أي زوج ؟ انت زوجي •

ـ وهـــو ؟

ـ بالطبع لم اشأ في حينها ، أن اخبرك • لقد هجرته تلك الصبية اللعوب فبعث من يتوسلون بأسمه الي • فاسرعت بالحصول على وثيقة الطلاق • رأيت هناك فتاة تعرفك • احزر من هي ؟

ـ وأنى لي ان اعرف •

ـ اسمها تانيا • وهي تذكرك بخير •

ـ أهي ناحلة قليلا ؟

ـ اجل • كانت لكم امسية شعرية في مصنعها •

ـ وكيف عرفت ؟

ـ كنا في الحديقة . وكنت اكتب رسالة لك . ورأيتها خارجة . فرجوت منها أن تضعها في صندوق البريـد . ولاح لها اسمك وعنـوانك ، فراحت تسألني عن انبائك . لم تقل عنك الا خيرا .

واردت ان اغير الحوار :

ـ متى نلتقي غدا ؟

ـ في العاشرة .. مثلما اعتدنا في غير ليلة الاحد .

كان النبيذ طيبا باردا .

ـ قل لي من فضلك .. تلك الفتاة تانيا ..

ـ لينا .. الابد من فتاة في احاديثنا ؟ كانت راغبة أن تتزوج . فما كان الا ان تفترق في هدوء .

وسألتها فجأة :

ـ الم تفكري باقتراحي ؟

ـ أي اقتراح ؟

ـ ان اتزوجـك .

ـ وكأنك لاتفكر الا بيومك . تصور ماذا سيكون من أمرنا بعد عشر سنوات ، وكيف سأبدو لك !

ـ لن يتبدل شيء منك ، في عيني ، حتى بعد مائة عام .

ـ هذا مايخيل لك .

ـ انت لاتريدين .

ـ لو تعلـم !

ـ فيم رفضك اذن ؟

ـ لانني احبك .. ولا اريد ان تشقى معي بعد حين . ثم انني لن احتمل حبك غيري لحظة واحدة . في هذه الامور أنا متكبرة .

ـ ولماذا أحب غيرك •• وانا احبك ؟

ـ لن يدوم حبك لي أبد الدهر • ستسأم هذا الصدر وهذه الساق • ستجد رغبتك في جسد أخر • اما أنا فسأظل متعلقة بك ، متشبثة بأذيال حبك ، لانك أخر حب لي •• بل حبي الوحيد • أنا لم اعرف طيبة مثل طيبتك • وانك لتحب الانثى في كما لايستطيع ان يحبها اي رجل أخر • أترى ؟ انني لاشعر ، وانت تلمس عريي وتلثمه ، أنني اجمل امرأة •

ـ وانك لاجمل امرأة حقا •

ـ هذا لانك مازلت راغبا بي •

ـ اسمعي • أنا اعرف نفسي • واعلم انني لن اهنأ ، يوما ، مثلما أنا هانيء في نعيمك هذا • وسأظل اتشوق اليك حتى أخر لحظة • وستندمين يوما لانك أبيت ان تقترني بي • لكن مابك ؟ فيم هذه الدموع ؟

ـ كلا • كلا • لاتتحدث هكذا •

كان الخريف ذهبيا هذه السنة • كانت الريح تتلاعب بالاوراق اليابسة المتهاوية فوق ارصفة دوبرولوبوف •• فوق المصاطب في الممر العريض • وكنا نرتدي المعاطف الخفيفة حذرا من المطر ولذعات البرد • واخذ الليل يهبط مبكرا • وكنت اعود من المعهد ساعة الغروب • فأقرأ حتى العاشرة لالتقي بلينا • فنتجول ساعة أو نشاهد فلما • وكنا ننتظر الشتاء والثلوج • وحين يصحو النهار مشرقا ، صباح الاحد ، يطيب لنا ان نتمشى في الممر بين الاشجار وهي تتعرى من اوراقها • كان البرد خريفيا ، ممتعا ، لاذعا قليلا تحت السماء الزرقاء • وحين تتجمع السحب وتتكاثف قاتمة منخفضة •• نحس بالنداوة في الهواء • وبعد المسرح ، ليلة الاحد ، تود لينا أن ندخل المترو • فنسير غير مسرعين حتى محطة ماركس • كان شعرها المنفلت من تحت القبعة •• يتخافق في الهواء المكيف الدافيء • وكنا نغير الخط ، في أخر

الجولة ، باتجاه نوفو سلوبو دسكايا • وتحب ، احيانا ، أن ارافقها حين تتسوق من الكوم • وكنا نتوقف قرب نافورة المخزن الهائل ، والزحمة في أوجها أول الليل • كانت الاشجار تتجرد •• فنحن نحس بالورق الهش المتكوم تحت اقدامنا في المماشي •• بين الاشجار العالية ، في الحديقة العامة أو البولفار • وكلما عرض فلم شيق في متروبول أو روسيا أو السينما المركزية •• كنت اقتطع تذكرتين واتلفن لها • واسعى قاصدا مكتبة الاداب الاجنبية لاقرأ ثلاث ساعات • وانتظرها قبيل العاشرة عند مدخل السينما ، واقفا بين المنتظرين • فتجيء في معطفها الرمادي او الاخضر الفاتح • وقد تباغتني محدقا بفتاة رانية الي • فتقف أمامي ناظرة الي نظرتها الضاحكة المؤنبة الساخرة :

ـ مرحبا •

واسألها ان نأكل شيئا في بوفيت السينما فترد :

ـ لماذا ؟ سنتعشى في البيت •

وتنحدر ، بعد الفلم ، ماشيين حتى الحافلة •• لننزل عند زليوني دوم • عندئذ تكون امها نائمة • فندخل في هدوء • ونعلق معطفينا • ونتجه ناحية المطبخ جائعين • وتقول :

ـ أظن ان لدينا بقية من الفودكا • سيكون مذاقها سائغا مع الرنجة • خذ معك قدحين الى البهو من فضلك • وسأتي بالعشاء •

ـ لاتنسي خيارة مملحة •

ـ أهذا شيء ينسى ؟

وأعود لاحيط ظهرها الباذخ بذراعي • فتلتفت الي بوجهها الشاحب الجميل ، وفي زرقة عينيها خفق برق بعيد • وتقول ضاحكة :

ـ دعني اعمل من فضلك •

ـ لـــن ادعك •

ـ مع هذا كنت تغازل غيري عند السينما •

ـ كنت اتسلـــى •

ـ تعترف ايضـــا ؟

ـ اني لاحس بلداتك خافقة ملء ذراعي •

ـ لانني اشعر وكأنك تعريني بيديك •

ـ كل عضو من جسدك مملكة بذاتها •

ـ أوه لا •• لاتلمس ثديي •

ـ أي سر في تكورهما وتوثبهما المعجزين ؟

ـ وما أدراني انا ؟

ـ أي سر في تكورك واتساقك ورحابتك •• وامتلاء اكتافك وساقيك وفخذيك وذراعيك ؟ وانبساطة بطنك مع انه رحيب •• وكأنك غير ممتلئة ، مع أنك خير المرأة ممتلئة رائعة ؟ أي سر في انبساطة بطنك هذه ؟ وهذا الوجه الجميل •• أي سر في شحوبه وغسقية وجنتيه وحدهما ؟ وأي سر في امتلاء شفتيـــك ؟

ـ اوه •• قلت لاتلمس ثديي •

ـ أي سر في اشتعال وجنتيك ؟

ـ ومن أين لي ان اعلـــم ؟

ـ واسمرار شفتيك هذا •• أي سر وراءه ؟ وكأنهما مرسومتان رسما •

ـ قلت لاادري • اوه •• أنت تدغدغني • سأضحك •

حين اجتمعنا عند المائدة الصغيرة في البهو ، وكنت اقطع الرنجة الصغيرة ، واتذوقها متلذذا بعد جرعة فودكا •• سألتني :

ـ أي سر في انك تحب الرنجة ؟

ـ لاأدري .

وكانت تعرف أنني افضل الخبز الاسود ، وقد جاءت بقطع منه . ورأتني أضع فوقه نقاطا من صلصة الخردل . فقالت متكلفة في احتفال ، وكأنها تسألني عن معضلة :

ـ أي سر في أنك تحب الخبز الاسود لا الابيض ؟

فرحت اكتم ضحكة عالية . وكانت تتطلع الي متسائلة ، منتظرة . فلم اتمالك طويلا حتى ضحكت . فأسرعت تقول :

ـ انسيت ؟ ستصحو أمي وتطردنا .

ورأيت فوق التلفزيون مجلة فأردت ان اتصفحها . كانت مجلة « الشباب التكنولوجي » وكان استاذي زخارجنكو رئيس تحريرها . قالت :

ـ بالمناسبة .. قصيدتك اليوم في « الصحيفة الادبية » جميلة .. ولقد أعجبت اصدقائي . بل سألت عنك اكثر من فتاة جميلة .

ثم غيرت نبرتها فجأة :

ـ أي سر في أنك تحب حساء اللهانة .. وليس الكرنب ؟

كنا ننتظر الشتاء والثلوج . وكان غازي مبتلى بالحائط الاصم . كانت زويا فتاة رائعة . وكانت تتفهم ظروفه ، وتصمت كليمة الفؤاد .. ولما أزل أحب في غازي صفاءه وطيبته . غالبا ما أجد زويا عنده كلما زرته في الجامعة . وكانت زويا تعد لنا الشاي . وكان غازي فرحا باكتشافه الجديد : أسياخ الشي . لاأدري أين عثر عليها . أهدى لي ثلاثة منها . فحملتها الى لينا . قالت : هذه ستكون نافعة في رحلة ما .. في الصيف عبر الضاحية . قلت : لابأس من ان نهيء بها وجبة شرقية وكأننا في مطعم شواء .

وكنا ننتظر العيد . والثلوج لم تتهاطل بعد . وكنت افكر بهدية للينا . كان هذا في أمسية سبت . فطلبتها في التلفون . قالت أمها :

ـ لم تعد لينا بعد • أتود ان اقول لها شيئا ؟

ـ أرجو ان تخبريها انني سأنتظرها ، في السابعة ، عند المترو قبالة بهو الاعمـدة •

طيب • سأعرج على المقهى في الطابق الاول من الفندق • كان عبد الله هناك • وكان غائب وأخرون • وسألني عبد الله مازحا :

ـ أراك انيقا •• أأنت على موعد ؟

ـ وسألقاها بعد ساعـة •

ـ أهي ممرضة أخـرى ؟

كنت أضحك متذكرا سخريته القديمة • وفي السابعة كنت عند مـدخل المترو • وجاءت لينا • قلت :

ـ سأشتري حاجة من الكوم • أمن الممكن ان تأتي معي ؟

ـ بالطبع • وهل اتركك تسير وحدك • انت غريب الاطوار فعلا •

وفي المخزن وقفت عند واجهة الاردية النسوية ، فأدركت غرضي :

ـ فيم وقوفنا هنـا ؟

ـ هذا الرداء الاخضر الداكن •• اترينه ؟

ـ بلى أراه •• مابه ؟

ـ سأخـذه لـك •

ـ هـل جننت ؟

ـ اجل • انا مجنون بك • وسأخذه •

ـ وما حاجتي له ؟

ـ رأيته مرة فأحببت ان ترتديه •

ـ أنت تعلم ان لدي الكثير من الثياب •

ـ مـع هـذا •

ــ تكفيني منك ، هدية ، قنينة عطر .

ــ بل سأهديك هذا الرداء .

ــ هذا اغلاها كلها . فيم هذا التبذيـر ؟

ــ أقسم بربي، إن لم تدخلي وتجربيه .. سأفترق عنك هنا .

ــ طيب . ستوبخني أمي وتؤنبك .

كنت انتظرها عند البائعة . وعادت به لتلفه البائعة بالورقة العريضة .

وخرجنا . وكانت لينا صامته . ومررنا ببائعة العطور ، فأخترت قنينة اعرف أنها تفضلها . ولم تقل شيئا . كانت تتأملني وكأنني أمزق نقودي وألقي بهـا في الرياح . لم تكن ليعوزها شيء من هذا . وخزانتها مكتظة بأثوابها . وكانت ثرية جدا مقارنة بي . حين صرنا حيال فندق موسكو قلت :

ــ والان أرجو أن تتفضلي بالدخول .

ــ لابأس . أريد ان احتسي قهوة . هنا يعدونها جيدا .

وتركنا معطفينا عند الشيخ ذي اللحية الطويلة البيضاء الناحلة .. ووقفت تسرح شعرها الاشقر . وكانت ترمقني في المرايا غير مبتسمة لي . واتجهت صامته ناحية المقهى . قلت :

ــ سنشرب القهوة بعد العشاء في المطعم .

فردت علي بهمس غاضب :

ــ قلت لك انني اختنق هناك .

ــ لكنك لم تختنقي حين كنا هنا لاول مرة . بل كنت مرحة .

ــ أنا لم ادخل الا لاشرب قهوة .

ــ سنتعشـى اولا .

كانت ترتقي الدرج المرمري الاشهب مغمغمة :

ــ ألله اعلم اين سينتهي بنا جنونك هذه الليلة !

كنت أضحك وهي تتأفف غضبا . فألتفتت الي وعيناها تتقدان شررا . وكنت أزداد مرحا كلما ازدادت غيظا . كنت اعرف نادلة هناك . فحييتها عن بعد . فأعتذرت بيديها عن انشغال ركنها كله . وأومأت لجارة لها ، فأجلستنا عند مائدة خالية . وجاءت بالقائمة . ولم تختر لينا غير سلطة ونبيذ وعشاء وقهوة . وأضفت أنا الكفيار والفودكا والفاكهة . فقالت بعد أن ابتعدت النادلة :

ـ هي نقودك وانت حر في انفاقها .

قالتها متكلفة نبرة غير مكترثة . وعادت النادلة بزجاجة النبيذ الوردي ، وبفودكا في اناء ناحل ذي عنق . ثم جاءت بالكافيار والزبدة والسلطة . وكان الخبز على المائدة . كانت لينا تأخذ القطعة من الخبز الاسود ، وتغطيها ، بسكينها ، بقليل من الزبدة ، وتنشر الكفيار فوقها . وتقدمها صامتة لي . وكانت ترتشف خمرتها ببط . قلت فجأة :

ـ هل سمعت بحكاية الراعي والجرة ؟

ـ كلا . ماهي حكايته ؟

ـ يحكى أن راعيا فقيرا كان متمددا في خيمته . وكانت جرته الملأى بالسمن معلقة فوق رأسه . فأخذ يحدث نفسه : غدا سأشتري بثمن الجرة نعجة صغيرة . وستكبر النعجة وتلد لي نعاجا . وستكبر النعاج وتلد نعاجا أخر . ولسوف تتكاثر .. وتجمع في ذهنه قطيع هائل يتعالى غباره وثغاؤه . وفقد السيطرة عليه وهو يسوقه . فأراد أن يؤدب اكثرها تمردا . فرفع عصاه عاليا ليهوي بها فوق ظهورها . فأصاب الجرة وحطمها . فسال السمن فوق صدره ولحيته .

فأخذت تضحك متكتمة أول الامر . ثم انطلقت ضاحكة بالرغم منها . وكانت النادلة ترمق كتفيها الرحبتين معجبة . وسريعا مانسينا أننا في شبه

خصام منذ قليل • ورحنا تتذكر عددا من حكايات كريلوف • قالت فجأة :

ــ هذه رقصة تعجبني • هلا تفضلت بمراقصتي ؟

ــ اتصدقين . ـي اسمع الموسيقى غافلا عنها قبل أن تسألي •• وكأنما هي تعزف في مكان بعيد أخر ؟

ــ لكن لنقم قبل ان تنتهي •

كان الرقص هادئا رخيا • وكنت الامس لدونتها وكأنني اعرفها لاول مرة • وتشير بعينيها أن اعقل كلما مسست وجنتها بشفتي • وكانت وجنتاها في توهج متعاظم •

كانت الثلوج تنحدر هشة ناعمة ، متطايرة في الرياح • وكنا سائرين في غيرما عجل قاصدين ساحة مايكوفسكي • سنركب الحافلة ٢٣ من هناك • كان الشارع مرحا ، ضاحكا بعد السهر في المطاعم والمقاهي • وكانت تقول :

ــ من حسن حظك أننا سنجد أمي نائمة •

واندفعت تضحك بغتة :

ــ لكنها ستؤنبني اكثر حين تعلم بفعلتك الجنونية الغريبة • ليكن • سأقول لها صباحا • سأحتمل شتائمها مادمت سأضحك من تهجمها عليك • أأفوت فرصة مثل هذه ؟ بل سأذكر العشاء في المطعم وسخاءك مع النادلة •

ــ لن تضحكي • سأنصرف مع الفجر •

ــ لكنها تصحو قبلنا • ولن ادعك تخرج قبل ان اخبرها •

ــ لابأس • سأكون هادئا • لن انطق بحرف • كلا • بل سأؤنب نفسي أشد تأنيب • سأقول انني في ضلال عظيم •• حتى تغفر لي هذه الهدية الاعتيادية •

ــ لن تقتنع • سترى •

وفتحنا الشقة في تكتم • قالت :

ــ سأدخل غرفتنا قبلك •

كانت تفضل ان تغير ثيابها بعيدا عن عيني • فأنتظرت في البهو • وتبعتها بعد حين • كان بابها شبه منفتح فدخلت •

كانت الثلوج تدور خفيفة عبر النافذة • والساعة تدنو من الثالثة ، ونحن تحت الاغطية الزرقاء الوثيرة • وكان شعرها الاشقر الاثيث فوق صدرها فأزحته بيدي جانبا • وسألتها :

ــ أين سنحتفل ليلة العيد ؟

ــ ألديك اقتراح ؟

ــ أرى ان نحتفل في مركبة فضاء •

ــ انا احبذ الارض • سيقيم اصدقائي حفلا صغيرا • مارأيك ان نشاركهم حفلهم ؟ سيبهجهم كثيرا ان تكون معهم •

ــ أنا افضل ان احتفل بين هذين الذراعين •

ــ هذا بعد الحفل •

ــ فاذا حصلت من استاذي على تذكرتين في سهرة « النويرة » ؟

ــ انا لاأحب هذه الامكنة • وانت تدري • أي شيء هناك غير الصخب ؟

واحتفلنا عند اصدقائها •• في شقة صاحبة لها • كانت المائدة مثقلة بالاطعمة والاشربة • والموسيقى تصدح بين حين وآخر • اجلستني صاحبة الشقة جوارها لتغدق رعايتها علي • فأنضمت لينا لاصدقائها مطمئنة ، تاركة أمري لصاحبتها الطيبة الكريمة • وكنت أشعر ، اول الامر ، بشيء كالجدار يفصلني عنهم •• عن الفتيات خاصة • كنت أحس بأجنبيتي بينهم • وبعد أقل من خمس دقائق ، بعد أول نخب معهم زال مابيننا من كل حجاز • وكانت الفتيات أول من اقبل علي • كن يغمرنني بألفة مباغته ومودة صافية • ورأيت

بينهن ثلاثا بلا اصدقاء وكانت اجملهن متبرجة كممثلة ٠ ووجدتها تكاد تختص بمراقصتي ٠ وتذكرت تهامسها مع لينا منذ حين ٠ فأدركت انها متفقتان ٠ لم تكن لينا لترقص الا نادرا ٠ فأحبت أن تزيدني بهجة بصحبة شابة لاتكاد تتوقف عــن الرقص ٠

وسألتني فتــاة منهن :

ــ أحقا انت تعرف زخارجنكو ٠

ــ انه استــاذي ٠

ــ اذن كنت قادرا ان تحضر حفل « النويرة » ٠

ــ لم تشأ لينا ان نذهب ٠

قالت المتبرجــة :

ــ اتفرطين بهذه السهرة الممتعة ؟ لو قلت في الاقل ٠

فأجابت لينــا :

ــ سنحصل لك على تذكرة الى هناك ٠٠ ليلة رأس السنة ٠

ــ حقا ؟ آه لينا ٠ كم أود ان اسهر معكما هناك !

ــ لكنني لااسهر تلك الليلة في غير شقتي ٠ يمكنك ان تذهبي معه ٠ أنا لا أريد أن احرمه بهجة الحفل هناك ٠

ــ كيف ؟ بــدونك ؟

ــ سأقنعه ٠٠ ستريــن ٠

قالت صاحبة الشقة ضاحكة :

ــ مازال الوقت مبكرا حتى رأس السنة ٠

فردت المتبرجة :

ــ لكنك لن تجدي تذكرة قبل الحفل بشهر ٠

ــ مع هــذا

قالت لينـا :

ـ اؤكد لك انك ستحضرين السهرة معه • اطمأني •

ـ لكـن كيف ؟

ـ اوه رايا •• ما الفرق !

أكانت لينا جادة ؟ أهو اختبار أخر ؟ وانصرفنا في الواحدة تقريبا • لـم ترد لينا أن تتأخر اكثر • انها تود ان نخرج صباحا لنتجول . حيث الموسيقـى والرقص في الميادين العامة • غدا تمتليء الساحات الفسيحة بالوجوه المرحـة المحتفلة ، وتتعالى الموسيقى الراقصة ، وتغدو الساحة حفلا راقصا هائلا • وكان بيننا ، في الشارع ، هذا الحوار :

ـ كنت تتحدثين عني وكأنني غائب •

ـ أنا ؟ كيف ؟

ـ ألم تقولي انني سأصحب صديقتك الى السهرة ؟

ـ اكنت تريد أن تذهب وحدك ؟

ـ ومن قال انني سأذهب مادمت لاترغبين ؟

ـ اتريد ان احرمك سرورا مثل هذا ؟ مادامت هي راغبة فلماذا تـذهب وحدك ؟ ولماذا سنفرط بتذكرة ثانية ؟ سنقدمها لصديقة ، ونبعث في نفسهـا السرور • أتبخل أن تسر صديقا ؟

ـ ماهذه هي بغيتك •

ـ فما هي بغيتي في رأيك ؟

ـ انت تريدين ان تعرفي هل امضي معها أم لا •

ـ وأي ضرر في ان تصحبها ؟ اليست صديقة لي ؟

ـ اسمعي لينا • أهناك امرأة تترك صديقهـا لامرأة اخـرى في رأس السنة ؟

ـ وهذه هي الصداقة . انت لاتريد غير احراجي . أنت تتعمد هـــذا تعمدا . من السهل ان تحصل على تذكرتين وتذهب معها . غير انك لن تفعل هذا الامر الهين الا لتحرجني . لالشيء الا لتحرجني .. ولابدو كالحانثـة بالوعود . هذا ما تسعى اليه . هذا مايزيدك فرحا .

ـ كيف أذهب مع امرأة غيرك وأسهر معها طوال الليل ؟

ـ وأية غرابة في هذا ؟ ستكون مع صديقة لي .

ـ أنت لاتقصدين هــذا .

ـ أنا لااقصد شيئا غير أن ابعث السرور في نفس صديقة . انت تعرف هذا . تعرفه جيدا . لكنك تتعمد اغاظتي .

ـ لينا .. ارجو ان نكف عن جدلنا هنا . لن نزعج أمك بشيء .

ـ ومن قال انني سأجادل ؟ من قال انني سأتكلم معك ؟

ـ طيب . لــن تتكلــم .

ـ اتظن انني سأتكلم معك بعد ؟ اتظن انني سأقول لك كلمة واحدة ؟ لن انطق معك بحرف . لن اتحدث معك بعد هذا .

ودخلنا الشقة صامتين . واتجهت لامكث في البهو حتى تغير ثيابها . ولم تقل كلمة حين لحقت بها بعد فترة . كانت جالسة فوق حافة السرير ، في ثوبها الحريري السماوي عارية الذراعين . وكان شعرها المحلول متهدلا متلامعا ، وجميلا في تشوشه . ونزعت ثيابي وتمددت تحت الاغطية . وطال صمتهـا وجلوسها . وأنا أدري انها ستظل معاندة حتى الصباح أن لم اقنعها أنا لتنام . كان ظهرها ناحيتي . فلمست ذراعها المتليء البديع فأبعدته في هدوء .

ـ اسمعي . ينبغي أن تنامي مادمت راغبة بالنزهة صباحا .

فلــم تتحرك أو تقل كلمة .

ـ لاتكوني عنيدة . ستفوتك جولة الصباح . سيكون الرقص غــدا

ممتعا حافلا في الساحة .

واضفت بعد قليل :

ـ طيب . لاتقولي شيئا مادمت لاتريدين . انما تمددي ونامي .

وظلت جالسة ، مطرقة برأسها الجميل . فأمسكت بذراعها بلطف .. فأبعدته عني ايضا . قلت ضاحكا .

ـ طيب . نامي في سريرك السفري . سترحب بك أمك كثيرا .

ونهضت لاقبلها . كنت أقبل وجهها وشعرها وذراعيها . فلانت بين ذراعي . وبقيت الثمها حتى أذعنت وتمددت جواري . لكنها اعطتني ظهرها . فرحت اقبل اكتافها طويلا . وكدت أيأس منها واعرض عنها حين اقبلت فجاة علي . وبحركة واحدة منها كانت عارية بين يدي .

وشكوتها صباحا لامها :

ـ لينا تريد أن أسهر مع صديقة لها ليلة رأس السنة .

ـ اتصدق هذه الانانية ؟ انها تمثل . بالطبع تمثل . كيف تنطلي عليك حيلها بعد هذا الزمن الطويل معها ؟

كانت لينا تصر :

ـ لم اكن اعني شيئا مما تظنان .

ـ بل تعنين . أنا اعرفك . منذ طفولتك كنت ماكرة .

ثم التفتت الي :

ـ اتدري ماذا يحل بها حين تتأخر عنها يوما ؟ تظل ساهمة ، شاردة البال ، قلقة ، مسرعة لاوهى طرقة على الباب أو رنة تلفون . يحسن بك ان تصحب تلك الفتاة ، وتترك لينا وحيدة ، مهمومة هنا . بعدها .. ستفكر الف مرة قبل أن تبتكر حيلة اخرى لتوقع بك . لاتنس ان تعمل بنصيحتي وسنضحك عاليا منها أنا وانت . سنراها منقلبة الهيئة صباحا ، نادمة ندما

مريرا . سأكون ممتنة لو تتيح لي مشهدا مثل هذا .

ــ اقول لك الحق ؟ هذا مالا استطيع أن اعدك به .

ــ كيف ؟ ايصعب عليك ايذاؤها مرة في الاقل ؟ انت مخطئ، في هــذه النقطة . ستزيدها تدللا وتحايلا .

أسرعت لينا قائلة :

ــ اترين ؟ مهما تقولي فلن تدفعي به لان يقف ضدي .

ــ وهذا مايحيرني منــه .

وذات ليلة ، وكنت انتظرها في العاشرة كما اعتدنا ، وكانت الريح باردة ، والسماء داكنة ، متجهمة فوق المدينة الهائلة ، جاءتني ببطاقة :

ــ وصلتني هذه من كاتيا وهي تحييك وتدعونا لنشاهد العرض الاول من فلمها الثاني ، باعثة بتذكرتين .

ــ أظن ان من اللائق أن نذهب .

فأتسعت عيناها بنظرة متفكرة . كانت تنتظر اعتراضا مني لالح علي حتى أتقبل الدعوة . ولم تقل لامها أي شيء . وانطلقنا بعد يومين . وكانت كاتيا تنتظرنا عند مدخل المترو . كانت مرحة ، تتعمد التلطف معي ، وكأن شيئا لم يكن . غير أنني كنت أرى في عينيها تساؤلا خفيا . وتركتنا لينا لتقرأ لــوحة تعلن عن عروض مسرحية . قالت كاتيا ، ولم تعد متكلفة :

ــ كيف حالــك ؟

ــ بخير . وانت ؟

ــ كما ترى . أحب ان اتزلج معكما ، مرة ، هــذا الشتاء . ارجو ان تنبئاني حين تزمعان . انني اعتمد عليك .

وغيرت من نبرتها ، فجأة ، وعادت مرحة ، متلطفة . وكان دورها صحفية هذه المرة . وكل ماتذكره انها كانت كالدمية بين التلاحات ، متلطخة الوجه بالاصباغ . كانت تمسك بيدي هامسة :

ـ اترى كيف فعلوا بسحنتي ؟

وتخلفت كاتيا مع اصدقائها • وعدنا وحدنا في المترو • وكنت واقفا • كانت لينا جالسة ، واجمة • كانت جميلة ، في شحوبها واشتعال وجنتيها ، جمالا غريبا أخاذا • وكان وجهها نقيا وكأنها في العشرين ، مع انها في الثالثة والثلاثين تقريبا • كان خداها منخسفين قليلا ، ووجنتاها بلون البنفسج • وفي الحافلة كنا جالسين معا :

ـ فيم تفكرين ؟

ـ بلا شيء • ينبغي أن ترتدي معطفك الثقيل • نحن في الشتاء •

ـ اتدرين ماذا قالت كاتيا عندما تركتنا وحدنا ؟

ـ ولماذا تخبرني ؟

ـ اسمعي • انها تريد ان تتصل بها حين تنوي التزلج •

ـ كنت اعلم انها تحب ان تقول لك شيئا • ولهذا ابتعدت • كنت سأخبرها برحلة التزلج لو انها سألتني • أما ان تطلب هذا منك منفردة بك •• فلا • وما اظنها راغبة بالتزلج معنا • ان قصدها هو ان تتلفن لها فتلتقي بك • لن تنسى يوما أنك اعرضت عنها رغبة بي •

واوقفتني قائلة في الزقاق :

ـ دعني انظر في عينيك •

ـ اتشكين ؟

ـ كلا • انت لاتحبها •

ـ انت تعرفين من أحب •

ـ متى تنتهي غدا ندوة الثلاثاء ؟

ـ لن احضرها •

لماذا ؟

ــ سيقرأ علينا احدهم ملحمة ثقيلــة •
ــ لايصح أن تتأخر عن قراءة زميــل •
ــ ليس من زملائي • انه شاعر ضيف لاأعرفه ولم أره •
ــ طيب • انا مجازة غدا • واحب ان نخرج معا صباحا • أريد ان أزور معك متحف الفن الروسي • أنا لم ادخل متحفا منذ زمن بعيد •

وكنا ننتظر الثلوج ورأس السنة • لن تحلو ، في اعيننا ، ليلة رأس السنة بلا عاصفة ثلجية تكوم الثلج تلالا في كل مكان • وكان الثلج يتساقط خفيفا بين فترة وأخرى • وقبل حلول العيد بيومين جاءت الثلوج متكاثفة ، مغطية كل شيء ، متجمعة اكواما عالية •

وفي ليلة رأس السنة كانت لينا منشغلة في تهيئة الزينة والمائدة • كان علي أن اصل في الثامنة • وكنا ننتظر ضيوفا من اصدقائها • وكنت قد حصلت على تذكرتين لصاحبتها المتبرجة •• لتحضر الحفل الشهير مع زميلة لها من صبايا السهرة السابقة • كانت الثلوج تتكوم فوق ناصية الطريق ، متاوية متهاوية في الرياح • وكنت منطلقا اليها ، حامــلا في لفة ورقية ، شــالا أزرق فاتحا ، مخرما كما تحــب ، ومنديلا مــولدافيا أهــدب ، حمرتــه وصفرته ساطعتان •• شأن اغطية الرأس القرويــة •

كانت لينا في ثوبها الاخضر الداكن ، معقوصة الشعر من وراء • كــان جمالها مشرقا ، وشفتها السفلى مثقلة كالثمرة الدانية • ودخلت غرفتهـــا لاضع هديتي فوق فراشهـــا • وفي الركن من البهو كانــت شجرة الشربين الصغيرة تعبق برائحة الغابة الروسية • وكانت أمها في المطبخ • فحييتها قائلا :
ــ ماكان ينبغي أن نرهقك باحتفالنا هنا •
ــ وأين كنتما تريدان ان تحتفلا ؟ في المطعــم ؟
وعــدت لاقول للينـــا :

ـ قيم هذه القناني كلهـا ؟
ـ كيف ؟ ان لدينا ضيوفا • وسيمر غيرهم عابرين •
ـ طيب • غير انني افتقد شيئا •
ـ ماهــو ؟
ـ أود ان تحزري انت هذه المــرة •
ـ أهــو في الاطعمــة •
ـ أجــــل •
ـ آ •• الرنجــة • سأتي بها حالا •

كانت هديتها لي مجلدا قديما مازلت احتفظ به : أعمال الكساند بلوك في طبعة نادرة • وكان ابتهاجي كبيرا به • قلت :

ـ أين وجــدته ؟
ـ كان هذا هدية من معلمة الادب •• يوم كنت في المتوسطة • وكـان قديما نادرا أنذاك ايضا • فأحببت إن اقدمه لك • ستجد فيــه صورة لي ، صورة تلميذة في المتوسطة • كنت الاولى في صفي •
ـ انت دوما أولى •• في الجمال والتزلج •

كنت أقول هذا متمليا قسماتها ، وفي صوتي رنة هذيان • فرأت روعتها كلها في نظرتي ، فأتسعت عيناها عجبا وسرورا • وابتسمت لي • ثم أطرقـت برأسها البديع قائلة ، وكان صوتها خافتا :

ـ وصلتني بطاقة تهنئة مــن كاتيا •
ـ كاتيــا ايضــا !
ـ ألم تصلك بطاقة منهــا ؟
ـ كــلا •

جاءت أولا صديقة لينا وزوجها •• صاحبا لشقة حيث احتفلنا تلــك

الليلة • وبعد ساعة حضر آخران لااعرفهما • ولـم أكن لاتذوق شيـئا غير الرنجة • فزادهم هذا مرحا ، وهم يرونني مقبلا عليها دون غيرها من الاطعمة الشهية العديدة • وكنا نقترح نخبا بعد أخر • وقامت لينا لترد على التلفون • وعادت وفي وجهها وجوم • وسريعا مااسترجعت مرحها ، رافعة كأسها بنخب • كنا ننتظر الساعة الثانية عشرة لنطفيء الضوء • وفي العتمة اخذت شفتهـا السفلى الممتلئة لاقبلها • لم تكن لينا لتشرب الا قليلا • فجعلت أعاندها متجرعا مزيدا من الفودكا • ولم تكن لتعترض • أية فكرة في ذهنها تدور ؟ وحين دق الجرس رجتني ان افتح الباب • كانت الطارقة هي كاتيا مع زميلة لها •

كانت لينا محتفية بهما احتفاء عظيما • ولم تكن لتمثل كما بدا لي • أذن هي كاتيا • كانت هي المتحدثة في التلفون قبل ساعة • قالت كاتيا :

ــ كنا محتفلين في المعهد • واحببنا أن نهنئكم وننادمكم ساعة •

قالت لينـا مرحبـة :

ــ ليتك تعلمين كم أنا فرحة بحضوركما !

كان المرح متزايدا • وكنا جميعا نرقص عدا لينا • وكنا نطلبها فتعتذر • فأخذت بيديها لاراقصها • فأنفلتت ضاحكة • وتبعتها الى المطبخ :

ــ اسمعي لينا • ماذا تقولين في زيارة كاتيا ؟

ــ ليس لـدي ماأقوله •

ــ أهذا رأيك حقا ؟

ــ اوه •• اذهب وكن لطيفا معهما • سأعود بعد قليل • ألم تر أنهمـا شبه ثملتين ؟ كاتيا لاتسعى لشيء أخر غير ان تمرح • أذهب وارقص معها ومع زميلتها • أنا اطلب هذا منك •

وسألتنـي كاتيـا :

ــ أين لينا ؟ أن لنا ان ننصرف •

ـ مازال الليل في أوله •

ـ كلا • لاأريد ان اتأخر فأسكر •

ولم تكن صاحبتها لتفعل شيئا غير ان تبتسم • ولم اسمعها متفوهة بكلمة ما • واقبلت لينا ورجتهما أن تبقيا • ولم نعد نشرب تقريبا • كنا نرقص أو نتحدث وقوفا • ورأت الفتاتان أن تخرجا • وكان علي أن اوصلهما حتى التكسي • ونهض الاخرون ايضا • قالت لينا :

ـ اكلكم تنصرفون مرة واحدة ؟

ـ سنحيي اصدقاء أخرين •

ـ طيب • سأخرج معكم لامر على صديقة في المبنى المجاور •

واتجهنا ناحية الشارع • وعند اول منعطف رأيت لينا تصافح اصدقاءها • كانوا يتبادلون التهاني باصوات مرحة ، تتعالى في السكون الليلي الابيض • وكان الشجر مجللا بالثلوج الصافية • وأوضحت لي لينا أين تقطن جارتها لاعرج عليها :

ـ لن تتركهما حتى تركبا •

بعد الثلوج الغزيرة لم تعد الريح لاذعة • كان الجو مواتيا لنزهة طويلة في الطرقات البيض الصامته • وأثار اقدامنا تتقاطر من ورائنا واضحة متناثرة • وكانت كاتيا متعلقة بذراعي هامسة :

ـ أين كنت في هذه الفترة كلها ؟

ـ وأين كنت انت ؟

ـ انت تنسى سريعا • فعلا لم اكن متوقعة •

ـ وأنا ايضا •

ـ كيف ؟ أنت تعرف أين اسكن • أم انك نسيت هذا ايضا ؟

ـ وهل ينسى المرء فتاة رائعة مثلك ؟

ـ لكنــك نسيت •

ـ كلا كاتيا • أنا لم أنس شيئا •

ـ انت فتى لايعتمد عليه • سريعا ماتتخلى • غير انك لطيف مع هذا •• حين تريد أن تكون • كنت ضجرة جدا في حفلنا • أجل كنت سئمة • غير ان الامر عندكم يختلف • شد ماكنت ضجرة هناك •• فرأيت أن ازوركم • لاشيء يهمهم مني غير جسدي • لاشيء غير السرير • أما انت فأنسان أخر • انــت تحب لا للجسد وحده •• حين تحب • انهم لمضجرون فعلا • فيم هذا التهافت كله ؟ انا انتظر تلفونا منك • ليتك تعلم كم أنا سئمة ! بالطبع هم السبب • أنا أعني هذه الزمرة المتملقة الزائفة • لاشيء غير هذا الجسد • وكأنما الحيــاة ليست الا شراشف • اغبياء هم حقا ! أليسوا اغبياء ؟ وحمقى تافهون ايضا • فيم هذا كله ؟ فيم هذا البهرج وهذه الدناءة ؟ أنا انتظر تلفونا منك لنتزلج • اتذكر صبيحة الاحد في الضاحية ؟ أنا ابغضهم • بل احتقرهم •• لانهم حمقى • معك انت أحس بارتياح ، أحس بقلبي ينبض حبا • لكم توسلوا بي اليوم لانام معهم ! لاشيء غير هذه الرغبة المبتذلة • لانهم اغبياء • بالطبع اغبياء • فعــلا كنت أود ان اتنزه معك طويلا هذه الليلــة •• حتى الفجر في هــذا الطقس البديع • لكنني مرهقة جدا • فلقد شربت كثيرا • وهــم السبب بالطبع • أضجروني بتزلفهم فأخذت أشرب • جميل منك ان توصلنا • لكن أين هــو التكسي • اغبياء •• بالطبع اغبياء • لاتنس ان تتلفن لي • ليتك تعلم أي ملل كنت أعاني في هذه الليلة هناك ! لابد من ان تتلفن لي • لو كنت ادري لمــا شربــت •

•

اخيرا اوقفنا تكسيــا فركبتا • وعدت • تلــك كانت شقــة الصديقة الناصحة • وكان مرحهم في أوجــه • فأصروا أن أتنــاول كأسا ثانية قبل ان نخرج • ووجدت لينا مبتهجة جدا • وكانت تبتسم لي • ولقد سرها ان أجد

صحبها ممتعين • أيهمها أن يروني اصغر منها ؟ هذا ماخيل لي ساعتها باديا في ابتسامتها وزهو جبينها النقي • وحوالي الرابعة أردنا أن نودعهم • فألحوا أن نشرب ايضا • فأقترحت لينا ان يكون هذا أخر نخب معهم • ولم أكن لاعرف أيا منهم من قبل • انهم لجماعة ظريفة ، طيبة • وكان السكر بينا على بعضهم • وحين احتوانا الليل ، والثلوج تتهاوى رذاذا يابسا مائلا ، أحبت لينا أن تتجول قليلا • كانت الاشجار في ارديتها الناصعة ، والجو ملائما بالرغم من الساعة المتأخرة • كانت النوافذ مضاءة هنا أو هناك •• وفي الطريق مجموعة من الشباب تعود متأخرة • فحيتنا فتاة منهم بتحية العام الجديد هاتفة ، ضاحكة • كان بعضهم حاسر الرأس ، وبعضهم يتغنى • وكنت احتضن لينا واقبلها ، تحت الثلوج ، فتنزلق مني متدللة •

ثم فتحنا باب الشقة في تكتم • لم تزل المائدة مثقلة • فجلست • واخذت لينا تضحك • فأشرت باصبعي مذكرا بأمها النائمة • قالت :

ـ لكن فيم جلوسك ؟

ـ اريد أن اشرب قدحا وأكل شيئا •

ـ طيب • كل ماتشاء ولا تشرب الا قدحا واحدا • سأغير ثيابي وأعود •

وعادت في ثوب لم أرها فيه من قبل • كان شعرها الاشقر الكثيف محلولا ، ممشطا • وكان جمالها الجسدي يتأود خافقا ، مرتجفا تحت الحرير المنسدل • فبهت • ورحت أتأملها متأجحا •

ـ مابك ؟ ألم ترني من قبل ؟

ـ هوذا الجمال المتجدد •• كما قال الشاعر النواسي •

ـ لكنني نعسى وانت تشرب •

ـ وأنا الاخر يقتلني النعاس •

ونهضت لاقبلها • كانت الاغطية جديدة تلك الليلة ، وأية ليلة ! فتكومت

مهسلة ، تحت اقدامنا ، بعد حين • ونهضنا من نومنا ساعة الغداء •

وفرغت ، مرة ، من عشائي في مطعم الحي • وخرجت أسير تحت الثلوج المتهاطلة حثيثا • وكانت الرياح تهب رخية حينا ، قوية حينا أخر • وفوق هذه الرمال الثلجية المنبسطة هنا ، والمتموجة هناك •• تلوح أثار اقدام ندية سريعا ماتغمرها الثلوج • كان البياض الوثير يغطي كل شيء • واعالي العمارات ضائعة في القبة البخارية الداخنة البيضاء • والليل أبيض •

وعند الناصية من الطريق رأيت صبية واقفة ، ملتفة بفرائها الاحمر الداكن وعيناها تشعان زرقة ندية ناعمة • فأقتربت منها محييا • فأخبرتني انها تنتظر احدهم منذ ثلث ساعة • ولقد بدا لها أنه متعمد في تغيبه وتهربه منها • فأتفقنا أن تتجول معا في هذا الكون الثلجي الراقص المتطاير • وكان البرد يشتد لذعا ، ويداي في قفازهما توشكان أن تتجمدا • فعلمتني كيف ادفئهما • فأخذت حفنة من هشيم الثلج المتكوم ، وعصرته بين راحتي اعتصارا • ثم رميته وادخلت يدي ، ثانية ، في القفاز •

كنت اطوقها فتضحك ، واسترق القبلات من وجنتها المتوقدة • كنت أحب أن الهو ساعة معها •• عبر هذا الستار الكثيف من الثلج • ودفع بنا البرد الرهيب لان نسرع الخطى ، لان نركض ركضا • وفتحنا أول باب خشبي ثقيل ، باب عمارة ما • ووقفنا عند الدفاءة الكبيرة في المدخل منه • كانت الانابيب الغليظة ساخنة • فنشرنا أيدينا فوقها • ثم خرجنا الى الشارع ، حيث تراكم الثلوج كالتلال الرملية في البرية البيضاء • والريح القوية الغاضبة تطير بهشيمها • وفي الشارع تمر الحافلات خافتة صافرة في الهواء الصقيعي ألابيض •

كنا نحس بالثلوج ، تحت اقدامنا ، هشة ناعمة اول الامر • ثم اخذت تتصلب • ولم يعد بوسعنا البقاء في الشارع ، في الصقيع المتعاظم • وكان بيتها

يبا • فأوصلتها حتى بابه • واتفقنا على لقاء •

ــ غدا في السابعة مساء عند هذا المنعطف •

وانطلقت شبه مهرول • ماعلي الا الان اعبر الشارع المتدثر بالثلوج لاصل • فأبتدرتني المناوبة لائمـــة :

ــ أين كنت ؟ اتتنزه والصقيع في السابعة والثلاثين تحت الصفر ؟ كيف ؟ ألم تخف أن تتجمــد ؟

كان هذا نبأ جديدا علي • وأنا ؟ اكنت جادا في موعدي مع الفتاة ؟ ولعلها هي الاخرى ، فتاة الثلوج المتوردة ، لم تكن جادة • فلقد كتبنا موعدا فــوق الثلوج ، وستذهب به الثلوج والرياح في منتصف الليل •

وطلبت لينا في التلفون •

ــ أهذا انت ؟ كنت سأتصل بك بعد قليل • اسمع • ابق في غرفتك • لاتخرج • ان في الشارع بردا رهيبا لايحتمل • كنت افكر بك •

ــ سأجيئك في العاشرة •

ــ في هذا الصقيع اللعين ؟ كلا •

ــ بــل سأجيء •

ــ كلا • سأزورك أنا •

ــ لكن لماذا ؟ ماهي الاخطوات • وسأشرب قدح فودكا •

ــ مادمت مصرا •• هات كتبك وتعال الان • تدثر جيدا • وان كنــت افضل أن تبقى في غرفتك • اسمع •• لاتنتظر حتى العاشرة • سيكون البرد مقيتا عند ذاك • ارتد كل ماتستطيع أن ترتدي وتعال حالا • ماكنت لاقبل أن تجيء • لكنك عنيد •

وفي الطريق كنت أغذ الخطى بأسرع مايمكنني • وحمدت معطفي الثقيل • بل كنت أحسه خفيفا • ولكم ضقت ذرعا به من قبل • ولقد أعانني قـــدح

الفودكا اعانة بينة • أطلقت أم لينا ضحكة حين رأتني :

ـ أفي مثل هذا الصقيع ؟ آمور •• آمور !

وكنت أقبل لينا هامسا :

ـ أتريدين أن انزوي بعيدا عنك في هذه الليلة القطبية ؟

ـ لكنني كنت سأسرع اليك •

وجلست في البهو لاقرأ • ثم جاءت لينا قائلة :

ـ دع كتابك الان • ستقرأ بعد العشاء •

ـ لقــد تعشيت •

ـ أيــن ؟

ـ في المطعم • لم اكن ادري أنني سأتي مبكرا •

ـ طيب • سأعد الشاي بعد قليل •

ـ مارأيك في زيارتنا غدا مساء ؟

ـ ألديكم حفل في المنزل ؟

ـ كلا • أعني ان تمري علي في المعهد •

ـ وأي جديد هناك ؟

ـ ستشاهدين معرضا فنيا رائعا • معرض نيئز فيستني • هو معــرض خاص بالرمادية عند دستوبيفسكي • لالون غير الرمادي الخابي • وسيتحدث الفنان عن تجربته الفريدة • هذه لوحات لاتشاهد الا في مرسمه •

ـ بالطبع سأجيء • ومن أتاح له هذه الفرصة ؟

ـ زخارجنكــو •

وجاءت بالشاي بعد العشاء • كانت جالسة قريبا مني • فأحطت ظهــرها بذراعي • فأنفلتت ضاحكة :

ـ لن تقرأ جيدا هكــذا •

ـ سأقرأ .

ـ كلا . سأجلس قبالتكَ وأحوكَ .

ورأيت الارمتياج لاولَ مرة . كانت ندوتنا فيَّ رحلة الى لينينغراد . وفيَّ محطة موسكو كان الصباح ضبابيا كابيا ، غامرا زرقة المدينة الرمادية واقنيتها وجسورها . وفي اول الليل قرأنا أشعارنا في التلفزيون . وكان النهار جولة طويلة . دخلنا قلعة بتروبافلوفسكي حيث أوقف دستويفسكي وسجن جيرنشيفسكي . وابصرنا بنافذة الغرفة حيث شنق يسينين نفسه في الفندق . وزرنا غرفة راسكولنيكوف الضيقة : يحتل نصفها عمود حجري تراجيدي ثقيل ، وشقة المرابية حيث ارتكب جريمته . وفي الارمتياج كنت أتجول من قاعة الى قاعة . وفي الليل ، في الساحات المتدثرة بالثلج والضباب ، خيل لي أنني أرى طيفا هزيلا مرتعشا : أكاكي أكاكيفج في معطفه المهلهل تتناهبه الرياح .

كانت الاشجار خيوطا ناحلة سوداء ، مجللة بالثلوج . والزوبعة الثلجية تتاوى في طريقي الى مطعم الحي أو شقة لينا . وغالبا ماتداهمنا في نزهتنا الليلية ، نابحة ، مدومة تهيل في وجهنا هشيم الثلج المتطاير . احيانا يمر علي أندريه ، الشاعر الحزين . فأعد لنا الشاي . وأصغي اليه وهو يقص اخبارا طريفة عن بوشكين وبلوك واخماتوفا .. عن شعراء انتحروا أو هلكوا اوائل القرن ، وأخرين مابرحوا أحياء هرمين ، منعزلين في الزوايا من الادب والحياة . والثلوج تدور .

وبعد الحادية عشرة من ليلة الاحد ، كنت أعود مع لينا في الحافلة . كان يهمنا أن ندخل المسرح حيث الراقصة الاولى مايا بليستيسكايا في الباليت ، وساينا في الاوبرا . بعد ذاك كان سهرنا في فراشها . وحين تظمأ تلف نفسها بالشرشف وتنهض . لم تكن تحب ان تظهر عارية الا بين يدي وفي فراشها .

وتعود لتتمدد قربي • فأقبل وجهها وذراعيها وثدييها • واشدها ثانية الي • فتقول هامسة متأوهة :

ــ هذا انت ايضا ! هذا أقصى ماأتمنى •

وتمرغ وجهها بصدري • وحين نهدأ كانت تضم وجهها عندي ، ساكنة • وفي انفعالها الدافق تقبلني هامسة بألذ التعابير وارقها • كانت تمنحني عريها برحابته كلها مادامت بين يدي • وحين نتيق من سكرتنا تسحب الغطاء فـي هدوء فوق جسدينا • فأظل أشمها واتلمسها لاعود اليها ، فتهمس متضرعة ، وفي صوتها أهة ، وفي عينيها ذبول :

ــ أتريد ايضا ؟ دعنا نسترح قليلا •

كنا نسمع الزوبعة الثلجية تنتهب السطوح والطرقات • وفراشنا دافيء وثير • وكنت امسح بشفتـي حبات العرق عـن وجهها الجميـل ، الاخـذ بالاحمرار • وأحس بالنداوة الخفيفة في شعرها الاشقر الغـزير المتشوش • وكان صدرها الرائع الرحيب ينكشف لضوء المصباح الخافت •• فألثمه :

ــ لينا •• أي جمال غريب في وجهك وجسدك !

ــ هذا لانني أحبك • ولانني أحس بالبهجة العظيمة حين أراك معي •• في فراشنا وفي ايما مكان أخر •

ــ حتى في هذه الزوبعة الثلجية ؟

ــ وفي قلبها الابيض •

ــ مارأيك أن نقيم عرسنا في مهب الزوبعة ؟

ــ كلا • سنتجمد بردا • مارأيك أن تتزلج غدا ، وتتغدى في مطعـم الضاحية ؟ سنرى الغابة بديعة مدهشة •

ــ ونتتبع أثار الثعالب والارانب •

ــ ولربما لن نجد أثرا • لانها نادرا ماتزور هذه الامكنة •

ثم تقول مصيخة سمعها ؟

ـ ايروقك صفير الزوبعة الثلجية ؟ انها تئن وتنتحب وتقهقه .. انها تنوح وتضحك . اتسمعها ؟

ـ ماأجمل أن اسمعها وانت بين ذراعي !

ـ انها تبكي للحزانى المتوحدين .. لمن ينام وحيدا في هذه الليلة . وتضحك للاحبة المتعانقين .. للاحبة في اسرتهم الدافئة الضاحكة .

ـ أهي شقراء زرقاء العينين ؟

ـ كلا ياعيني السوداوين . هي باردة ، باردة جدا . ويخالها المتجمد في العراء فراشا مريحا . فأذا أغمض عينيه ، مرة ، وكف عن الحركة .. لن يفيق بعدها . اتسمع خيلها الصاهلة ، المندفعة في جنون ؟

ـ كنت اسمعها صفيرا ناحلا فوق السطوح . وتدق على النافذة ، فأتذكر لوسي جراي : طفلة وردزورث الضائعة في سهوب العاصفة الثلجية . خرجت بقنديلها لتضيء الطريق لامها العائدة من المدينة . فضلت دربها تائهة وحيدة . وظل الوالدان ينادبان في كل مكان . وفي الصباح وجدا أثارها منتهية عند الجسر الخشبي المنهدم .

ـ هذه اغنية كئيبة . اكنت وحيدا تلك الليلة ؟

ـ كنت وحيدا وحدة المنار المنطفيء في ليلة البحر العاصفة .

ـ وأين كنت أنا عنك ؟ لو كنت أعلم لطرقت بابكم على المناوبة ، وايقظتها لتقودني اليك . لكنك لن تكون وحيدا بعد الان .

وقصصت عليها قصة أحمد القفقاسي ، وصعوده فوق سلم الاطفاء في منتصف الليل . فأخذت تضحك ممسكة بذراعي . وكانت الثلوج تنهمر ، والزوبعة تنأى شاكية ، لتعود قوية متلاطمة . وتكلفت لينا الانتباه قائلة :

ـ اتسمع طرقا على نافذتنا ؟

ـ لا اظنـه أحمد •

ـ فمـن تظن ؟

ـ هذه وحدتي القديمة تطرق عليك •

ـ طيب • لن ادعها تنتظر • سافتح لها •

ـ كلا • لاتفتحي • انها تستطيع أن تتسلل • انها أتية • هاهي ذي • ها هي وحدتي المتشوقة كلها تضمك وتقبلك •

ـ ماذا تفعل ؟ أوه كلا • فيما بعد • اتنظر • قلت لك فيما بعد • انك تؤلمني • كلا • ليس كثيرا • بل هو ألم لطيف • انت تعرف كيف •• انمـا بهدوء • هكذا • هكذا ياعيني الوحيدتين • اوه •• هكذا •• هكذا •

وفي اول يوم من العطلة الصغيرة ، وكنا في سينما اريول ، فأجأتهـا بخمس تذاكر الى المسرح • فأمسكت بيدي قائلة :

ـ لكن هذا كثير • هذا يعني اننا سندخل المسرح كل يوم تقريبا طوال عطلتك • كيف حصلت على هذه التذاكر كلها ؟

ـ انسيت صديقتي بائعة التذاكر ؟

ـ ماألطفها ! ابسن وبرناردشو واوسكار وايلد !

ـ وروزف وبغوديـن !

ـ سيكون اسبوعا مسرحيا حافلا !

كنت أقرأ طوال النهار • واتغدى في مطعم الحي مع قدح بيرة • واعود لاقرأ حتى السادسة • واخرج لانتظرها عند ناصية الشارع • وحين أقضي النهار في مكتبة الاداب الاجنبية •• كنت اترقبها في السابعة الا ربعا عنـد المسرح • أو اجدها منتظرة جوار المدخل •• أو في المدخل نفسه ، متأملـة صورا من المسرحية معلقة فوق لوحة • وحين نرتقي الدرج المرمري يعجبها ان تأخذ بذراعي • كان يسرها ان ترى الاخرين ناظرين الينا بأهتمام ورضا •

ووصلتني مكافأة جيدة عن قصيدة لي ترجمها صديق اوزبكي • فأردت أن نسهر في مطعم • فانطلقت تتهكم ، متخذة نبرة امها :

ــ أين عقلك ؟ أتنفق مالك على النساء ؟

ولم تشأ ان تتعشى في المطعم • بــل أصرت ان انتظرها قــرب مطعم صغير قبالة مترو ايسمايلوفسكي ، حيث تعمل على مقربة منه •• وحيــث تتغدى كل يوم عدا عطلة الاحد • كــان هذا نكاية بــي • ومضيت لاقف هناك • ورأيتها قادمة بين صاحباتها • وكن بلا معاطف ، في روب العمــل الازرق وحده •• وحاسرات الرؤوس في البرد القارس • وكن يغذذن الخطى ضاحكات تحت الثلوج المتهاطلة • ولم تدعني ادفع • كانت تقول مبتهجــة بي :

ــ أنا اتغدى هنا كل يوم • هذا مطعمي •

واحطن بي ، عند المائدة ، فرحات • وجعلن من رحلتي الطويلة هــذه فكاهة يتندرن بها ضاحكات :

ــ هكذا اذن • جئت تقطع هذه المسافة كلها مرغما •

ــ بل سأجيء غدا وبعد غد • هذا مطعم ممتاز • وسأجيء كل ثلاثاء • أين اجد مثل هذه السلانكا •• وهذا الفينكريت ؟

قالت لينــا ضاحكــة :

ــ أتظن انك ، بقولك هذا ، ستحرمني من ان ابتهج بتغلبي على رغبتك المكينة ، رغبة التسكع في المطاعم الفاخرة ؟ يكفي ان اتصور ركوبك الحافلة والمترو ، ووقوفك ، هنا ، في الصقيع •• تنتظرني من اجل غداء في مطــم صغيــر •

ــ بل فعلت خيرا • فلقد اكتشفت مطعما جيدا •

قالت رايا ، وكانت اكثرهن تهكما :

ـ في هذه الحالة ستكون هي الرابحة •

ـ كيـف ؟

ـ سيتوجب عليك ان تدفع عنها كلما جئت •

فأزداد مرحهن • قالت لينا مازحة :

ـ ارأيت ؟ سأتغدى مجانا كل يوم •

قـالت رايـا :

ـ سنرى كيف تلتزم بوعدك •

ـ سأجيء • وستريـن •

ـ وكل ثلاثـاء ؟

فأعترضـت لينا :

ـ ولماذا نرهقه ؟ يكفي ان يجيء غدا •• وحتى تنتهي عطلته •

ـ ومن أجبره ان يعد ويصر ايضا ؟

ووجدتها رحلة شاقة في اليوم التالي • كانت الريـح لاذعة ، وكنـت واقفا ، منتظرا مقدمهن • واقبلن تحت قبة الممر الثقيلة • ورأينني فأخـذن بالضحك والتندر • وهتفت لينا لائمة :

ـ ألم اقل لك لاتأت ؟ فيم هذا العناد ؟

كانت رائحة المطعم شهية ، طيبة • وكان دافئا جدا بعد انتظار في مهب الريح القارسة • وكان حساء البـورتش ممتعا ، بمذاق البنجـر والكرنب واللحم • غير انني كنت افكر بعودتي وحيدا • وكانت رايا المتبرجة فرحـة بمحنتي مع الصقيع والطريق • وقالت لينا ، وقد سرها أن اتغدى معهن :

ـ اتقطع هذه الطريق كلها من أجل حساء ؟

ـ أو ليس اكتشافا ان اجد مطعما كهذا ؟

وترد رايـا متهكمـة :

ـ ولا اكتشـاف كولومبس !

وكنت راجعا مساء ، مرة ، الى البيت . فوجدت ورقة بأسمي :

« سأمر عليك في السابعة . انتظرني .

لينـا »

موعدنا اليوم في العاشرة .. فأي جديد ؟ وخرجت في السابعة لانتظر .

كانت لينا واقفة ، في فرائها ، تبتسم لي :

ـ اردت اخبارك قبل يومين . غير انني لم أشأ ان ازعجك . سأتغيب عنك عشرين يوما ، وربما تزيد . لاتكتئب . لم استطع اعتذارا . هذا أمر .

ـ أهي مهمـة عمل ؟

ـ اجل . سأسافر في بعثة عمل عبر الاورال . اوه .. قلت لاتتجهـم سأكتب اليك يوميـا .

ـ ومتـى تسافـرين ؟

ـ غـدا .

ـ غـدا ؟

ـ أجل . ولهذا جئت في السابعة . أوصيت صاحباتي بك . يمكنك أن تلتقي بهن وتزورهن . وستصحبك رايا الى السينما . اترى كيف أهتم بك ؟ والان اريد أن نقضي أمسية رائعة . أين تقترح أين نذهب ؟

ـ الى ذلك المطعم .. مطعم الحي .

فأخذت تضحك ضحكا خافتا :

ـ كلا . لن اعاندك هذه المرة . اختر أي مطعم تحب .

ـ بل اقترحي انت .

ـ كلا . انت من يقترح . لانك ستكون ضيفي .

ـ أهـو مزاح جديد ؟

ــ ألن تتيح لي ان ابتهج ، مـرة ، بدعوتك ؟ بالطبـع ستتيح لي ..
مادمت راحلة غدا . لنمض . وسنركب التكسي ايضا . اترى كيف أدللك ؟
قلت لاتحزن .. أنس الامر . ودعنا نمرح . وفكر أين سنسهر .

واتجهنا ركنا في المطعم الجيورجي . وجعلت لينا تتكلف المرح تكلفا باديا . كانت غائمة العينين وهي تتطلع الي . فأخذت بالتسرية عنها حتـى انجلى الغم عن وجهها . وكنا نرتشف خمرة وردية رائقة . وكنا نحس بمذاقها حامزا قليلا . وخرجنا ، بعدها ، تحت الثلج المتراقص حثيثا .

كان الليل يعتم مبكرا . وفي الحافلة الممتلئة الخافقة .. كنت أعانـي كآبة ووحدة ، والوحشة تكتنفني في الطريق . وعلى جدار غرفتي أرى لينـا تبتسم لي تحت شجرة المشمش المنعزلة . وعدت أمر على جيلي وجون متأخرا لنشرب الشاي . ووحيدا كنت اذرع الرصيف الى السينما لاعود وحيـدا بين العشرات . وكنت أعلل النفس بعودة لينا وضحكتها الصافية ، ونظرتها الباسمة الساخرة . واتذكرها في ثوبها الطويـل المنكشف عـن الذراعين البديعين فأحن .

كان اليوم هو السبت . أي أسى أن تسير وحيدا في أمسية السبت !
كان شارع غوركي يعج بالفتيات . والصفوف طويلة عند مداخل المقاهي .
هنا يمكنك ان تحظى بوقت ممتع مع ثلاث أو اربع من الصبايا الغريبات .
تجد مقعدا خاليا بينهن ، فتسألهن راجيا وتجلس . ويدور حديث . وقـد تتفق مع احداهن على لقاء غدا مساء . ولم اكن راغبا بشيء من هذا بعـد امرأة كلينا . وفكرت بزيارة غازي أو عمر وعبد الله . غير أنـه السبت . ولربما لن أجد احدا في غرفته . قلت سأقضي ساعة في مقهى الفندق مـع التبغ والقهوة المرة . وفي الركن من المقهى كانت صبية فاتنة تتأملني عبـر دخان لفافتها . ورأها غائب تبتسم لي :

ــ ماذا تنتظر ؟ اذهب اليها •
ــ وما حاجتي لموعد أو تلفون ؟
ــ اتريدها في سريرك بعد خمس دقائق ؟ ينبغي ان تنتظر يوما في الاقل •
ــ لاعني هــذا •
ــ بل تعنيــه •
ــ سأجد بغيتي في امرأة عابرة ما •

وعدت وحيدا ، موحشا في الحافلة • ومكثت مرابطا عند المناوبة •• اتصيد زائرة تلقي بها الصدفة بين يدي ، قادمة من ايتما جهة من جهات البلاد الاربع • ورن التلفون • كانت رايا المتبرجــة الممازحة • انها تنتظرني مــع صديقتها زويا عند السينما المركزية • فأسرعت اليهما في التكسي • فصحبتاني الى سينما بعيدة لااتذكرها • كان الفلم هو « الحرب والسلام » الاميركي •

وبعد العاشرة طلبت الى التلفون • هذه هي لينا :

ــ هل اتصلت بالفتيات ؟
ــ صاحباتــك ؟
ــ بالطبع • أنا لاعني صديقاتك ممن لاعرف •
ــ كنت ، منذ ساعة ، مع رايا وزويا في السينما •
ــ رائع • لاتبق وحيدا فتكتئب • اتصل بهن كلما احسست وحشة •• انهن لطيفات • ويسرهن أن يرنك •
ــ طيب • كيف انت ؟
ــ بخير • مر على أمي لتتعشى معها كل يــوم •
ــ لااستطيــع •
ــ كيف ؟ أهي بعيدة ؟
ــ لاأحتمل الشقة خالية منــك •

ـ دع عنك هذا • ينبغي أن تأكل جيدا •

ـ سأكل في مطعمك •

وسمعتها تضحك • مع أن رنة الاسى كانت بادية في صوتها •

ـ اسمع • لاتنقطع عن رؤية صديقاتي •

مرة كنت انتظر المصعد في الطابق الاول من البيت • وانفتح الباب فبهت : عينان سوداوان متوقدتان تحدقان بوجهي • فأحسست برجفة • أهذه امرأة في مصعد أم جارية من الشراكسة أو الكرج ؟ أنا لم أرها من قبل • أهي زائرة ؟ أجل • هذه جيورجية أو كرجية كما يقول اجدادي • هاتان العينان كالفحمتين المتوقدتين ، والخد الناصع الاسيل ، والقامة العالية المائلة الى النحول قليلا ، والشعر الاسود الناعم الغزير يذكر بالجيورجيات •

ورأيتها ثانية ، خارجة من المنزل • وكانت ترامقني وعلى شفتها طيف ابتسامة • وكانت أخذة بيد طفل • أهي مع زوج ؟ ورأيتها تحدجني بنظرة طويلة مشتعلة • وقلت لصديق كان واقفا هناك ، متعمدا أن تسمعني :

ـ ارجو ان تخبر جيلي أنني سأعرج على المطعم بعد قليل •

وسرت باتجاه المخزن • ورجعت ، بعد دقائق ، قاصدا مطعم الحي • فوجدتها هناك وكأنما تنتظر احدا • فأقتربت منها • فأطرقت باسمة ، غاضة عينيها • وكنت مترددا • فتركتها وعدت • وظللت اتحاور مع المناوبة ، مترقبا عودتها • وحين دخلت تبعتها لافتح المصعد • وابتدرتها قائلا :

ـ اتسمحين بسؤال ؟

ـ تفضل •

ـ لست روسية كما أرى ؟

ـ أنا جيورجية •

ـ اتمنى لك أقامة مريحة •• طويلة هنا •

ـ شكرا • لكنني سأغادر بعد يومين •

ـ أوحدك هنا ؟

ـ أنا مع صديقة •

وجعلت أسير معها في الممر • قلت :

ـ هل استطيع رؤيتك ثانية ؟

ولم تجب بشيء • انما كانت تبتسم في ارتياح •

ـ هل تسمحين لي بدعوتك ؟

ـ لكنني مع طفلي • وصديقتي لم تعد بعد •

ـ فأذا عادت •• كيف يمكنني أن أراك ؟ هل أمر عليك ؟

ـ كلا • أين تسكن ؟

ـ في الغرفة ٢٠٨ في الطابق الخامس •

ـ سأحاول أن أمر •

واسرعت الى المخزن لاجيء بقنينة خمر وفاكهة • وبقيت في غرفتي اقرأ منتظرا • وفي العاشرة من الليل كنت يائسا • واردت ان اخرج لازور جيلي أو اندريه •• حين سمعت نقرا خفيفا • وفتحت • كانت هي :

ـ جئت لاجلس دقيقة وارجع •

وجلست كالخائفة • كانت قلقة • وكان جمالها ساطعا ، وشعرها الاسود اللماع متهدلا • وكانت الخمرة والفاكهة فوق المائدة • وفتحت الزجاجة وصببت • كانت تقول في شبه ذعر :

ـ لكنني لن امكث الا دقيقة •

ـ لابد من كأس معك •

وفي الثانية عشرة من الليل ، بعد النبيذ وتغزلي بها ، كانت لينة بين يدي • وكان جسدها نقيا ، حارا • لم تنزع قميصها أول الامر • غير أنها نزعته بعد

حين . هذه امرأة كالشهاب العابر ، يخفق في الحياة ، مــرة ، مضيئا باهرا .. ويختفي في الظلمات . وحين أعود الى ملحمة روستافيلي الكبيرة « انسان في جلد نمــر » يتسلل الي طيفها هامسا من بين شعرها المتهدل :

ــ ساتذكرك طوال حياتي .

وتحت اشجار دوبرولوبوف الناحلة التقيت بالعينين المتورمتين . لــم تكن الثلوج تتساقط ذلك المساء . وكانت السماء داكنة قاتمة . ورأيتهـــا متمهلة الخطى في نزهة المتوحدين . كانت شقراء ممتلئة . وابصرت بعيونهـا الباكية فكدت اعتذر . غير انها امسكت بذراعي متلهفة ، وقالت متوسلة ، ودموعها تنهمر قطرات كبيرة :

ــ انت عربي ؟

ــ أجــل .

ــ وتعيش في هذا البيت ؟

وأشارت الى المنزل الجماعي التابع لمعهد الطب الثاني ..

ــ كــلا . نحن جيران .

ــ اتعــرف محمــدا ؟

ــ طالب الطب ؟ أعرفه .

ــ اترى مدامعي هذه ؟ انني أحبه . لكنه عازف عن رؤيتي . ارجــوك خذ هذه الرسالة اليه . وجئني بأي جواب . أنا منتظرة هنا .

كان محمد في غرفته مع اصدقائه . فأخبروني ، ضاحكين ، انها لم تترك عراقيا منا دون ان تحمله رسالة مثل هذه . ورجاني محــمد ان انصحها بأن تدعه وشأنه . فلقد افهمها أنه لن يتزوج . وعدت حاملا اليها رسالتها وردا قاطعا بدا لي أنه غير جديد عليها . وودعتها ، أملا ان تنسى ، فالزمن كفيــل بأزالة لوعتها قريبا . فتشبثت بيدي :

ــ اتتركني هكذا ؟

ــ وماذا بوسعي أن افعل ؟

ــ اني لاشعر بكآبة فادحة • لاتتركني •• انني اتوسل اليك • لنمض الى أي مقهى • أريد ان اشرب معك ، عسى أن انسى احزاني ساعة •

فتطلعت الى عينيها الجميلتين الدامعتين فأذعنت • ماأنا بالصخرة لاتحركني هاتان العينان المتورمتان • فركبنا حتى ساحة بوشكين • وادخلتني مقهى لم أره من قبل • كنا نتجرع نبيذا أحمر • وكنت أقص عليها اخبارا مضحكة تسلية لها • وهي تبتسم وتضحك بعينيها الباكيتين ، حامدة لي طيبتي وصبري معها •

ومساء في اليوم التالي •• طرق بابي :

ــ هناك فتاة تنتظرك في الشارع •

وهبطت لاجدها • ورجتني أن تتمشى قليلا • كنت أصغي ، دون رغبة مني ، اليها شاكية عذابها وهيامها • وتضرعت الي ان ارفق بها وأخذها الى المقهى لتتسلى وتنسى • قلت : لابأس بصحبتها هذه المرة • وسأعتذر حين تجيء ثانية • يكفي أنني أضعت معها امسيتين • وفي المقهى وجدتها اكثر اندفاعا في ذكرياتها فصبرت • لكن ماادهشني أنني رأيت وجهها متهللا ، باشا بعد الكأس الاولى • لقد انقشعت الغيوم ، فجأة ، عن تقاطيعها الحلوة • أكان يهمها أن تسامر عراقيا من أهالي الحبيب ؟

حين خرجنا من المقهى كانت تشكرني راجية أن احتمل رفقتها : انها تعاني وحشة رهيبة ، وتجد في طيبتي ملاذا وحيدا لها • وانها ستمر علي غدا مساء • فما استطعت اعتذارا ، متأثرا بضراعة عينيها الكبيرتين •

لكنني غادرت المنزل قبل مجيئها • وبقيت عند فلاح ساعة • وحين عدت كانت جالسة بالقرب من المناوبة صامته هادئة • وحالما رأتني علت وجهها فرحة

غامرة . وفي الطريق كانت متعلقة بذراعي وكأنني سأفر . وفي المقهى مـــع النبيذ الاحمر كانت مرحة ، منطلقة في الحديث . وكنت افكـــر بخطة تبعدها عني . سأقرأ مساء في المكتبة العامة ، في الجناح الخارجي من المنزل . ولــن أخرج حتى تغلق المكتبة بابها .

وكانت خطتي خير مهرب . وخلال ثلاثة أيام كانت الانباء تصلني عـــن فتاة شقراء تنتظرني عند المناوبة ، ساعة كل مساء ، مترقبة صامته .

وقصصت خبرها على رايا وزويا .. فضحكتا طويلا . وكنا في الطريـــق الى سينما اودارنك .

كان إسبوعا مملا . وكنت وحيـــدا في غرفتي . لاشيء غيـــر الشاي والكتاب والتبغ . والثلوج تتخافق عبر النافذة . وكنت احاول التقرب مترددا من غالينا موظفة الادارة الطويلة الشهية . رأيتها اليوم في بوفيت المعهـــد .. تختار من البرتقال ماتشاء ، وتزن لها ماتنتقي . كانت النادلة الوحيدة خـــارج البوفيت . وكنت أنتظرها لاخذ افطاري . وابصرت بي غالينا . فنزعت عنها معطفها وانحنت على البرتقال .. لتريني ظهرها القوي الرائع . وكانت تظهر لي ودها منذ سنتين . وكنت مترددا .

كانت الليالي تمر باهته موحشة . وكنت اسمع الضحكات في الغـــرف الاخرى . وزجاجة الفودكا تنتظر ، عبثا ، في خزانتي . وكانت ليلة أحد . وفي الساعة الحادية عشرة مضيت لاعد شايا في المطبخ . فرأيت امرأة شهية جميلة في الاربعين . ولعلها في الخامسة والاربعين . كانت ممتلئة كما أحب . كـــان وجهها مكلثما بيضويا . وخداها في لون البنفسج النضر . وكان رداؤهـــا البنفسجي منسدلا فوق امتلائها الوثير . وكانت تهيء عشاءها . هذه ضيفة أراها لاول مرة . كانت حيية خجلى ، وهي ترى اعجابي باكتافها واردافهـــا الباذخة . وكنت أحط بنظرتي الراغبة فـــوق صـــدرها الاربعيني الممتليء .

ورأيت شفتيها الممتلئتين تختلجان . كانت تحس باشتهائي وتأملي ساقيهـــا الطويلتين الممتلئتين فتطرق استيحاء . حييتها بلطف . ورحت اتحدث معها .. هي روسية من ريفا .. تحل منزلنا منذ ثلاثة ايام . وسترحــل غداً مساء . وسألتني من أين أنا ؟ وماذا اكتب ؟

ـ كيف فاتني أنني لم أرك ونحن في الجناح من الطابق نفسه ؟

فأجابت باسمــة :

ـ أنا أعود متأخرة مــن المسرح أو السينما . وانت طــوال النهار في المعهــد .. ولهذا لم ترني . كيف انت مع جونا القارس ؟

ـ لقد اعتدت عليــه .

كانت تسألني وتتحدث في هدوء وحياء . قلت :

ـ هل لك ان تتفضلي وتشاركيني شايي ؟

ـ أنا لم أتعش بعد . جئت متأخرة . تفضل وتعــش معي . وسنشرب الشاي فيما بعد . مع أن عشائي متواضع .

ـ انه عشاء شهي . وتسرني دعوتك الكريمة .

ودخلنا غرفتها . كانت في شقة الجناح المشرفة على شارع روستافيلي . وتذكرت الفودكا . فسألتها أن أتي بها . فأبتسمت قائلة :

ـ في هذا الوقت المتأخر ؟

ـ غدا عطلــة .

ـ لابأس . سأشرب معك قدحا .

كان شعرها الكستنائي معقوصا من الوراء . وكان كثيفا جدا . كانت طوال الوقت هادئة . حيية معي . وكنت اتحاشى النظر الى امتلاء ثدييهــا الشهيين . فكانت تسبل أهدابها في شبه ابتسامة خجول . والفودكا تقــرب مابيننا .. فرحت احدثها شتى الاحاديث عن الادب والفن . واقول كيــف

فاتني أنني لم التق بها الا في آخر يوم •

ـ فعلا كنت وحيدة • لو أننا التقينا في اول يوم لما أحسست بأية وحدة • مع هذا لابأس • هذا أفضل من ان الا نلتقي • سأعود في بداية الصيف ، بعد الامتحانات •• فأن لم تكن منشغلا سأراك • ستكون اجازتي أطول • انني ليسرني أن اراك ثانية •

كان اسمها أولا • وكان عنقها البديع ناصع البياض • لم اكن متسرعا معها • لم امسك بيدها • ولم احاول مغازلتها • فالفودكا خير سبيل أخر الامر • ومنذ رأيتها وهي تعرف رغبتي بها • كانت الساعة تدنو من الثانية • وكنا نعلم أننا سننام معا • لااتذكر كيف جعلت اقبلها • وجدتني منتقلا بمقعدي جوارها • أقبل وجهها وفمها • وكانت تقبلني قبلا طويلة حارة •

كانت الفودكا آخذة بالانتهاء • فصببت البقية في قدحينا • غير أننا لم نشربهما • فظلا نصف ممتلئين حتى الصباح •

اتذكر انني وقفت وراءها • فأخذت بكتفيها • وأوقفتها برفق • واقتربت بها من السرير • وقلت هامسا :

ـ سأنزع ثيابي قبلك •

كنت متمددا في فراشها • وكانت جالسة على حافة السرير ، ويدي تشدها الي برفق • فرجتني أن استدير لتنضو •

كانت الزوبعة الثلجية تدق النافذة • وكان عريها الابيض الناصع الحار بين ذراعي • كان عريها متفايضا ، مالئا فراشها • كانت تمرغ وجهها بصدري •• متأوهة أهات عميقة ، حبيسة منذ سنين :

ـ انت في عمر ابني !

وتقول بعد حين :

ـ الى أين ترفعهما هكذا عاليا حتى السقف ؟

كان خجلها الجميل منطويا علـى عطاء دافـق • وكان صوتها كالانين الضعيف حينا •• فاحا ، حارا كالصراخ الخافت حينا أخر :

ـ انني اتهدم • وأحس بحليبي يتفجر • انت ترضعني •• ارضعني • الت تنتهبني ، وتهزني هزا • أنا ممرغة بك •

وحين عادت في قميصها انحنت علي وقبلتني متضرعة :

ـ كيف أمحو أثارك الداكنة عن صدري واكتافي ؟

فنهضت لاعريها • كان شعرها الكثيف يغطي اكتافها • وتمددت تحت الغطاء ثانية ركبتيها • فرأيت الغطاء يتقوس كالخيمة العظيمة فوقهما •

ـ كيف جرى الامر ؟ أنت في عمر ابني •

ـ انها لصدفة رائعة أن التقي بك •

ـ أكنت أهـذي ؟

ـ ان لك جمالا فذا لاينسى •

ـ وكنت تلثم فخذي مبتهلا •

ـ حين رأيت وجهك وامتلاءك رحت أتضور رغبة •

ـ أتدري ؟ لو أنك تسرعت معي لما جرى الامر • كنت سأحس بالاساءة وارفض •• كنت سأشعر أنك تهينني • لانني لم أدخلك غرفتي الا لنتحدث • مع أنني كنت اعرف رغبتك بي منذ اول نظرة • غير انك كنت هادئا طوال ثلاث ساعات • وكنت لطيفا ، طيبا في لهجتك ونظرتك •• فأحسست أنـك تحترمني • وكنت أقول لو انه سيستمر في احترامه لي •• سأكون له • وكنت أتمنى ان تظل هادئا حتى اللحظة المناسبة • فلقد كنت اريدك كثيرا • أجل • كنت سأحس بالاهانة لو أنك تسرعت • فما أنا بالفتاة الشابة الصغيرة لاتقبل المركب السهل معي • مع انني كنت راغبة بك جدا • غير ان احترامك لي هو ماجعلني ارتضي ان اكون لك •

ـ فلو أنني اصررت وبذلت جهدا ؟

ـ ماكنت لاقبل بالطبع ٠ هذا يجدي مع غيري ٠٠ مع فتاة ٠

ـ مع أنك راغبة ؟

ـ أجل ٠ مايهمني اولا هو احترامك لي ٠

ـ فأية اساءة في أن اقبلك عنوة ، واحاول جاهدا معك ؟

ـ لاتنس انني ادخلتك غرفتي في ساعة متأخرة من الليل ٠ فلو انني ارتضيت تسرعك ، متصنعة الرفض ، لكنت رخيصة في نظري نفسه ٠

ـ اذن لفاتني هذا كلــه !

ـ بالطبع كان سيفوتك ٠ لكنك كنت حكيما فأرضيتني ٠

فأخذت اقبل وجهها وصدرها وفخذيها ٠٠

ـ يافتاي الحبيب ٠ ليس الان ٠ فيما بعد ٠ أوه ٠٠ اتريـد بعد هذا كله ؟ مع أنني مرهقة ٠ كلا ٠ لست مرهقة كثيرا ٠ انك تأخذني بلطف ٠ أي هناء هذا ! أية متعة فائقة ! يافتاي الحبيب ٠ ماألذ هذا ! أنت في عمر ابني !

بعد اكثر من ساعة كنا مستلقيين عاريين ٠ فنهضت لارد علينا الغطاء ٠٠ فسمعتها تهمس همسا خافتا :

ـ انت تغطيني ؟ شكــرا ٠

وكان وجهها البيضوي متوقدا ، جميلا جدا ٠ فأزحت شعرها الكثيف لاتطلع ٠ وكانت عيناها شبه مغمضتين ٠ فكنت أرى اشعاعهما أزرق خافتا بعيدا ٠ ونهضت لاشرب ماء ٠ كان باردا جدا ٠ وعدت أتمدد قربها ٠ وكانت الزوبعة الثلجية ماتزال تدق الزجاج ٠ وكنت أصغي لانين الرياح وصفيرها ٠ وسمعت حافلة الفجر تمر خافقة تحت النافذة ٠ وظللت أصغي مدة ٠ ثــم أخذت الامس بطنها براحة يدي ، فأحس به وثيرا دافئا ٠ ولم تتحرك انمــا قالت هامسة :

ـ اوه .. لاتثرني . أنا مرهقة .

ومدت يدها فلمستني برفق :

ـ لكنك تـريد .

ـ سأنتظـر .

ـ كلا . انت تريد . تعال .. تعال .

وكانت هذه المرة كالبحر الدافيء الرخي . وظللت أسبح في لعيمها المائج لطفا ولدانة . ونهضنا بعد نوم عميق طويل . وانحدرنا لنتغـدى في مطعم الحي . وكنا جائعين جدا . وتجولنا ساعة . ثم رجعنا الى غرفتها . فـأردت أن تتعرى . قالت :

ـ كلا . من الخير ان اتركك راغبا بي . هكذا أفضل . سأعود في بداية الصيف . لن اكتب لك . هذا حزين جدا . لو كان شهرا واحـدا لكتبت . لكنها شهور . وحتى حين أعود ، لن اترك لك خبـرا . لاأريـد ان افرض نفسي . من يدري ؟ ربما سأجدك ناسيا تماما . سأترك الامر كله لك . انت حر . تنتظر أولا تنتظر . لكنني سأعود . سأعود حتما .

ـ وكيف سأراك اذن ؟

ـ أنا اعرف متى تنتهي امتحاناتكم . سأجـيء بعدها بيـوم أو يومين لااكثر .

ـ طيب . سأسأل المناوبة عن رقم غرفتك .

ـ تستطيع هذا . وتستطيع شيئا أخر .

ـ ماهو ؟

ـ في الليل حين اعود متأخرة .. سأجلس فوق مصطبة الحديقة . والان لنأخذ حقيبتي . سنودعها في المحطة ، ونتجول في المدينة حتى تحين ساعـة الرحيل . أحب ان اتجول معك واتحدث .

حين كانت تتقدمني كنت أتأملها معجبا • وحسدت صدفة سخية رمتها بين ساعدي ، وأنا أعد شايا في مطبخ • تلك هي غرائب هذا المنزل وعجائبه ! ألم تضع اوزبكية شهية قبالة غرفتي ؟

وعدت وحيدا لاقرأ • وجاء جيلي متأخرا لنمر على جون • قال جيلي :

ـ رأيتك اليوم مع امرأة رائعة •

ـ ألم تجدها شبيهة بصاحبتك مربية الاطفال ؟

ـ بلى • تشبهها • لكن صاحبتي عادت لصديقها •

ـ وهذه عائدة الى مدينتها •

وزرت أم لينـــا :

ـ أهدية ايضا ؟ انت لاينفع معك نصح • اوصلتك رسالة من لينا ؟

ـ سبع رسائل حتى الان •

كانت أمها تضحك جذلة :

ـ هكذا اذن ! وأنا لم تصلني منها الا رسالة واحدة • لكن انت •• أين انت ؟ الم توصك لينا بأن تمر علي لنتعشى كل مساء •

ـ لااستطيـــع •

ـ ولمـــاذا ؟

ـ لااحتمل غيابها عن الشقة •

ـ مجنون أخر ! هي مجنونة وممثلة •• اتمثل مثلها ؟ هل اخبرتك متى ترجع ؟

ـ ستتأخر خمسة أيام أخر •

ـ اذن ستعود بعد اسبوع • كلا • بعد ثمانية أيام •

كان الليل موحشا ، متلبدا • وكنت أدخن وأكل بلا طعم •• غيـــر طعم الوحدة المرير • وكأنني لم اكن مع اولا • كانت ليلتها اشبه ••

كانت حلما بعيدا . كنت أقرأ في غرفتي طويلا حتى الثانية عشرة من الليل . وكانت لينا بعيدة ، هي الاخرى ، وراء الاورال . وتذكرت الاستاذة الشابة فضحكت من نفسي . كنت ارتدي معطفي ، امام المرآة ، بعد أخر محاضرة . وكانت ترتدي معطفها صدفة بجانبي . فأبتدرتني قائلة ، وكنت في معطفي الخفيف المبطن بالفراء :

ـ انت ترتدي خفيفا !

فأظهرت لها البطانة فضحكت . قلت :

ـ هل يمكنني أن اوصلك قليلا ؟

ـ تفضل .

واجتزنا الشارع . أخذنا طريقنا في ممر البولفار المديد . كانت ممسكة بذراعي ، متبسمة . وكانت السماء الليلية داكنة . وسألتها ان كنت استطيع لقاء معها . فردت ضاحكة :

ـ كم من صيف ، كم من شتاء !

أي كم مر من زمن على لقائنا الاخير . كنت قادرا ، طوال تلك المدة ، أن اسألها . فقد تخلو شقتها يوما . ولم اسأل . كنت منشغلا مع لينا . وكانت تعرف أنني كنت منشغلا مادمت صامتا . وهل كان يشفع لي أنها متزوجة ولديها طفل ؟ فما كنت استطيع لقاءها الا نادرا ؟ كانت مرحة معي . وكنت أحاول تقبيلها في البولفار الخالي ، فتنزلق مني ضاحكة :

ـ واين كنت مني طوال هذا الزمن كله ؟

ثم أضافت باعتداد :

ـ كانت الشقة خالية قبل اسبوع !

ـ لو كنت أعلم !

ـ طيب . كف عن تحسرك . أنا مازلت أحبك . أما انت ..

ـ لاتقولي هذا • انظري الي •

ـ لكنك كنت تحبني •• فكيف نسيت ؟

ـ أنا لم انسك يوما • وسأظل احبك طوال عمري •

كنت أحبها واحب لينا في أن واحد • اكنت أحب فيها تلك المرأة الاخرى ؟ قالت ، فجأة ، وقد أحست بنبرة الصدق في صوتي ، وفي نظرتي الغائمة :

ـ ان مايحيرني هو صمتك الطويل هذا •

ثم سألتني :

ـ لكن مابك ؟ لاتحزن • سأتحين فرصة ونلتقي • ربما في اول الصيف •

قالت عبارتها الاخيرة ضاحكة ساخرة • وعدت منكسر القلب ، مقطبا في زحمة المترو • كنت حاملا حقيبتي المثقلة بالكتب • وكان المترو يعج بالصبايا والنساء • وكنت واقفا في العربة ، حزينا حزنا قاتما • وكنت أردد في نفسي قول طائر يخاطب ملكا في « كليلة ودمنة » :

ـ وأنا الفريد الوحيد الغريب •• قد تزودت بالحزن من عندكم عبئا ثقيلا لايحمله معي أحد ، وأنا ذاهب فعليك مني السلام •

فرأيتها تضحك لشبابها وجمالها حاسرة الرأس ، في فرائها الثقيل المنقط • كانت تحمل أداة طالبة الهندسة المعمارية • كانت عيناها كرنفال أضواء متلونة • وشعرها يتهدل متموجا ثقيلا • وخرجنا من العربة مع غيرنا من الامواج البشرية يلفظها المترو عند كل محطة • لم أكن لاريد ان اقول شيئا • كان الشتاء المظلم القاحل في قلبي نفسه • كانت الطرق الموحلة المقفرة ممتدة في قلبي دونما انتهاء • وكنا فوق السلم المتحرك • فألتفتت الي فجأة متسائلة :

فيم هذا الحـزن كله ؟

اجبتهـا معابثـا :

ـ لانني أريد ان انتحـر .

ـ ولماذا ؟ وهذه الحياة الرحبة السعيدة ؟

ـ لانـك جميلة جدا

ـ ينبغي ان نفرح حين نرى وجها جميلا .

ـ كيف أفرح وهذا الجمال ذاهب للقاء سواي ؟

ـ ومن قال انني ذاهبة لالتقي رجلا ؟ سأمر على صديقة لي .

ـ هل استطيع مرافقتـك ؟

ـ ولم لا ؟ بل سنقضي وقتا ممتعا عندها .

وخرجنا لنركب الترام . وكانت طرقا لاعهد لي بها . وهبطنا من الترام لنقطع ساحة وازقة . واوقفتني عند مدخل ما :

ـ انتظرني هنا من فضلك . لابد من أن اخبرها لتتهيأ .

بعد خمس دقائق فتح الباب عن امرأة شابـة بادية الحسن في فـراء أصفر داكن . ورأيتها تطيل نظرتها الي .. ربما متسـائلة عمن انتظر . كـان وجهها قويا يرغمك ان تتفحصه مفتتنا . ثم مضت متباطئة الخطى . وعادت فتاة المترو ، وفي وجهها خطورة وحيرة :

ـ ارجو معذرتك .. لانستطيع دخولا .

كانت جادة تماما . لاشيء من انطلاقتها المرحة الضاحكة . فيم كـان هذا التبدل الخطير في وجهها ؟ وكأنني كنت موشـكا أن اقع في خطر مـا . وكأن كارثة ما كادت ان تحل . قلت ضاحكا لاهديء من قلقها :

ـ لابأس . لنمض الى أي مقهى أو مطعم .

ـ كلا . لم يعد ممكنا في هذه الليلة . سأراك غدا في السابعة مساء في أي مكان تشاء .

ـ سأنتظرك في مقهى الطابق الاول •• في فندق موسكو •

ـ سأجـيء حتمـا •

ـ الى اللقـاء •

ـ كـلا • سأوصلـك •

وسألتهـا ضاحكـا :

ـ ولماذا ؟ لاتتعبي نفسك •

ـ سأوصلك حتـى الترام •

ووجدت الامرأة الشابة واقفة هناك • كانت تنتظر الترام • وودعتني فتاة المترو • وانطلقت عائدة • كانت المرأة تتأملني باهتمام ظاهر • فحييتها سائلا عن شارع بعيد ما • واخذنا نتحدث • وفي الترام كنا معا جالسين • ثم نزلنا عند محطة متـرو • واقترحت أن نتـعشى معا في مطعـم • فأجابتني ضـاحكـة :

ـ طيب • سأجلس معك • أنا لم اخرج الا لاتجول •

ثم قالت في غير اكتراث كبير :

ـ اكنت راغبا بالذهاب مع تلك •• الشابة ؟

ـ كلا • لم تتفق على شـيء •

ـ أهي مـن أهل المنزل ؟

ـ كلا • ان لها صاحبة هنـاك •

كان شارعا لااعرفه • واجتذبتنا لافته فدخلنا • كان مقهى ومطعمـا في أن وكان مزدحما • واضطررنا أن نقف قليلا حتى تفرغ مائدة • وبدا لي أن اطلب قنينة كونياك • كان صنفا حادا قويا جدا • فغلبني الشراب بعـد ساعتين • كنت ثملا تماما • ولا اتذكر كيف انصرفنا من المقهى • اتذكر أننا كنا في الشارع ، وانها أوقفت تكسيا • لابد من انها وجدتني متعبا جدا فلم

تشأ ان تتركني ضائعا في صقيع الليل • اتذكر انني كنت اقبلها في غرفتها • واننا انتزعنا ثيابنا لنرقد • غير انني سريعا ماغفوت • وافقت فجرا • كانت عارية حارة ، غارقة في نومها • وتذكرت انني لم أحظ من هذا الجسد الشهي بشيء • ولم أرد ايقاظها • لكنها صحت بعد نصف ساعة • فأبتدرتني ضاحكة :

ـ صباح الخير •

وأخذت اقبلها • وكانت تقول :

ـ لكن كيف ؟ كيف تشرب تلك الكمية كلها ؟ لكم حاولت أن اردك عن الشرب عبثا • فلم اجد بدا من ان اصحبك الى هنا •

كان عناقا رائعا ساعة الفجر • بعد ساعتين ينبغي ان نخرج لتلحق بعملها • واتفقنا ان نلتقي في الامسية التالية • وكنا في محطة مترو :

ـ هنا عند هذا المدخل • انتظرني في السابعة غدا مساء •

غير أنني كنت مع الاستاذة الشابة في نزهات لإطائل من ورائها • فأضعت فتاة المترو وأمرأة الفجر معا •

كنت عائدا في الحافلة • وكان ذراعي ، منذ قليل ، ملامسا فراء ناعما لاغير من الاستاذة الشابة • لم تكن الشقة خالية • كنت في الحافلة • وحين توقفت بالقرب من مترو نوفو سلوبو دسكايا رأيت امرأة تشبه اولا في طريقها لتصعد • كانت الحافلة مكتظة • فلم نجد مقعدا فارغا • وكانت واقفة قريبا مني • فنهضت لاخلي لها مكاني • فشكرتني جالسة • وكانت تحدجني بعينيها كمن يعرفني • فأخذت اتذكر أين رأيتها من قبل • اجل • هذه جارة لينا •• وحين قامت شريكتها ، ابتعدت لتفسح لي • كنت أحس بدفئها وطراوتها عن قرب • كان امتلاؤها يجعلها ملامسة لي • غير أن فخذها يثيرني بحرارته • أية نعومة ! أكانت تتقصد حركة ساقها في احتكاكها بساقي ؟ وحين

أردنا أن ننزل تعمدت ان تتقدمني • وفي زحمة الواقفين كانت تسحق اردافها علي • وكنت أحاول ان ابتعد جانبا • لم اكن لاريد ان تحس بانفعالي •

ورأيتها تخطو متثاقلة في الزقاق ، وتتوقف مطرقة برأسها • ولم اتبعها • وحين دخلت قالت المناوبة ضاحكة :

ـ طلبوك مرتين في التلفون • مرة من وراء الاورال • وستتصل بك بعد العاشرة •

ـ هذه اعرفها •• والثانية ؟

ـ فتاة من موسكو •

ـ الم تذكر اسمها ؟

ـ قالت انها ستتصل بعد حين •

وجلست منتظرا • وطلبتني رايا بعد نصف ساعة • ستنتظرني مع زويا غدا مساء في السابعة عند السينما المركزية •

وفي العاشرة طلبتني لينا ثانية :

ـ أين كنت ؟ هل التقيت بالفتيات ؟

ـ سأرى رايا وزويا غدا • كيف انت ؟

ـ أنا لاافكر الا بك •

ـ أما انا فاتحرق اليك •

ـ فيم تأخرك اذن ؟ كنت تلهو بالطبع •

ـ كنت في مكتبة الاداب الاجنبية •

ـ أنا افكر بك كل لحظة • وهذا جنون مني ، لانك تعرف كيف تقضي وقتك عابثا • أنت لم تزر أمي الا مرة • ينبغي ان تخجل • لكن مالفائدة من لومك ؟ اتسمعني ؟ سأعود يوم الاربعاء •• وكأنني لم أرك منذ سنين •

ـ أنا لاانتظر الا عودتك •

ــ أحقا ؟ ماهــي حكاية العينــين المتورمتين ؟ ضحكت كثيــرا وأنا أتصورك حائرا بها • لو كنت أعرفها لاخبرتها أين تبحث عنك ، وسترضخ لها حين ترى دموعها • أنا اعرفك •

وفي السابعة مساء كانت رايا تنتظرني وحدها • كانت في معطف مــن الفراء الرائع • وكان وجهها المتورد اكثر نضارة من زهرة ابان تفتحها •

ــ ستلحق بنا زويا وصديقها في المقهى • هذه دعوة منهما لك •

واجتزنا ساحة بوشكين • كان جمالها البهي كالفاكهة الشذية المحرمة • كانت آخذة بذراعي ، متحدثة في ابتهاج • قلت :

ــ وصديقك •• ألم يود ان يحضر ؟

ــ وكيف أجيء بصديق ؟ ستحس بعزلة • سنصحبك ليلة الاحد ايضا • كان الثلج يتساقط خفيفا • وكانت تتطلع الي باسمة وهي تحاورني • وكان جمالها يلفت انظار العابرين • وفي المقهى راحت توصي النادلة وهذه تكتب • وحين جاءت الشمبانيا قلت :

ــ أظن ان علينا ان ننتظر •

ــ لماذا ؟ زويا في صالون حلاقة • وسيتأخران قليلا •

كان صوتها دافئا وهي تسألني :

ــ كيف انت بلا لينــا •

ــ لو كان الامر بيدي لما تركتها تسافر •

ــ انها تحبك •• لانك خير صديق •

ــ شكرا • أنا لااستحق هذا المديح •

ــ ماكانت تحبك لو لم ترك بعينيها وعقلها • لينا ذكية جدا وصعبة في هذه الامور • أما انا فلا اعرف كيف أفكر مثلها • أنا احب الحياة هكذ •

ــ مايحيرني هو انها ترفض ان اتزوجها •

ـ وهذا مايحيرنا كلنا . مع انها تحبك . ألم تكتب اليك يوميا ؟ هذا لاتفعله الا امرأة يشغل حبك كل لحظة من حياتها . لو تدري كم تتحدث عنك !

ثم جاءت زويا وصديقها . فأجلسها جواري . كان طيبا وصريحا . وقد أبدى صداقته لي منذ اول لحظة . كانت زويا تذكرني بتونيا المناوبة في المنزل الاول من قبل .. غير انها اكثر انطلاقا ومرحا . وادركت من احاديثهم ان للينا شأنا مهما في عملها . وانهم يعتبرونها أفضل من يعتمد عليه في اختصاصها ، ويقدرونها تقديرا عظيما انسانة ومهندسة فذة . اذكر أننا شربنا زجاجتين . وانصرفنا مبتهجين . ودعوتهم الى المقهى في الامسية التالية . وفي ليلة الاحد كنت منتظرا عند السينما المركزية . ورأيت رايا مسرعة الخطى من بعيد . حالما اقتربت قالت ضاحكة ، وصدرها يتموج بفرائها :

ـ مساء الخير . ارجو المعذرة عن تأخري . كان احدهم يتوسل الي ان اصاحبه . كان ثملا .. فلم أخلص منه الا بالفرار .

ـ أين تودين ان نقضي الامسية ؟

ـ في أي مكان تريد .

ـ مارأيك في مطعم موسكو ؟

ـ ولماذا في مطعم ؟

ـ هناك فسحة وموسيقى للرقص .

ـ سأدلك على مرقص غير بعيد .

ـ سنجده مزدحما جدا هذه الليلة .

ـ انت ادرى بلينا .. ستؤنبني .

ـ ولماذا نخبرها .. فتعنفنا ؟

ـ لكنني سأضحك حين تسألني بلهجتها الخطرة : أظن انك انجررت لرغبته في ان يقصف في المطاعم الفاخرة ؟

ـ وستسألني : آمل انك سمعت نصيحتي وكنت لطيفا مع الفتيات ؟

وكانت رايا تضحك متوردة ، أخذة لهجة لينا المتعالية :

ـ وسترد علي : انت ضائعة • ماكان ينبغي ان اعتمد عليك • انت لاتفكرين الا بالسهر والرقص • انت تشبهينه تماما • هذا الفتى المتسكع •• وهو يليق بك ، يليق ببنت لاهية ، عابثة مثلك •

في المطعم ، كان معنا عند المائدة ، رجل وامرأته • وكانت رايا بهية كزنبقة الحقل • وحين نرقص كنت اشم رائحة شعرها العبقة ، وأحس بوجهها النضر يمسني حارا ناعما • وكان النبيذ ممتعا باردا • وسألتني المرأة فجأة :

ـ لماذا لاتتزوج هذه الفتاة ؟

ـ هي لاتريد •

ـ ولماذا لاتريد ؟ انت لاتريد •

وضحكت رايا ضحكه صافية :

ـ انه خطيب صديقة لي • وهي مسافرة •

ومع الخمرة والرقص كنت اراها مغرية ، متعاظمة الفتنة • وكدت أمس وجنتها اليانعة الحارة بشفتي مرة • غير انني انتبهت • ولعلها أحست • فلقد كانت تبتسم لي ابتسامة جذلة • وقد سرها مني أن يهزني جمالها ويدير رأسي • وفي المترو كانت مرحة ، مقبلة علي • كنت اراها زهرة بديعة فوق غصن •• أخشى أن المسها أو اقطفها • وعند بيتها اندفعت تقبلني قبلة ناعمة هي قبلة صداقة لاغير •

وأردت أن افاجيء لينا ، فجر الاربعاء ، بانتظار لم تكن تتوقعه •

فنهضت مبكرا . ورحت ارتقبها هنـاك . ورأيتها أتية ، شاحـبة ، مقطبة الحاجبين . أية تقطيبة رائعة ! كانت ، في عيني ، أجمل امرأة على الارض . وتبعتها لامسك بذراعها . فسحبته ملتفته بعنف . وفوجئت بي . وتخضبت وجنتاها حمرة شفقية ، وامتلأ وجهها فرحا . وظلت واقفة تتأملني . كـانت تود ان تثب لتقبلني . غير انها تكره هذا تحت اعين الاخرين . فاكتفـت بتقبيلة اللقاء . واخذنا نسير باتجاه الشـارع العام . والتفتت الي فجـأة لائمة :

ـ ماذا جاء بك في هذا الوقت البارد المبكر ؟

ـ جاء بي ماجاء بي .

ـ ابتكار أخر ! يريد اقناعي بأنه متلهف لرؤيتي .

ـ تعرفين جيدا أنني اتحرق اشتياقا .

ـ أيهـا المتسكـع .

ـ ايتها المتفلسفة الفاتنة .

ـ لكنني لن أسمح لك بالبقاء معي . سنفطر معا وتعود الى معهدك .

ـ لم لانفطـر في مقهى .

ـ أليس لنا بيت ؟ ستعد أمي افطارا طيبا لنا .

ثم التفتت لتقول برقة وحنـو :

ـ أكنت تتذكرني في وحدتك ؟

ـ أنا متشوق لان اعريك بيدي في هذه اللحظة .

ـ هنا في الشارع ؟ سأتجمد بردا . أنا لااقصد هذا .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ أمازلـت تحبني ؟

ـ لو انك ابصرت بي وأنا اتأملك قبل قليل !

ـ أدري انك كنت تتفحص ساقي •

ـ وأي ضير في ان اتعبد اجمل ساقين ؟

ـ ألم تكتف ؟ ألم ترتو مني جسدا ؟

ـ اسمعي • سأراك بعد عشرين عاما أجمل مما انت في هذه اللحظة •

حين رأتني امهـا ضحكت قائلة :

ـ كنت اعلم انك ستنتظرها في المحطة •

قالت لينا وهي تغمزني بأرق ماتمتلك امرأة من رقة :

ـ انـه يمثل •

ـ اهذا الزمن كله ولا يتعلم منـك •

كان افطارا بهيجا ضاحكا • وكنت اتضور لان انفرد بلينا • وهي ترى هذا جيدا • فتعمدت ان تتحرك باتجاه أخر • فأصرت ان اخرج في الثامنـة لادرك اول محاضرة • واوقفتني في الفسحة باسمة باعتذار :

ـ انت لم تقل متى سأراك ؟

ـ تعلمين انني سأعود طائرا بعد أخر محاضرة •

ـ كلا • انتظرني هناك حيث اعتدنا •• في السابعة •

ـ في السادسة •• أو بعدها بقليل •

وخرجت جارتها فرمقتني بنظرة لاتنسى • فأسرعت تحيي لينا متضاحكة غير ملتفته الي • كانت تتعمد هذا تعمدا ، مرتبكة قليلا • وحين أخذت تهبط السلم كانت لينا تتابعها مستغربة :

ـ ماذا جرى لها ؟ فيم هذه النظرة الغريبة اليك حالما رأتك ؟ وهـذا المرح المتكلف •• لماذا ؟ مع انها جميلة •• بالرغـم من انها في الخامسـة والاربعيـن •

وضحكـت مازحة :

ـ ها أنا اكتشف غريمة جديدة لي • ينبغي ان أخذ حذري • انــت خطــر •

كانت تتأملني ضاحكة العينين :

ـ ألم تتصل بك كاتيا ؟

ـ كلا • كاتيا في شغل عنا مع افلامها •

ـ ربما • لكن ماشأن هذه المرأة بك ؟

ـ أنا لم أر اية غرابة في تصرفها •

ـ لكنني اعرف هذه النظرة •• وهذا المرح المتصنع •

ثم عادت ممازحة متهكمــة :

ـ اتراها غازلتك ، مرة ، فأعرضت عنها ؟

ـ مابك ؟ لاشيء مما تقولين •

وأردت أن اذهب ، فمست ذراعي متبسمة :

ـ أترى ؟ أنت ماض دون ان تقبلني •

فأحطتها بيدي متأملا شفتيها الممتلئتين ، المائلتين الى السمرة ، ووجنتيها الشفقيتين في وجهها الشاحــب ، بانخسافة خديــه ، واستدارته المليئة •• وتقطيبة حاجبيه ، فملت عليها • واندفعت اقبلها قبلا عديدة • فتخلصت مني ضاحكــة :

ـ ليس هكذا • والان امض • سأفكر بك طوال النهار •

وانطلقت أخذا حقيبتي من غرفتي • كانت جارتها في انتظار الحافلة •• فأشاحت بوجهها حين اقتربت ، وعلى وجهها ابتسامة ما •

وهبطت عند ساحة بوشكين • كان الشارع مزدحما بحركة الصباح • وقرب كشك الصحف ، حيال الازفيستيا ، يقف الصف طويلا • ومررت على بائعة الزهور •• فأبتسمت حين رأتني • فاخذنا بالحديث لينقطع كلما مــر

مشتر . وقلت قبل أن انصرف :

ـ أريد ان تنتقي لي باقة .

ـ أي نوع تريد ؟

ـ ليس الان . حين أمر عليك مساء .

ـ طيب . أراك مرحا ومبكرا ؟

ـ أنا أحـب .

ـ ومن هي هذه السعيـدة ؟

ـ ليست فتاة . انما هي زهرة من الزهور المحيطة بك .

ـ انت ظريـف .

ـ وانت انضر زهرة بين زهورك .

ـ أهـذا شعـر ؟

ـ لكم يبهجني ان ارى وجهك كل صباح .

ـ ماعليك الا ان تمر علي في طريقك الى معهدك .

وعدت مساء لاخذ باقة . كان الطريق مكتظا أول الامر . والحافلـة تتحرك ببطء . فوصلت متأخرا قليلا . كانت لينا تذرع الناصيّة ملتفة بفرائها . وكانت السماء مظلمة ، والريح ساكنة باردة . قالت لينا مبتهجة بالورود :

ـ أيـة أمسية بديعـة !

ـ سأغير كتبي وأعود سريعا .

ـ لابأس . سنقوم بنزهة في هذا الطقس المنعش .

كنا نخطو بين الاشجار الناحلة العارية ، والاضواء تتوهج قوية فـي النوافذ . حين تمر بنا امرأة تحدجنا بالنظرة المتفهمة ، وهي ترى جمال لينـا وامتلاءها الباذخ الفذ . أما الفتـاة فترمقنا متفحصة جمـال لينا الساطع ، مشتعلة التحديقة متفكرة . ولم تعد لينا تعطي هذه النظرات اهتماما ما . غير

انها تبدو كالمتكبرة أحيانا • فهي تدري أية فتنة معجزة تمتلك •

حين دخلنا كانت أمها في المطبخ • فأنبرت لينا تهيء المائدة ، متأودة في حلتها الحمراء القاتمة • وجاءت أمهـا لتقول :

ـ ها أنتما هنا ياصقري البديعين •

وشربنا نخب التئام الشمل أولا • وكانت لينا تمـلأ اقداحنا البلورية الصغيرة بالفودكا باسمة :

ـ كنت اتحدث مع الفتيات في التلفون • وشكرتهن على لطفهن معك • غير أن لرايا رأيا أخر •• فلقد شكتك متذمرة •

ـ ترى أي ذنب لي معها ؟

ـ قالت انه لم يقل لي كلمة غزل واحدة طـوال صحبتي له • مع انـه شاعر • ألم ير في مايبتعث كلمة غزل ما ؟

ـ لكنها صديقتـك •

ـ ولتكن • هذا لايمنع ان تقول لها كلمة لطيفة • كل امرأة يبهجها أن يقال لها انها جميلة •

قالـت أمهـا :

ـ ما كان غيرك ليفوت عليه مغازلة فتاة حلوة •

ـ من يدري ؟ لم يجد ، ربما ، متسعا من الوقت • أنسيت كيف أوقـع كاتيا في حبائله ؟

ـ انت نفسك جئت بها واوقعتها لتبتليه •

ـ هكذا أنت •• تنتصرين له نكاية بي •

ـ لانـه محـق •

ـ لو تعلمين كم أنا هائمة ، مولهة بهذا الفتى المتسكع •

ـ متسكع هو متسكع • أما انت فهائمة بهيامه فيما لاادري من مفاتنك

وسحرك وتجولك بعد العاشرة من الليل كساحرات الازمنة الغابرة •

ــ كيف ؟ انا احبه لانني أحبه •

ــ انظر كيف تدللك لتسكتني ! وتطعمك بيدها ايضا • أكانت تفعل هذا معك هناك في المطعم ؟

قلت مازحا :

ــ هذه أول مرة •

ــ وتنكر ايضا ؟ مع انني لم اتركه ، مرة ، يملأ صحنه بيده •• حتى حين اكون غضبى • فما يسرني شيء اكثر من هذا •

فأصرت امها ضاحكة :

ــ وهذا تمثيل ايضا •

ــ لو تعلمين ماذا حل بي اليوم حين رأيته في المحطة ؟ كدت احتضنه فرحا وأطير به بعيدا •• بعيدا فوق الغابات المتجلدة •• الى شاطيء البحر الازرق الدافيء •• حيث الشمس والخضرة والرمال الحارة •

ــ هذا لانه أرضى غرورك •

ــ بل لانه فتى متسكع ينفق وقته وماله مع أية عابرة متورمة العينين •• تتعلق بذراعه لتنسى حبها الخائب في دفء احضانه وقبلاته •• لكنه يتركها حزينة وحيدة تتضرع ، عبثا ، عند المناوبة •

فأنطلقت أمها متهكمة مني :

ــ وهذا ايضا ! لافائدة ترجى منك • اتفوت هذه الفرصة ايضا ؟ أمن الصعب ان تصبر معها قليلا ؟ ألم تجد احدا غيرك ينتشلها من محنتها ويأخذ بيدها ؟ ألم تدرك غايتها من التشبث بك ؟

وهنا أخذت لينا بالضحك • طالما ناشتها أمها بلذعها وسخريتها • وهاهي تراها ساخرة مني ، متهجمة علي • ورحت أشرح قصتي مع الفتاة عسى ان ترى

فراري مبررا . فمازاد هذا أمها الا تهكما . فالحت لينا ضاحكة :

ــ هذا يعني انك اكثر تسكعا وخيبة مما كنت أظن .

فالتفتت أمها اليها ، منقلبة عليها بتهجم اشد :

ــ اتظنين ؟ ليس هذا اكثر خيبة منك .. ومن بحرك ورمالك الدافئة . ابتها المزوقة . لكن انت ــ قالت هذا ناظرة الي ــ كيف لم يهزك قلب فتاة مكسور ؟ لو صبرت معها يوما أخر لقضيت وقتا لطيفا .. نكاية بهذه المتدللة المولعة بالاساليب . اسمعت كيف تتغنى ؟ بعيدا .. بعيدا الى البحر الازرق والرمال الدافئة ! وتحملك طائرة ، مرفرفة بك . ترى بأية اجنحة ؟ بأذيال فرائها ؟ أم في قميص النوم المعطر الطويل ؟ وبجسدها الثقيل هذا كله ! لو أنها أقل امتلاء ! ميديا ثانية !

كنت ولينا نضحك ضحكا لايكاد يتوقف . فزجرتني أمها قائلة :

ــ فيم ضحكك ؟ هي سفيهة .. وانت ؟ أين عقلك ؟ اتضيع صوابك امرأة ؟ هذه المتشاعرة المترنمة بالرفرفة فوق الغابات ؟ كفى ضحكا . اسكبا لي لاشرب قدحي الاخير .

وكانت ترفرف بيديها امعانا بالسخرية . وانهزمت لينا لتضحك في المطبخ . فتبعتها لاقبلها وهي ضاحكة .

ــ انتظر .. سترانا وتزداد تهكما .

وحين عدت صاحت أمها بي :

ــ أقسم انك ركضت لتقبلها . وها أنت لاتكاد تستقر . وهذا مايزيدها تغنجا وزهوا . كنت أمل منك أن تقهر كبرياءها ، وتؤرق ليلها غيرة وحيرة . فتكف عن تدللها . فأذا بك مفتتن بسحرها وفنها . حتى أنها جعلتك تشاركها جولتها الليلية الغريبة .. جولة الساحرة في الطرق الليلية المقفرة . وتفلسفها ؟ لن اقترن بـه لانني أحبه !

وجاءت لينا في ثوب منزلي بديع • فقالت أمها فجأة :

ـ هذا رداء لم ارك فيه من قبل • أجل • انت تحسنين اختيار ارديتك •

ـ ايصلح لان أطير فيه ؟

ـ اجل • لان تطيري فيه الى غرفة النوم •

واستأذنت ضاحكة ، منصرفة لتنام •

ـ لينا •• اظهري ساقيك من تحت المائدة لاراهما •

ـ ألم تشبع بعد تأملا فيهما ؟

ـ وكأنني أراهما لاول مـــرة •

ـ طيب • انظر •• ها هما •

ـ أيـــة اعجوبة !

ـ اتراهما مغريتين ؟

ـ جــدا •

ـ الا نهما ممتلئتان ؟

ـ لانهما أعجوبة الاعاجيب •

كانت تتحدث متهكمة ، متخذة لهجة حادة :

ـ انظر اليهما •• وتأمل ركبتي ايضا •• وهذه الاصابع •• صرت اعتني بها كما اعتني بأصابع يدي • طيب • انت رجل حكيم • انت ترى الاعاجيب في اصبع القدم واظفره •• في باطن القدم وظاهره • كلا • بلا قبلات • أنت تدغدغني • أرأيت اظافرهما جيدا ؟ تأمل •• تأمل ! خذ كفايتك من التفحص • بل أراك تقيسهما • اكنت ترسمهما لو كنت رساما ؟ اذن لكانت ابدع لوحة ! ولاتنقلت من حاضرة الى حاضرة • وتصور الالوف وهي تتجمع لرؤية قدمي لينا في صورة ! تصورهم وهم يدققون النظر في هذا الاظفر ! ماذا سيكتـــب النقاد عندئذ ؟ كلا • لاتضحك • تأمل هذه الاعجوبة الثامنة • كلا • انـــت

دى • انت تقبل ركبتي وفخذي • قبل ساقي لااكثر • كلا • انت تدغدغني • ي • هذا ليس فنا • هذه مغازلة • ماأنت بناقد فني • انت عاشق متسكع • انت تروبادور •

فأخذت اضحك عاليا •

ــ لاتضحك • ستطردنا أمي خارج الشقة • طيب سأعيد هاتين الاعجوبتين الى مكانهما تحت المائدة • سيكون نعلاي خير اطار لهما •

ــ لينا •• ماكنت اعلم انني سأقع في هذا البلاء •

ــ ياالهي ! أي بلاء ؟

ــ حبي لجمالك المفترس الرهيب •

ــ اتدعو حبك لي بلاء ؟ حقا انت متسكع ضائع ، لايهمك شيء غير التأمل في ارجل الغاديات الرائحات • انت جواب ارصفة لامثيل لك • لكنني اعبدك • ماالعمل ؟ كلا • دع عنك ذراعي • لن اذهب معك • دعنا جالسين هنا • أنا لم اشرب معك منذ سنين • كلا • بعد العاشرة • أنا اكثر تشوقا منك •

ــ لنذهب •

ــ كلا • سيكون الامر جميلا بعد العاشرة • اريد ان اغريك اكثر ، أن اشعلك رغبة ايها العاق • انت لم تكتب لي غير خمس رسائل • وكنت اكتب اليك يوميا • أرأيت الفارق بيننا ؟ وتدعو حبك لي بلاء ايضا •

ــ اليس بلاء أن ارغب بك هذه الرغبة المفترسة كلها ؟

ــ ويريد ان يفترسني !

ــ لينا •

ــ طيب • انما قل لي لو أنني في الاربعين •• اكنت تحبني ؟

ــ بالطبع سأحبك • أي فرق ؟

ـ فلو انك رأيتني وأنا في الرابعة والخمسين ، في الحافلة نفسها وهناك فتاة واقفة تتضاحك لـــك ؟

ـ سأحبك . وانت تعرفين هذا .

ـ في أي معطف تريد ان اكون ؟ وبأية قبعة ؟

ـ أية اسئلة غريبة هذه !

ـ سأرتدي معطفا أخضر فاتحا ، وقبعة بلونه .

كانت عيناها غائمتين ، وهي تتأمل أفقا نائيا ما . ونهضت لاقبل وجهها ويديها . فوقفت قائلـــة :

ـ سأنتظرك في غـــرفتنـــا .

كانت الاغطية منسحقة تحت اقدامنا . وكان جسدها يشع اشعاعا غريبا ، وكنت احاول القبض على هذا النور والتمسك به . وحتى في الذروة معها .. وبعدها ، يظل هذا النور مشعا متفايضا غريبا . وكانت تئن :

ـ اتدري ؟ انت تقبل روحي نفسها . وهذا لايحدث الا بيننا نحـــن الاثنين . كنت اعرف هذا منذ رأيتك في الحافلة . كانت روحك ، في عينيك ، حزينة وحيدة . كانت عطشى الى القي هذا كما تسميه . اجل . لن ترى هذا النور الا في جسدي أنا .

كنت اقبل فيها فكرة الجمال نفسها .. هذا الالق الابـــدي الغريب . وكانت تتهجد معفرة بي وبقبلاتي . كانت صافية ، باهرة كاضوية النيون .

حين أفقت صباحا كانت تترنم جذلة بلحن ما في المطبخ . فنهضت بتكاسل لارتدي ثيابي واغتسل .

ـ هاهو زوجي يصحو متأخرا كعادته . مارأيك ان نركب الحافلة معـا لتوصلني حتى المترو ؟ في تجولك عائدا فائدة كبيرة لك لو تعلم .

ـ لو أن الامر بيدي !

ـ ماذا كنت ستفعل ؟

ـ سأنعم بدفئك في فراشنا .. بلا افطار أو غداء .

ـ كلا ياعيني الحزينتين . لايجوز هذا .

ـ لكم أنا راغب ان اضمك في فراشنا الان .

ـ كلا . لست متسكعة مثلك . ان عملا مهما ينتظرني لانجزه .

ودعيت وجون لنقرأ في يوم الشعر . ومع الدعوة جاءتني تذكرتان . في هذا اليوم يقرأ الشعراء قصائدهم في ساحة مايكوفسكي .. وفي متاجر الكتب . وكنا سنقرأ في قاعة اتحاد الكتاب مع شعراء سوفيت ، وأخرين من المجر ورومانيا وغيرهما . كانت اسماؤنا واقطارنا مطبوعة على التذاكر . وكانت لينا تريد تذكرة ثالثة ، فقد وعدت رايا وزويا بالحضور . فحصلت على الثالثة من جون . كنا ننتظر الفتاتين عند مترو مايكوفسكي . كانت لينا تشد فوق تسريحتها الرائعة منديلا ابيض أهدب مخرما . وجاءت الفتاتان ضاحكتين ، قلت مازحا :

ـ مارأيكن بصرف النظر عن الامسية الشعرية ، وتقضية السهرة في مطعم بكين ؟ هوذا يلوح عبر الساحة .

فردت لينا مناكدة :

ـ يمكنك ان تصحب رايا . سيسرها هذا . أما انا وزويا فسنحضر الامسية . لن تفوت علينا هذه الفرصة .

وانحدرنا باتجاه مبنى الكتاب . ولاح لنا القصر الاصفر القديم وسوره المترامي : هذه بناية قديمة اختارها تولستوي منزلا للكونت روستوف في « الحرب والسلام » فدخلنا من جهة كيرتسين . واخذنا ننزع المعاطف واغطية الرأس لتعلقها عاملة المشجب . وسمعنا امرأة تقول وهي تقرأ التذكرة بين صاحباتها :

ــ ومــن العراق !

اوصلتهن حتى باب القاعة لادخل مــن ممر أخر ، حيــث يتعين علي ان اجلس مع الشعراء عند المنصة . كان عــريف الحفل هو الشاعــر سوركوف رئيس اتحاد الكتاب . وكان يعرفني . فلقد كان عريف حفل أخر ، أقيم قبل عام ، في اشهر قاعة في موسكو : البوليتيخنكي ، حيث قرأت قصيدة . هنــا اقيمت أوائل القرن أمسيات بلوك ومايكوفسكي وغيرهما . وهنا رأتني نينا الشقراء قيمة البار في مقهى البهو من فندق موسكو . ولقد اسكرني أن تقابل قراءتي بالسكون الشامل المطبق اول الامر .. ثم انفجار القاعــة بالتصفيق الهائل المتواصل . كان اعنف تصفيق في تلك الامسية .

وخرجنا من اتحاد الكتاب والزوبعة الثلجية في وجوهنا .. كانت الزوبعة تشد معاطفنا شدا ، وتكاد تطوح بنا . وكن يضحكن مبتهجات ، متوردات . كانت الرياح تتصايح متلاطمة ، متلوية بالثلوج ، نائحة ، نابحة . وكنا نجــد صعوبة في أن نقف على اقدامنا . اقترحت ان نعرج على مقهى الشباب لنشرب زجاجة كونياك . كانت لينا ضاحكة الوجه ، فرحة بالزوبعة الثلجية العنيفة ، متأثرة باحتفاء القاعة بي . فلم تعترض . انما قالت وهي تتأملني بابتسامــة رحيبــة :

ــ زجاجة واحدة !

واجتزنا الساحة . وكانت معتركا لجنــون الرياح وصراخها . كــانت الثلوج يابسة ، تضرب اوجهنا وتضبب رؤيتنا . وكانت رايا تحتمي بي كلمــا اشتدت العاصفة تهورا . وكنت أحس بنهديها المتوثبين ينسحقان فوق اكتافي . وشددت ظهرها ، مرة ، بذراعي .. فأنطلقت تضحك ضحكا صافيا .

وفي المقهى اخترنا مائدة عند الواجهة . وعدت لاحيي عاملة الصندوق زهرة التترية . كانت النادلة تعرفني ايضا .. فسألتني عن تغيبي . ولم تجد

لينا بدلا من ان تقول مداعبة :

ـ ارى انك زبون مقيم في هذا المقهى .

ـ كنت أمر ، احيانا ، لاشرب القهوة واقرأ .

كان مذاق الكونياك حادا ، باعثا على الدفء . وكانت الشطائر بالسمك الاحمر والسجق شهية بعد جوع . وموسيقى الرقص تتعالى بين حين وأخر . وكان الثلج عبر الواجهة يتهاوى منتهبا بأكف الرياح . وكانت النفس الامارة تدفع بي لاتأمل شفتي رايا المتلثتين الشهيتين . فأختلجت شفتاها وافترتا عن ابتسامة أخاذة . كانت فسحة الرقص ضيقة ، ورايا دافئة جذلي بين يدي ، والزحمة تشدها الي . كان قوامها لينا طيعا . وكنت اقربها مني كما اريد .

واندفعنا في الشارع مع الزوبعة الثلجية المتعاوية . وقد افادنا الكونياك دفئا ونشوة . اوصلنا الفتاتين حتى المترو ، ووقفنا ننتظر الحافلة ٢٣ في منطلقها . وفي مقعد الحافلة كان جسدانا في تماس ممتع التماسا للدفء وتلذذا ، مع ان ثقلها كان يتيح لنا هذا دون لن تتحرك . غير انها الزوبعة الثلجية والحافلة المتخافقة وعودتنا متأخرين ! قلت ونحن نعبر الشارع :

ـ مارأيك في جولة تحت اشرعة الثلج المصطفقة ؟

ـ اتحملنا أشرعتك خارج الزمن ؟

ـ بل حتى الضاحية لاغير .

ـ سنتجمد بردا هناك .

ـ فأذا التففنا بمعطفينا .

ـ مع هذا .

ـ فمن الخير ان نكتفي بجولة حتى البيت .

ـ بل سننعطف حول منزلكم .

ـ اترين أمامك رؤية كافية ؟

ـ لانكاد نرى الاشياء واضحة في هذا الدخان الابيض •

كنا نسرع الخطى ، مصغيين لاعتراك الزوبعة الثلجية وولولتها • واوقفتها مرة لأقبلها ، والثلوج تتهاطل رذاذا يابسا مائلا • وحين اقتربنا من بيتها قلت مازحا ، متسائلا :

ـ أهذا بيتـك ؟

ـ سأدفع الباب ونرى •

واخذنا ننفض الثلج عنا ضاحكين • وكانت الشقة دافئـة ، هادئة •• وسألتها وأنا احيطها بيدي :

ـ مارأيك بقدح فودكـا ؟

ـ هذا شيء لابد منه بعد جولة الليلة • وسنكتفي بقدح واحد مـن فضلك ، لانني أريد ان اصغي الى الزوبعة ونحن في فراشنا •

كانت هذه أخر زوبعة ثلجية كما اتذكر • غير ان الثلوج ظلت تتساقط رطبة واهية ، والبرد يشتد بين وقت وأخر •

ويجيء الربيع هزيلا باردا •• والبلل في الثلج الذائب والاشجار العارية • وفي الهواء انفاس خضرة كامنة • وسرعان ماتفتحت البراعم واخذت الخضرة تلوح متزايدة لتكسو كل غصن طال مكثه تحت طائلـة الصقيع • وها هـو الصيف يشتعل اخضرارا كثيفا نديا في كل مكان • وأقام لنا المعهد سفرتين •• ركبنا الباص اولا ناحية بورودينو حيث التحم جيـش نابليون مـع الجيش الروسي • كانت الارض سهلا منبسطا أخضر ، تحيطه مرتفعات غير عاليـة • وأرانا الدليل بقعة خضراء حيث جرح الامير اندريه كما أراد تولستوي فـي « الحرب والسلام » •

وكانت السفرة الثانية جولة في غابة ارخانجلسكوي • وهنا ضياع الامير يوسوبوف قاتل راسبوتين ، قديما • وكان القصر متحفا يضم العشرات مـن

للوحات الفنية الثمينة . وتغدينا في الغابة .

قبل الامتحانات بأيام كانت لينا تتهيأ لرحلتها الجنوبية . ستقضي شهرا عند البحر الاسود . وكانت مكتئبة المزاج ، غائمة النفس . وخلا حديثها من التهكم المازح . كانت تكره ان تتركني وحيدا . ولم تشأ ان تسافر لو لم اكن شديدا في اقناعها . كانت تريد أن نقضي الصيف كله ، معا ، في الضاحية . وكنت في وداعها ، في المحطة حتى أخر لحظة .

واجتزت الامتحان بلا مراجعة تقريبا . كانت هي نفسها خير عون لي في هذا . كنت اقرأ خمس ساعات يوميا ، لالتقي بها بعد العاشرة .. في غير امسية السبت . كنا حرين في هذه الامسية تتجول اينما يحل لنا . وغالبا ماكنا نقضي وقتنا في المتنزهات . وندخل السينما بعدها أحيانا . وكانت رايا تتلفن لي بين حين وأخر . ستسافر هي الاخرى بعد اسبوعين .

والتقيت برايا . وأي لقاء ؟ كانت لينا بيننا هذه المرة . وعدت ، مرة ، من نزهة معها بعد الحادية عشرة من الليل . كان هذا بعد يومين من الامتحان . كانت الامطار تهطل قوية ، غزيرة . وكنت أحس بالفراغ والقتامة في روحي بعد المرح المتكلف مع رايا . كان المنزل خاليا ، صامتا .

واردت ان افتح بابي . فرأيت شيئا لم اكن اتوقعه . رأيت ورقة شجر طرية خضراء ، خارجة من الثقب . ماذا يعني هذا ؟ واستللتها برفق . كان سويقها طويلا كافيا لادخالها . وكانت مبقعة بنقاط حمر . من ترى ادخل هذه الورقة . هي امرأة ، لكن من هي ؟ وهبطت لاسأل المناوبة .

ـ هل جاء احد يسأل عني ؟

ـ كلا . لم يسأل عنك أحد .. حتى في التلفون .

قالت هذا ضاحكة ، متأملة حيرتي :

ـ اكنت تنتظر صديقة ؟

ـ كـلا •

ـ فيم هذا التساؤل اذن ؟

ـ ربما جاء احدهم صدفة •

ـ يجوز • غير انني لم أر شخصا يسأل عنك • تفضل اجلس •

وجلست لاتذكر • ورقة شجرة ! ورقة من هذه الحديقة المتعالية فـوق المصاطب •• قبالة المنزل • أجل هـي • اولا • قالـت انها قادمة في بداية الصيف • وكنت ناسيا • ماكنت اتوقع بعد هذه الشهور • انما أهي هي ؟ أهي هنا ؟ وهل تترك هذه الورقة امرأة غيرها ؟

ـ قولي من فضلك •• أتحل عندنا ضيفة من ريفا ؟

ـ من ريفا ؟ لاادري • دعني أر السجل اولا •

ولم يكن الدفتر ليحمل ، بالطبع ، غير اسمين أو ثلاثة • فسريعا مـا هتفت باسمة ، فرحة :

ـ آ •• من ريفا ! أجل عندنا ضيفـه من ريفـا •• هي أولا • أهي نفسهـا ؟

ـ أجل • في أية غرفة هي ؟

ـ في طابقك نفسه •• في شقة الجناح •

واخذت تضحك :

ـ بالطبع •• منزلنا فارغ • فأختارت ان تكون جارة لصديق لطيف • هذا أقرب • لكن ماذا تنتظر وهم يترقبونك هناك ؟

وصعدت لاطرق على أولا •

النار الخضراء

طرقت باب الشقة طرقا خافتا • ولم يكن مقفلا ففتحته • هي في واحدة من هاتين الغرفتين • أهي نائمة ؟ مـــن يدري • كانـــت الغرفتان صامتتين ، موصدتين • لم تعد بعد • ولعلها في السينما • ماكانت لتضع ورقتها الطريـــة الخضراء لو انها ستتأخر هذه الليلة كلها • وكانت الامطار ماتزال في انهمارها القوي الغزير • وأخذت مكاني في بهو الطابق الصغير قبالة المصعد . تراً • من هنا سأسمع المصعد حين يتوقف • وظللت اقرأ حتى الثانية عشرة . كـان الطابق مقفرا صامتا • وتطلعت من النافذة • لم تعد الامطار تتساقط • وكـان الطريق مبتلا ، متلامعا تحت اضواء المصابيح • وهبطت لاتمشـــى في هدأة الليل ، واشم الهواء • قالت المناوبة :

ــ الم تجد صاحبتـــك ؟

ــ لم تعد بعد • سأتجول قليلا وارجع •

وطفقت أسير حيال الاشجار الخضراء البليلة العبقة • وكنت أرى ماء المطر متقاطرا من الغصون • بلغت مبنى البريد واستدرت • ووجدتها واقفـــة

منتظرة . هزني وجهها البيضوي المكلثم وابتسامتها . فأسرعت أخذا وجهها أقبله وهي تضحـك :

ـ فيما بعد . كيف عرفت انني صاحبة الورقة ؟

ـ ومـن غيرك ؟

ـ اكنت تنتظـر ؟

ـ بالطبع . امثلك تنسى ؟

ـ سأمكث هذه المرة اسبوعا ، حسنا ؟

ـ ليتك باقية هنا أبدا .

ورحت اقبلها ثانية :

ـ متـى وصلت ؟

ـ اليوم صباحا . وهانحن معا من جديد . أنا عائدة توا من السينما .

واردت ان ندخل غرفتي . قالت :

ـ ولماذا هنا ؟ تعال الى غرفتي .

ـ طيب . انتظري لحظة .

أخرجت من الخزانة قنينة نبيذ وكرزا . وفتحت بابها . كنت الثمهـا ويداي تبتلان بنقاط الماء العالقة بمعطفها المطري . واشرعنا النافذة لهـواء الليل . واخذنا نشرب . قلت :

ـ أحب ان اراك في ثوب النوم .

وخرجت لاعود بعد دقائق . كان الثـوب ناعما منسدلا فـوق امتلائها الشهي . وكان النسيم يهز الستائر العريضة هـزا خفيفا . وكانت تمشـط شعرها الكثيف . ورأيت في انصبابه الكستنائي تموجا . وعادت السمـاء تمطر ثانية عند الفجر . فأغلقت النافذة . كانت ناعمة جدا ، جميلة وكأنهـا من نساء القصور في القرن التاسع عشر . وصحونا ساعة الظهر .

كان غداؤنا في مطعم صوفيا . وجاء النادل بالخمرة البلغارية والخضر اولا . ثم عاد بلحم الضان في المنقلة نفسها ، والفحم يتأجج تحت المقلاة . بعد الغداء أحبت أن تتجول في متحف بوشكين . ومن هنا انطلقنا لنتنزه في بارك سوكولنكـي .

كانت تحب أن تعد طعامنا بيدها . فمررنا في العاشرة من الليل بمخزن الاطعمة وتزودنا بالخمر الاحمر والوجبات شبه الجاهزة والفاكهة . وكنت أحاول اعانتها في المطبخ فتردني ضاحكة . وكان جمالها كالثمرة اليانعة . أحيانا في فراشها ، بعد ساعة عناق ، كان يطيب لها ان تجلس وتنحني بوجهها علي لتقبل وجهي ، منحدرة بفمها ويديها على جسدي ، وتتوقف حيث يلذ لها لتنتهلني انتهالا . وكنا ننهض متأخرين عادة . ثـا أذكر اننا افطرنا مرة .

بعد الغداء الشهي كنا نعرج على عربة الكفاس . ثم نركب الحافلة الزرقاء الفاتحة حتى ساحة بوشكين أو بهو الاعمدة لنقوم بجولة . أحيانا في الليل كنا نطفيء الضوء لنزيح الستائر عن النافذة المفتوحة . كان فمها لذيذا جدا ويداها لطيفتين . وسريعا ماانطوى الاسبوع كحلم .

وفاتني أن اتمتع برحلتي الصيفية . فلقد تلكأت هذه المدة كلها ولم أمر على الادارة لاحجز . وظللت أياما لاغادر غرفتي الا لاكل . كنت أقرأ طوال النهار .. وحتى ساعة متأخرة من الليل . غير ان النهار طويل وممل . فأتصلت برايا . كانت ترد علي ضاحكة :

ــ وأين كنت هذه المدة كلها ؟ طلبتك مرارا ولم تكن في البيت .

لابأس . سأراك مساء .. في السابعة . هناك ايضا عند السينما المركزية .

كان الرذاذ ناعما في مهب الرياح المتلاعبة . وكنت أسير حيال الازفيستيا . ورأيتها محتمية بمدخل بناية السينما القديمة . كانت في معطفها المطري الضارب الى الخضرة . وكان شعرها المتموج نديا .

ــ أين ترغبين ان تذهب ؟

ــ وأي فرق ؟ مارأيك ان نركب الباخرة حتى بارك غوركي ؟

ــ فكــرة بديعــة •

كان وجهها ضاحكا • وكنا واقفين في المشــى الخارجي من المركب • والرياح البليلة تتناهب شعرها :

ــ أأنت منشغل مساء السبت ؟

ــ كــلا •

ــ رائع • سنقضي الامسية معا • كنت متفقة مع اصدقاء لتمضية السهرة في شقة ما • سأعتذر غــدا •

ــ لكنني لااريد ان احرمك صحبة زملائك المتعة •

ــ ماذا تقول ! سيمرحون معي أو بدوني • في بداية الامر كنت افكــر أن نذهب • غير انك ستضجر • ولماذا ؟ سنتجول معا في هذه الايام الاخيرة قبل أن اسافر • كيف هي اخبار لينا ؟

ــ تقول انها تتمتع جيدا بالبحر والشمس • وتنتظر مني رسالة مــن منتبعي •

ــ ومتــى ستسافر ؟

ــ تصوري انني نسيت أن امر على الادارة •

ــ كيف ؟ أهذا شيء ينسى ؟ انك لغريب حقا ! وكيف ستعيش العطلة ؟ أفي القراءة والكتابة ؟ أم ان هناك أمرا أخــر ؟

كانت تضحك خالية البال • وكان نهداها المائجان بمعطفها يختلجان • وكانت تشرئب فيبين جمال عنقها الاتلع الناصع • وشفتاها المتلئتان لاتكفان عــن افترار •

ــ متــى ستسافــرين ؟

ـ مساء الاثنين . الم أخبـرك ؟

ـ كـلا .

ـ اتريد ان تصحبني نهار الاحد الى الضاحية ؟

ـ وهل هناك نهار أجمل مـن هذا ؟

ـ يسرني هذا منك . سنتجول في الغابة . وسنسبح في البركة ايضـا قبل ان نتغدى بين الاشجار ، فوق الاعشاب نفسها .

في ليلة الاحد ، بعد المقهى ، كانت لنا جولة طويلة في حدائق الكورنيش وراء الكرملن . وصباحا كانت السماء صاحية ، والجو مشمسا دافئا . فركبنا قطار الضاحية الكهربائي . كنت احمل في حقيبتي مايلزم الرحلة من أطعمـة وأشربة وأنية . ولم أنس الجريدة نبسطها مائدة لنا . وكانت رايا في بدلتهـا الرياضية الزرقاء القاتمة كطالبة . وكانت مقبلة علي بابتسامتها الرائعة ووجهها وحركة يديها .

ورغبنا ان نسبح اولا . كانت البركة مرتعا مزدحما بالعشرات . وكنـا نسبح ضاحكين منطلقين . ثم تمددنا لنستريح . كانت الشمس تشتد توهجـا مع الظهيرة . فأرادت رايا أن تغطي وجهينا بجريدة تقينا وقدة الشمس . كان وجهانا متجاورين ، متلامسين بمنأى عن الاعين . ولم نكن نتقصد شيئا . انما هو المرح ووجهها الناعم الحار . فأسترقت قبلة من وجنتها . لم تقل شيئـا . ولم تشح بوجهها . كانت صامته جادة . وكأن هذا شيء لايعنيها . وكـأنني اداعبها ، وهي غير ملتفته أو منتبهة . غير ان وجهها كان ممتعا . فأخـذت أقبل خدها قبلا متباطئة . فلم تتحرك . فأقتربت بفمي من شفتيها ، ورحـت ألثم شفتها السفلى الممتلئة . وفجأة انطلقت ضاحكة . كان ضحكها صافيا ، جذلا لاتثريب فيه ، ضحكا لايقول شيئا غير اننا نمرح لاهين .. بلا قصد ، بلا غاية ، بلا فكرة مـا .

وأردنا ان تتغدى • فأرتدينا ثيابنا ، وابتعدنا تحت اشجار السنديان والبلوط • واخترنا مرجا صغيرا تتلاعب فوقه أشعة الشمس • ففرشنا الجريدة • واخرجت من حقيبتي زجاجتي نبيذ أحمر وسمكا معلبا وفاكهة • قالت رايا غامزة بعينها الراضية :

ــ قنينتان ! هذا كثير •

ومضت ، هي الاخرى ، تخرج من حقيبتها سجقا وجبنا وخضرا وعلبة كافيار أحمر وخيارا مملحا • وأبرزت زجاجة خمر قائلة :

ــ هذه •• فيما بعد •

ورفعت قنينة لافتحها • لكن أين هي الفتاحة ؟ ورحت ابحث عبثا في الحقيبة وجيوبها • كانت رايا تضحك وهي ترى بحثي اليائس وحيرتي :

ــ واضح انك نسيتها • فيم تفتش حولك ؟

وتلمست باطن حقيبتها • وكان ضحكها من نفسها أشد :

ــ وأنا الاخرى ايضا • لم تخطر لي هذه الاداة اللعينة لحظة •

ــ وماذا سنفعل ؟

ــ هذا سؤال مهم •

ــ هل أبحث في الجوار •• عسى أن اجد منزوى كهذا ؟

ــ لنجرب •

وبحثنا فيما حولنا بلا طائل • كانت رايا تتذمر :

ــ لو انها فودكا ! لما كان الامر يتطلب جهدا • لكن كيف بفتح هذه الزجاجة المحكمة القوية ؟ كيف غاب عنا أن نجيء بفتاحة ؟ انجيء بكل شيء وننسى هذه ؟ كيف ؟

ــ وما العمل الان ؟

ــ ما ادراني أنا ؟

فأعدنا كل شيء الى مكانه • واتجهنا الى الطريق • كانت المروج مائسة بورودها العالية • وانحنت رايا تقطف باقة من الزهر • كان بنطلونها الضيق يشد قوامها الملتف الرائع شدا قويا • ورمتني بنظرة ضاحكة من بين ساقيها المليئتين • وكنت وراءها امتع طرفي باتساقها الجسدي الساحر • كانت في تنقلها ، ومشيتها المنطلقة مع النسيم وبجيدها الاتلع اشبه بالظبية النافرة • وكانت تريد مني أن انحو نحوها في خفة خطاها وتوثبها في عناق مع الرياح الشذية • ولكزتني بمرفقها مرتين • وكنت قاصرا عن مجاراتها في هذا الخطو الراقص • فأعثرتني بحركة مباغته من ساقها فهوينا معا فوق الاعشاب الكثيفة • وانقلبت عليها • كان صدرها لاهثا تحت صدري وعيناها تضحكان • كنت أشد ذراعيها وكتفيها ، وفمي على شفتيها تقريبا • فانتبهت فجأة ، قائلة بصوت متهدج خافت :

ــ مابك ؟

فتركتها • ووقفت نافضة عنها اوراق الزهور • وسريعا ماعادت مرحة متوثبة • قلت :

ــ هل نمر على المحطة أو أي منزل صيفي ونسألهم فتاحة ؟

ــ لكن ماقولك أن نبيت الليلة في العراء ؟

ــ ستعوزنا خيمة •

ــ لن يعوزنا الا بطانيتان • مع هذا سنأخذ خيمتي الصغيرة • هي في سعة الشرشف تقريبا • وقد لاندخلها الا ساعة حين تمطر فجأة •

ــ وقد لاتمطر •

ــ سنأخذها تحوطا •

ــ طيب • لنعد الى شقتكم •

ــ هذا بعد محطتين •• في منزلنا الصيفي •

كانت تغمزني مازحة ، معابثة حنكي بسبابتها .

ـ سنتغدى عندنا .. وننطلق .

ـ أمعــك مفتاح ؟

ـ مابك ؟ أمي هنا منذ أول الصيف .

ونزلنا بعد محطتين . كانت المنازل الصغيرة متجمعة كالاعشاش وراء أسيجة الحدائق . قالت رايا :

ـ سنتزود بكمية كبيرة من حب الكبش .

ـ لاتنسي أن تأخذي فتاحة .

فضحكت خالية البال :

ـ فعلا لو لم تذكرني لنسيت . وسنأخذ مشمعا نفرشه تحتنا .

وانطلقنا محملين . كان المتاع مشدودا فوق كتفي . وكانت رايا تحمــل كيسا ممتلئا بالحطب . هبطنا بعد محطة واحدة . واجتزنا حقلا محصودا . واتجهنا صوب احراش البتولا والشربين . وحططنا رحالنا في المرج الاخضر المتماوج تحت الشمس والرياح . كانت الغابة غير بعيدة عنا . وهنا أو هناك تلوح خيمات صغيرة متباعدة . كان بعضهم قد سبقنا الى المرج .

اخترنا بقعة مرتفعة قليلا ، ممهدة من قبل . ونصبنا خيمتنا الصغيــرة الخفيفة بالقرب من حفرة لايقاد النار . وجعلنا مدخلها باتجاهها .. كــان ارتفاع الخيمة أعلى من نصف القامة بقليل . لم تكن الا ملجأ من ديمة عابرة مباغته . وتركنا متاعنا في الخيمة لنتجول .

واخذنا نقطف الزهر البري لنكومــه حيث نبيت . واقتــرحت رايا ان نركض متسابقين ، عبر السهل المترامي ، حتى شجرة بتــولا ترتفع منعزلة . وسبقتها . فارتمت ضاحكة ، لاهثة ، ووجهها يشتعل توردا :

ـ لماذا سبقتني ؟ كان عليك أن تتخلف .. فأنا امرأة .

ـ لو كانت هنا جائزة لتخلفت •

ـ فلماذا لم تفكر بهـا ؟

ـ سأفكر في المرة القادمـة •

ـ متى ؟ أنا راحلة غدا مساء •

ـ اذن بعـد عودتـك •

ـ أنذاك •• لن تجد وقتـا •

كانت السماء عارية • وكنا مستلقيين فوق مهاد من العشب الكثيـف الاخضر • وكان شعرها معفرا بالزهور الناعمـة المنسحقة • وكـان نهداهـا مشرئبين بقميصها ، ويداها تحت رأسها • فجأة رأيتها تنهض نصف نهـوض متأملـة ماحولها بعيني شادن يتوجس أمرا • ثم استلقت ثانية • كانت فخذاها القويتان المليئتان تنطرحان طـويلتين متباعدتين • وطفقـت تترنم كالهامسة الحالمة :

لاشيء يسمع •• لاحفيف ورقـة

في هذه الامسية عند ضواحي موسكو

وكنت مصغيا باتنباه • ثم اخذت أقول لنفسي : اتذكر ؟ كانت لها هاتان العينان ، عينا الجؤذر الاغن ، انما كانتا دعجاوين • وصاح بها حموها لتعـد الشاي لضيوفه • اتذكر ؟ كنت واقفا فقرصت فخذك وهي تمر بك في غفلـة منهم • كان هذا بعد عرسها • وخرجت منصرفا بعد حين • ورأيتها تتمشى في العتمة جوار الكوخ فتبعتها • فأمسكت بها بين يديك • فحاولت ان تتخلص منك • وكنت تقبلها وتدفع بها وراء كومة القش الهائلة • كانت أفخاذهـا تتقلب مليئة ناعمة •

ـ أيـن كنـت ؟

ـ ان لك صوتا مؤثرا •

كانت الغابة مشتعلة بالشمس الغاربة ، وعلى المرج « لطف من السما مسكوب » وأخذت بيدها ، مداعبا ، لتنهض .. ان هناك اكثر من اربع خيم متباعدة . وكنا نراهم يتحركون ، ويوقدون نيرانا . فأحسست أنني في قريتي .. حين يخيم الغجر والرعاة منحدرين من البادية طلبا للكلأ . وبالقرب من الطريق الريفي المعبد تلوح خيمة هي اكبر الخيم واكثرها جماعة وحركة . وكانوا يشوون لحما . وحين تبينوا في غريبا أندفعوا ملحين ان نشاركهم حفلهم . فشكرتهم ورايا مواصلين سيرنا باتجاه خيمتنا الصغيرة الواطئة .

أخرجت متاعنا وكيس الحطب . وفرشنا المشمع فوق العشب ، ومددنا لبطانيتين ، منطبقتين عليه . ثم بسطنا جريدة فوق موضع ممهد مرتفع قليلا شبه بمائدة منخفضة عند الموقد . وشغلنا بالحقيبتين نخرج ما فيهما من قنان واطعمة . ثم اشعلنا حطبا في الحفرة . ورأيت رايا تضع زجاجة فودكا .

ــ وهذه من أين ؟

ــ جئت بها من الداجا .

ــ لكن لدينا ثلاث قنان .

ــ سيمر أخرون .. ولابأس في دعوتهم .

كانت مائدة سفرية حافلة . بعد قليل جاءتنا فتاة من الخيمة المحتفلة بسفودين مثقلين بقطع كبيرة من لحم الضان . فشكرناها واثقلنا لها من فاكهة الحديقة حتى أخذت تضحك وتقول :

ــ هذا كثير .

واصررنا أن تشرب قدح فودكا . ورحت أهيء الموقد المتأجج لاقلب اللحم فوقه . كانت رائحة الزهور المتكومة تفوح . وكنا نشم القثار شهيا يتصاعد من النار . فصفقت رايا مرجة :

ــ ها قد اكتملت مائدتنا . سأفتح قنينة نبيذ .

فأزحنا الفودكا جانبا . كان الليل صافيا طريا متلألئا بالنجوم الكبيرة . والنسيم الشذي برائحة المروج والغابة يهب رائقا معتدلا . ومر فتى وصديقته متأخرين بعد نزهة بعيدة . فرحبا بدعوتنا ضاحكين . وفضلا قدحي فودكا . وشربا واقفين .

واتتنا من الخيمة فتاتان اخريان لتمضيا بنا اليهم . فأجلسناهما لتشربا . كانت علبنا لما تزل مغلقة . ولففت البقية من السجق والجبن لاوصد الحقيبة عليها . ومكثنا ساعة مع القوم . كانوا لطفاء مرحين . وكان الرقص مبهجا في العراء ، تحت السماء المزدانة بالشعل الكوكبية الدانية .

وأحبت رايا ان نقوم بجولة . كان الطريق الريفي منقطا بأطياف من المتنزهين ، والليل في منتصفه . ووجدنا فتى ما يعانق فتاته مقبلا عند جذع شجرة . فابتعدنا ضاحكين .

ثم اوقدنا النار ثانية . ان لدينا زجاجتنا الاخيرة . فاحتفظنا بها مقفلة لنشربها ساعة يروقنا أن نشرب . وتمددت رايا بطولها البديع كله ، متوسدة ركبتي . وانبرت تتغنى كالهامسة . وكنت الاطف شعرها بيدي . وانحنيت لاقبل وجهها ، فتوعدتني ، باسمة ، باصبعها . كانت تتغنى باغنياتها الحزينة الخفيضة الشاكية .. وكأنها غجرية . وكانت النار متأججة في الحفرة . وكنت مكتفيا بملامسة شعرها وكأنما هي طفلة . فسألتني لفافة لتدخن . فأردت أن نرتشف قدحا .

ــ كلا .. فيما بعد .

ثم نهضت لتقول :

ــ منذ ساعة وأنا اتوسد ركبتيك . لابد من ان رجليك قد تخدرتا .

ــ كلا . تمددي ثانية واستمري في غنائك .

كانت النار تلون وجهها بمثل لون الشمس الغاربة . وكانت صامتة شاردة وكأنها في حلم ما . قلت :

ــ أأنت متعبــة ؟

ــ قليلا .

ــ سأهيء لك فراشا مريحا .

ومددت المشمع باتجاه العراء ، قريبا من الحفرة الموقدة ، وفرشــت احدى البطانيتين فوقه . وتركت الثانية غطــاء لها . وجعلــت من سترتي السفرية وسادا . وكانت تقول كمن يخاطب نفسه :

ــ طيب . سأنام بكامل بدلتي الرياضية .

وكانت كالمتحيرة . ثم تدثرت بالغطاء صامته . وانها لتلوح في تمددها امرأة مكتملة البنيان ، كبيرة مغرية . ورحت اردد مع نفسي ابياتا لعمــر بن أبي ربيعة ، مستقبلا النار بوجهي :

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه

وروح رعيان ونوم سمــر

فبت قرير العين اعطيت حاجتي

أقبل فاها في الخلاء فاكثــر

يمج ذكــي المسك منها مقبل

نقي الثنايا ذو غروب مؤشــر

تراه اذا ما افتر عنه كأنه

حصى بــرد أو اقحوان منور

وسمعتها تدعوني قائلة :

ــ تعال وتمدد هنا .. لابأس . أنا بكامل بدلتي .

واضافت حين وقفت :

ــ وهات القنينة مــن فضلك .

كنا مستلقيين تحت الغطاء . وكنا ننهض نصف نهوض لنشرب مــن

الزجاجة مباشرة . كان الهواء معتدلا . وكنا نسمع أصوات الغابة والمروج الليلية . وابعدت القنينة كيلا تنسكب . واخذت رايا بين يدي ملاطفا . لم تتحرك ولم تتمنع . انما همست كالمعاتبة وأنا اقبل وجهها :

ـ لايجوز هكـــذا .

ـ ادري لايجوز.

ـ فلماذا اذن ؟

ـ لاقبلـــك .

لم تقل شيئا . فرحت اقبل جيـــدها وشفتيها . ولم تكـــن لتردني أو تتحرك لتنأى بفمها عني . كنت الثم وجهها كما اريد . كان صوتها مرتعشا واهنا :

ـ لماذا هذا ؟ لماذا ؟

ونزعت بنطلوني في هدوء . واردت ان انزع قميصي . فسمعتها تقول هامسة بالصوت المتهدج نفسه :

ـ لاتنزع قميصك . ستبرد .

وكنت اقبلها صامتا . لااسألها شيئا .

ـ انتظر . سأنزع . انما سأبقي على قميصي وحده . لابأس ؟

وسريعا ماوجدتها بين ذراعي . كانت النجوم تتلامع فوقنا ، والغابة عن قرب تتنفس . لم اعد أرى رايا المرحة المتهكمة . كانت امرأة مكتملة تهمـــس لي بألذ وأرق مايمكن ان تهمس به امرأة بين يدي رجل . أمرت ساعتـــان ؟ ثلاث ؟ ربما . ثم اخذنا الزجاجة لنفرغ منها .

ـ اتصدقني ؟ ماكنت لافكر بشيء مـــن هذا .

ـ أنا ادري ان الامر كان بعيدا عن ذهنك .

ـ كنت اتصور اننا سنظل متمددين بثيابنا كلها .. حتى يغلبنا الشراب والنعاس فنغفـــو .

ـ مع هذا •• كان الامر جميلا في العراء •

ـ بالطبع • كان ممتعا جدا •

ـ ماقولك في أن ندخل الخيمة ؟

ـ اتحس ببرد ؟

ـ بعد هذا ؟ كــلا •

ـ طيب • لنبترد هنا في هواء المروج العليل • وسندخل فيما بعد • قل لي مع ان سؤالي مضحك ، أكنت تظن ان هذا سيحدث ؟

ـ أهناك رجل لايفكر باحتوائك بين يديه ؟ بالطبع لم اكن اتقصد شيئا اول الامر • انما بعد ان تمددت بطولك تحت الغطاء ••

ـ حاولت ان اصدك برفق •• ولم استطع •

ـ وكنت سألح •

واتنقلنا بفراشنا الى الخيمة • ولم تعد بنا حاجة الى قميصين • انــي لاتذكر انحناءها علي بيديها وفمها تلمسني وتنتهلني اتهالا •• ووجههـــا مشتعلا بانعكاس الجمرات المتوقدة عليه •

كان النهار يمر ممطرا باهتا • والليل يهبط متأخرا • لاشيء غير القراءة في مقهى الشباب والتبغ والقهوة • وكانت رسالة لينا الاخيرة معنفة لي لائمة • كيف أفوت علي رحلة جنوبية شيقة • كنت اخبرتها في خطابين انني مزمع ان اسافر • ثم كتبت ، متذرعا بالقراءة ، انــي مقيم • فلــم تشأ ان التقيها في المحطة • كانت غضبى تماما • واكتفت ذاكرة انها عائدة بعد أيام • غير انني كنت اعلم انها عائدة قبل آخر الشهر •

ابتعت قنينة فودكا وبطيختين • هذه فاكهة لاتنبت في حديقة الداجا • وانطلقت في القطار الكهربائي •

كانت أمها في الحديقة تقطف تفاحا • حييتها وسألتها عن لينا • قالــت انها تجمع الكماة في الغابة • واشارت بيدها :

ـ ستجدها بين تلك الصنوبرات • ستفرح كثيرا برؤيتك •

وتركت كيسي عندها • وسرت باتجاه الصنوبر • فلم اجدها هناك • أين ترى هي ؟ كنت ابحث متحيرا • ورأتني امرأة كهلة اتلفت فسألتني :

ـ اتبحث عن احد ؟

ـ اجل • أنا ابحث عن صديقة تجمع الكماة •

ـ أهي الجميلة •• الممتلئة ؟

ـ اجل •

ـ تعال معي وسأدلك •

فأخذنا نسير باتجاه أخر • وقالت بعد ان انعطفنا حول اشجار عتيقة ضخمة متشابكة :

ـ انها هناك • اترى البتولا العالية تلك ؟ هي هناك •

ورأيتها وظهرها لي • كانت سلتها بالقرب منها ، وهي تنتقي الكماة بيدين خبيرتين • قلت فرحا :

ـ لينا •

فوقفت متأودة ، وعلى وجهها الشاحب حمرة مباغته • وظلت محدقة بي وكأنما هي تراني لاول مرة :

ـ هذا انت ؟

وسألتني بعد عناق :

ـ كيف فوت عليك رحلتك ؟

ـ شغلتني القراءة •

ـ أهو بروست أخر ؟

ـ كنت أقرأ

ـ بل كنت تتسكع •

ـ اقرأ •• واتسكع • لنمض •

ـ سنجمع مقدارا أخر •• وتتنزه •

كان شعرها الاشقر الغزير يتوج رأسها بتسريحة بسيطة • وكـــان ثوبها منسدلا فوق اروع امتلاء يمكن ان تحظى به امرأة • وتذكرت أولا • ان لينا لاكثر امتلاء منها • مع ان هذا لايكاد يبين لو انها وقفت معهـا • ربما لان لينا اطول منها • ولان بطنها اكثر انبساطا • وتذكرتهـا في روب العمل الازرق النيلي ! حين تكـون المرأة جميلة فهي جميلـة في أي رداء ترتدي ! حتى في بيجامة الرجل أو سترته ! بل ان جمالها سيلوح اشد غرابـة واثارة ! وسألتني :

ـ هل جئت معك بكتب وثياب ؟

ـ لمـاذا ؟

ـ لكن الدراسة لن تبدأ الا بعد اسبوع •

ـ وهل انت ماكثـة هنا ؟

ـ بالطبـع •

واضافت بعد قليـل :

ـ سأنهض مبكرة كل صباح • واعود سريعا في القطـار الكهربائي • وانت ستقرأ طوال النهار •• متجولا في هذه الغابة والمروج • وحين ـل يمكن ان تتنزه في امكنة اخرى • وما اكثرها هنا • وستسبح حيث يسبـح العشرات في البركة • هذه فرصة بديعة لاكتشاف الضاحية • ثم ان العزلـة في هذه الطبيعة الساحرة تجعلك تقرأ اكثر •• وستلهمك بقصيدة ما •

حين تنحني لتجمع الكماة كنت انحني معها لالثم وجههـا الشاحب أو ذراعها المنكشف ووجنتها الغسقية • وكنت اتملى انحناءتها البديعة الاخاذة ممتلئا رغبة واعجابـا •

ـ اذن مثلما قلت لك • ستركب القطار غدا صباحا ، وتعود بما تشاء من كتب وكفايتك من الثياب • وحتى حين تبدأ المحاضرات سنواصل مبيتنـا

هنا • وسنركب مبكرين كل صباح • وسأنتظرك مساء كل يوم قرب المنزل لتحمل معك مابك حاجة اليه لدراسة الغد • وهكذا حتى أخر يوم من ايام القاحية • سترى أية اوقات ممتعة تنتظرك هنا •

كانت أمسية مرحة حول المائدة • وكانت لينا ترفع بشوكتها قطعة صغيرة من البطيخ ، وتتأملها قبل ان تقضم منها باسنانها المنتظمة الناصعة الجميلة ، وتقول أخذة هيئة جادة :

ـ هذه اول مرة اتذوق فيها بطيخا على مائدة شراب • قل لي من فضلك كيف خطر لك ان تجمع بين هذه الفاكهة الغريبة والفودكا ؟

فأسرعت أمها قائلة :

ـ مثلما خطر لك ، في الحافلة ، ان تجمعي بين حزنه الغريب ورغبتك فيه ، لتتذوقيه تذوقك هذه القطعة الغضة بأسنانك القوية •

ـ كلا • ماأنا كذلك • هذا هو •• لايراني الا جسدا •

ـ لو كان كذلك لهجرك بعد يومين •

كانت أمها جادة مرحة في الان نفسه • وكنت استعيد صورة لينا حين رأيتها في الغابة غافلة عني وكأنها حورية الغابة أو راعيتها • هي في الغابة غابية حالمة ، وفي الشارع سيدة من ألهة الخطى المتثاقلة • وفي فراشها كالعروس في أول ليلة • وكنت معها كالسابح في غدير النور النقي الكريم • وسبحنا معا تلك الليلة في هذه المياه القمرية الصافية ، مياه كل ليلة معها • حين أخذها بين يدي كنت أحس انني اعانق ملكة متوجة • وكان بياضها النقي كاضوية النيون •

في ساعة الصباح المبكرة كنا نجمع التفاح المتساقط ، وقد طوحت بـا زوبعة الليل المرعدة الممطرة • وكان الرعد يوقظنا من نومنا بانقضاضته الرهيبة • فنفزع ناحية النافذة ، ملتفين بالشراشف الناصعة لنتأمل البرق

متشظيا ، ونمتع الطرف بالمطر المنسكب . أنذاك كان وجهها ساهما حالما كوجه فلاحة ترقب نعمة السماء . وحين تتكسر الرعود متحطمة فوق سقفنا ، منتشرة ، متجاوبة بعيدا فوق الغابة والسهوب .. كنت أرى وجهها ، وقد اضاءه البرق قبل برهة ، كوجه وثنية تتلبسها قوى الطبيعة الغامضة الهائلة . وأحس بارتجافه ما في بدنها . وكنت اتركها لسكونها وافكارها . وحين تمسك بيدي كالخائفة كنت أشد ظهرها بذراعي فتلوذ بي كاليمامة لائذة بذكرها . غير انني حين افتح عيني واجدها صاحية قبلي ، مع الزوبعة المباغته ، كنت أراها حانية علي ، وكأنما هي تدفع عني خطرا ما بتعويذتها الصامته .. فاتذكر طفولتي القروية الضائعة . وتسرع بتغطية تدييها بيديها وبشرشف النوم الابيض .

وها هو الخريف ذهبيا أزرق يطوق الضاحية . وها هي الرياح تلذعنا ببردها . فأقفلنا الداجا ، وقطفنا أخر ثمرة متبقية .

كانت استاذتي في اللغة ، نينا كورنيفا ، طيبة وديعة كحمامة . وكنت من بين طلبة الكورس طالبها الوحيد .. ولم تكن لها معي غرفة خاصة بالدرس . فكنا نقضي ساعة اللغة في أي مكان نجده هادئا أو خاليا .. في صالة القراءة ، في غرفة الاطفال أيام القصر الارستقراطية أو غيرهما . وكان احد العاملين في المعهد متيما باستاذتي . كان وقورا خجولا يحيينا بأدب جم . كان وجهه يتخضب حمرة كوجه عذراء كلما أبصر بها . ولعله كان يحسبني أسعد العالمين لالشيء غير انفرادي بها ساعة من كل يوم .

لم تكن لتريحها نظرة الاستاذة الشابة الي . غير انها تبتهج مرحبة بتقرب غالينا مني ، ووقوفها المتعمد حيث أقف متأملا لوحة ما على الحائط . كانت غالينا تقف ملامسة كتفي بكتفها ، أو ناظرة من جانب الي نظرتها الطويلة الحارة . بل رأيتها ، مرة ، سائرة حيال مقهى الشباب ، وكنت أقرأ فيه . كانت

تتطلع الي بنظرتها الطويلة ، وفي عينيها حيرة وتساؤل • ربما كان هذا منها صدفة • غير ان صاحبتها كانت معنا في هذا المقهى قبل يومين • ولقد رأيتهما تتهامسان اكثر من مرة وأنا أمر بغرفتهما في المعهد • وكانت هذه الحميراء المشاكسة تكاد تهتف أن اقترب فغالينا تنتظر • بل رأيتها ، مرة ، تدفع بها نحوي دفعا ، وكانت غالينا تطرق برأسها خجلا ، متوردة الوجه • وكانت الحميراء ترمقني متضاحكة •

السماء زرقاء ندية حينا ، مكفهرة ، مدلهمة اكثر الاحايين •• وكنت أحس بارتياح كلما كانت السماء غائمة باردة بلا امطار ، وأنا اتجول في مماشي الحدائق ، تحت اوراق الخريف المتطايرة في الرياح • وكان مقهى الصداقة ، في كوزنيتسكي القديمة ، مايزال قائما بمظلاته فوق موائد الحديقة • كنت أتردد عليه في هذا الوقت من السنة •• أتجرع كأس كونياك ، جالسا ساعة ، متأملا اشجار الشارع الخريفية والسابلة ، عصر الثلاثاء خاصة • كانت الزهور في احواضها من حولنا •• وكنت بمنجى من الرذاذ تحت المظلة المخططة بالاحمر والازرق • وكنت ارى نادلته الشقراء الجميلة •• فأتذكر نينا الضائعة والكراسي الصفر في البهو من فندق موسكو • كان اليمام يتخافق أو يحط لاهيا عن قرب ، والريح تهز قمم الاشجار المصفرة • وثمالة الكأس كالشمس المنطفئة •

كانت لينا غائبة في مهمة عمل منذ اسبوع • ولن تنقضي غيبتها الا بعد شهر • فكنت اعود وحيدا ، متأخرا في الحادية عشرة من الليل ، بعد ساعات في مكتبة الاداب الاجنبية • وكانت الغرفة موحشة صامته •

ومرة دعتنا استاذة جيلي لنشاهد فلما في السينما المركزية • وكنت أخر الحاضرين • كان جيلي جالسا بين ابنة الاستاذة وصديقتها • وكانتا مراهقتين • ورأيت جيلي محتقنا بينهما • وكانت الاستاذة مع زوجها ••

وكانت غالينا جالسة ايضا ! وكان مقعدي جوارها • ورأيت عينيها تأتلقان في العتمة وهي ترمقني • وعرفتني الاستاذة بزوجها مازحة :

ــ ان له من بوشكين اسمه واسم ابيه لااكثر •

وحين خرجنا قالت الاستاذة :

ــ هل نوصلك ياغالينا ؟

ــ شكرا • يمكنني أن اصل هكذا •

وحين وجدتني صامتا اشاحت بوجهها الاسيل ممتقعة • وتركتنا لتنعطف يمينا باتجاه ساحة مايكوفسكي • فأسرعت قائلا :

ــ كانت معنا • ينبغي أن اوصلها •

قالت الاستاذة ضاحكة :

ــ اكنت تنتظر ان اوصلها أنا ؟

ولحقت بها بعد خطوات :

ــ جئت لاوصلك •• بعد سماحك بالطبع •

لم تقل كلمة • ولم تتوقف • انما رمتني بنظرتها المشتعلة زرقة وارتيابا • وظللنا نسير صامتين • كان الرذاذ ناعما ، والرصيف عاجا بالخطى المتسارعة والوجوه الضاحكة • قلت وكنا نقترب من مطعم باكو :

ــ اتسمحين لي بدعوتك الى المطعم ؟

ــ شكرا • لاضرورة لهذا •

ــ لكنني أود كثيرا ان اجلس معك •• واتحدث •

ــ ولماذا في مطعم ؟

ــ واين تودين ان نجلس ؟

ــ في المقهى •• مادمت تريد •

ــ اليس المطعم اكثر امتاعا مع الموسيقى ؟

كانت عيناها الزرقاوان الكبيرتان تتقدان شررا • كانت في الرابعة والعشرين من عمرها • واعتنتها في نزع معطفها • ورأيت قوامها الاهيف الطويل فتذكرت انحناءتها لي في البوفيت ، وهي تنتقي البرتقال • كانت ضيقة الخصر ، ملتفة باكتافها وافخاذها التفافا ممتلئا رائعا • وسألتها بعد رقصتين وأنا اصب الخمرة في قدحينا :

ـ لماذا تنظرين الي كالمتوجسة ؟

فضحكت ضحكة خافته :

ـ كنت أظن انك ستوصلني •• من غير هذا كله •

ـ وأي ضرر في ان تتعشى معا ؟

ـ وأي ضرر فيما لو اكتفينا بجولة ؟

ـ هل يمكنني رؤيتك غدا ؟

ـ ولماذا لا ؟

وفي ليلة الاحد ، بعد أخر محاضرة ، كنا في الطريق نفسه • قلت :

ـ سأوصلك حتى بيتك •

ـ لابأس •

وكان بيتها قريبا • وعند مدخل العمارة قلت :

ـ كنت أود ان نقضي الامسية عندنا •• غير أنني اعرف انك متعتذرين تحرجا من الاخرين •

ـ بالطبع سأتحرج •

ـ أمن الممكن عندك ؟

ـ ممكن •

قالتها متبسمة ، متكهنة بمرامي • قلت :

ـ لنمر على المخزن اولا •

كان الليل باردا ممطرا . وطوال الليل كانت غالينا عارية بين ذراعي . وبعد يومين رأيتها متغيرة ، منقلبة تماما . كنا متفقين ان نلتقي عند السينما المركزية بعد الجرس الاخير . وكانت الاستاذة الشابة راغبة أن اوصلها . وهل كنت لارفض لها طلبا مثل هذا أو اعتذر عنه ؟ ولقد رأتنا غالينا تتهامس في الممر . فاشتعلت عيناها حنقا وريبة . ولعلها رأتنا معا عند مسرح بوشكين .. وترقبت فوجدتنا منحدرين معا ناحية كيرتسين . فكان انقلابها مريرا لاتسامح فيه . مرة لم تجد استاذتي مكانا غير غرفة غالينا . فأخذت الحميراء بالضحك حالما رأتنا داخلين . أما غالينا .. فلم ترفع وجهها عن اوراقها مدة طويلة ، مفتعلة صمتا مطبقا . وكانت استاذتي ، وقد وضح لها الامر ، تتأملها باسمة ، ملقية علي نظرة مؤنبة .

كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف . كنت عائدا من مكتبة الاداب الاجنبية فرأيت ان ادخل السينما .

كان شباك متروبول مغلقا . فوقفت مع غيري من العشرات عسى ان اجد تذكرة زائدة عند احدهم . كان الثلج رطبا ذائبا . وكنت اتفرس المارة . فانتبهت لامرأة شابة رائعة الجمال ، ظاهرة الاناقة . كانت مع سيدة عجوز . وكانتا تذرعان الناصية جيئة وذهابا .

كانت غريبة في هيئتها وكأنها أتية من القرن التاسع عشر . لم تكن ملتفته لاحد فيما بدالي . كانت مرتفعة القوام ، ممتلئة ، مكتملة الساقين ، تلف تسريحتها العالية بمنديل ابيض مخرم . وكان شعرها أشقر غزيرا . أهي ممثلة ؟ وتقدم مني شاب وصديقته :

ــ اتريد تذكرة ؟

ــ سأكون شاكرا لكما .

واخرجت روبلا . قال :

ـ كلا • لن أخذ منك اكثر من سبعين كوبيكا •

كان ثمن التذكرة خمسين كوبيكا • ورأيت السيدتين تدخلان • كانت في السينما صالتا عرض : زرقاء وخضراء • وفي زحمة الممر سألت السيدة العجوز وأنا اعرف الاتجاه :

ـ اهذا هو الممر الى الصالة الزرقاء ؟

ـ اجل • نحن في طريقنا اليها •

أجابتني بابتسامة لطيفة ، وبنبرة أحسست معها أنها مدركة أي مسعى أروم • وكان صفي وراءهما تماما • وفي أخر الصف كانت فتاة شقراء فاتنة وكان مقعدي فارغا جوارها • وحين جلست رأيت السيدة الجميلة تلتفت لاول مرة • كانت تتفحص الفتاة بعينيها الزرقاوين الكبيرتين • ولم تكن نظرتها اليها نظرة ارتياح •

بعد السينما ادركتهما في الشارع • وسألت السيدة العجوز :

ـ هل أستطيع أن اسألك ؟

ـ تفضل •

قالتها مبتسمة ابتسامتها العارفة اللطيفة •

ـ ارجو معذرتك اولا •• لانني سأسألك سؤالا هو الفضول بعينه • ومع انني اعرف هذا فأنني مرغم لان اسأل •

ـ إنني مصغية •

ـ اهذه السيدة الشابة ابنتك ؟

ـ اجل هي ابنتي •

ـ ما اسمها من فضلك ؟

ـ اسمها لاريسا • لماذا لاتسألها هي ؟

كانت تبتسم بلطف • أما ابنتها فكانت تحدجني في غموض •

ـ كيف يمكنني أن اسألها ؟ هذه سيدة لاترى الا في حلم • وأنا الآن كالحالم ويخيل لي انها ستختفي حالما اقلق سكونها بكلمة •• تماما كما يختفي الحلم حين نصحو فجأة •• ماهي الا طيف أو رؤيا •

ـ اؤكد لها أنها امرأة كغيرها • وليست طيفا •

ـ كغيرها ؟ كلا • ماهي الاسيدة من القرن التاسع عشر • لانراها الا حالمين •• أو في قصائد الشعراء ولوحات الفنانين •

ـ من القرن التاسع عشر ؟ كيف ؟

ـ اترين خطوها الطائف ، والظلال المحيطة بوجهها ؟

ـ اتذكرك بامرأة ما ؟

ـ أجل •• بغريبة بلوك •

كانت تضحك ضحكا صافيا • وكانت ابنتها ترمقني متفرسة في وجهي • مصغية باتنباه •

ـ هي فعلا غريبة • انما ليس كما تعني •

ـ كيف ؟

ـ هي غريبة بتكبرها وعنادها • وأنا احذرك منها •

ـ وكيف لاتتكبر •• بجمالها هذا ؟

ـ أهي الجميلة الوحيدة ؟ ماأكثرهن !

ـ أليس هذا جمالا غريبا ؟

ـ أنا أراها بعيني أم ، لابعيني شاعر •

فجأة سألتني ابنتها • كانت في الخامسة والثلاثين ربما :

ـ لم تركت •• تلك الفتاة •

ـ لم يكن لي معها شأن •

ـ آ •• ظننت انك ستصحبها •

كانت سكناهما قريبة • وتوقفنا عند مبنى هائل مرتفع • واخذت الابنة تسألني أين اسكن ؟ ومن أين انا ؟ وودعتني امها شاكرة انني اوصلتهما • وصاحت بها ابنتها :

ـ سألحق بك بعد قليل •

ـ طيب • ولا تؤخريه بأسئلتك •

وحين سألتها :

ـ أأنت ممثلة مسرح ؟

اتسعت عيناها وهي تفحصني مبتسمة :

ـ كيف عرفت ؟ أنا لا اعمل هنا • أنا اعيش في لينينغراد • كيف عرفت ؟

ـ حالما رأيتك عند السينما عرفت •

ـ لكن كيف ؟

ـ ربما هي مشيتك ووجهك • هيئتك غير اعتيادية •

ـ ربما • اتدري ؟ أنا مسافرة غدا مساء •

فهتفت متألما :

ـ كلا • لماذا تسافرين ؟

فاتسعت عيناها ثانية ، وقد ابصرت بالالم في وجهي ، وسمعته في صيحتي • فأبتسمت قائلة :

ـ كيف لماذا أسافر ؟ أنني اعيش واعمل هناك • اسمع •• فعلا كنت أظن انك ستتعرف بتلك الفتاة •

ـ أنا لم ادخل السينما الا من اجلك • لم اجد تذكرة اول الامر فهممت بأن اغادر • ورأيتك فظللت انتظر • لو تعلمين كم سررت حين رأيت أننا في صالة واحدة • لكن كيف ؟ كيف يتحطم هذا الحلم ؟

ـ اتتألم وانت لم ترني الا مرة واحدة ؟

ـ ليست هي مرة • منذ سنين وأنا احلم بك •

ـ أحقا ؟ لكن فيم وقوفنا في البرد ؟ لنقف في المدخل •

ودفعت الباب • ووقفنا قبالة الدفاءة •

ـ كيف تركت فتاة جميلة ، كان واضحا أنها راغبة بصداقتك ؟

ـ هي جميلة • غير ان لك جمالا أخر •• جمالا غريبا !

ـ وأية غرابة تجد في ؟

ـ ان لك خطى امرأة من عصر أخر • وحول وجهك وقامتك هـــذه الظلال الغريبة •• وكأنك تسيرين في مدن دستوييفسكي •

ـ اتدري ؟ هذه اول مرة اسمع فيها من يقول ان لــي جمالا غريبا • مع أن لي أدوارا في مسرحيات من القرن الماضي •

ـ اية تعاسة ان افترق عنك لحظة لقائي بــك •

ـ قلت انك تسكن في •• ماسم هذه الناحية ؟

ـ دميترسكوي شسيه •

ـ آ •• انها بعيدة تقريبا •

ـ اسمعي من فضلك • أنا اعرف ان الساعة متأخرة • لكنني لااريد الا ان اتحدث معك وأتامل وجهك حتى الفجر • اتسمحين لي بدعوتك • أي عبث أن اتركك عند هذا المدخل !

ـ طيب • سأقول لك شيئا • كنت أرى جيدا كيف كنت تتأملنــي عند رصيف السينما • وحين وجدتك بالقرب من تلك الفتاة كنت أقـــول لنفسي : لو انه سيعرض عنها ويتبعني أنا لامضين معه • اكنت تتصور هذا ؟ مع انني متكبرة كما تقــول أمي •

في الركن من المنعطف كان كشك تلفون • فدخلته لتتلفن • ثم خرجت منه ضاحكة ، رشيقة الخطى مع امتلاء ساقيها وطولهما الرائعين •

ـ اتدري ماذا قالت أمي ؟

ـ ماذا قالت ؟

ـ قالت كنت اعلم انك ستذهبين معه .. منذ التفاتتك ناحية الفتاة .

واجتزنا الشارع لنوقف التكسي . وكانت تسألني مازحة :

ـ الست نادما انك تركت فتاة من اجل امرأة مسافرة غدا ؟

ـ بل سأندم طوال عمري لو انني لم اتبعك .

كانت ليلة غريبة . كنت أقبل يديها وجبينها الكريم حالما اعتنها في نزع معطفها ورأيت جمالها الجسدي الغريب بلا معطف . وظللنا نشرب حتى الثانية . وكنت أقبل امرأة لم اتعرف بها الا في ساعة متأخرة من الليلة نفسها . وكان عريها باذخا عجائبيا ، عري امرأة في الخامسة والثلاثين . وطوال الليل كنت هانئا في مهادها الزنبقي الوثير !

كان الشارع متألقا تحت عتمة الليل المكفهرة المبكرة . والوجوه المرحة تتابع في اتجاهين . وكنت مرهقا بعد المحاضرات . وفي الحافلة كنت اتطلع عبر الزجاج الندي . وجواري فتاة هزيلة ، زرية الهيئة . وابصرت بامرأة طويلة من الهات الخطى المتثاقلة ، واقفة بالقرب من الباب ، وفي وجهها اعتداد وتكبر . وطوال الطريق كانت تتفحص جارتي ، من عل ، كالساخرة المؤنبة . كانت نظرتها قاسية تكاد تقتلع الفتاة من مكانها . كانت جميلة بالرغم من أصباغها البادية ، الرطبة فوق وجهها كالطلاء .

فيم هذه النظرة المتكبرة الساخرة ، لم تفتأ تلقيها فوق هذه الفتاة ؟ فيم هذه القسوة كلها ؟ ولم تطق الفتاة صبرا . فانسلت لتجلس في مكان أخر . فانصرفت المرأة عنها كالظافرة . ووجدتها تتأهب لتهبط . فتبعتها . ورأيتها تقف بعد خطوات ، خافضة رأسها كالمنتظرة . حييتها وسألتها عن شارع ما . وظللت أسير معها متحدثا حتى توقفت عند مدخل عمارة . كان

حوارا عابرا • كانت تسألني وكنت أجيب : من أين انا ؟ وأين أدرس ؟ وأين أقطـن ؟

كانت خصلاتها الشقر الثقيلة منحدرة تحت قبعتها • وكان فمهـا ممتلئا أحمر بشفة سفلى بادية الثقل • قلت :

ـ امن الممكن دعوتـك ؟

ـ الـى أيـن ؟

ـ الـى المطعـم •

ـ لكنني غير متهيئـة •

ـ سأنتظرك حتى تتهيأي •

ـ هذا يتطلب وقتا • انتظرني عند سينما أريول بعد نصف ساعة •

وعدت لاركب الحافلة • ونزلت بعد موقفين • ومررت لاشتري مـن المخزن زجاجة كونياك وعشاء •• فلربما •

جاءت بعد عشر دقائق من انتظاري لها • ولم اكد اعرفها اول الامر • كانت في هيئة مغايرة • وكان وجهها باسما ، لينا :

ـ لكنني رأيت هذا الفلم في سينما اخرى •

ـ اذن لـن ندخل •

وقفنا متمهلين حيال روستافيلي •

ـ مادمنا قريبين من منزلي •• اتسمحين لي بدعوتك •

ـ ممكن • غير انني لن اتأخر عنـدك •

وحين وجدت مائدتي معدة في انتظارها ، ضحكت قائلة :

ـ كيف عرفت اننا لن ندخل السينما ؟

ـ كنت أود ان نتعشى معا بعد الفلـم •

ـ اتعلم ؟ هذا انتباهة منـك •

كان اسمها لوسا • وكنت افكر بقولها أنها لن تتأخر • أهي جادة في

هذا ؟ أم انها قالته شأن اية امـرأة تريد ان نظنهـا أقصى منـالا ومنعة ؟ ووضعت اسطوانة فوق الكرامفون القديم • وكنت أحس بدبيب النشـوة في عروقي • كان الكونياك حادا ، قويا • وسألتني في دلال أخاذ ونحـن نرقـص :

ــ هل ستكتب عني شعـرا ؟

ــ اجل •• سأكتب •

ــ وماذا ستقول عني ؟

ــ سأقول انني التقيت ، صدفة ، في الحافلة بأنا كارينينا !

ــ اتجدني شبيهتها كما صورها تولستوي ؟

ــ هذا أقل مايقال عنـك •

ــ آه منكم انتم الشعراء ! لم تنفكوا تحيطون المرأة بهالة اعجاب حتى توقعوها وهي غافلة ، ثملة بالمديح •

هذه المرأة الفارعة الجميلة •• ألم تكن غريبة قبل ساعتين ؟ وها هي في غرفتي متجملة لي ، غير طامعة بشيء مني غير ان تنعم بوقت ممتع وبتجربـة • وأنا العائد المتعب •• أكنت افكر بصحبة امرأة ودعوتها ؟ وهي المرهقة الخالية البال •• أكانت ترتقب شيئا من هذا ؟ لااظن • انما هي الصدفة لاغير • ولو انني ظللت قابعا في مكاني من الحافلة ، كما جـرى لي مـرارا ، لاضعتها ، ولخسرت هذه الليلة البديعة •

لم نكن لنفكر بأي شيء غير اننا معا • ولربما سكرنا • فما اتنبهت الا على قبلاتنا الطويلة ، واحتضاني لها بيدي • واخذت بذراعها برفق • فنهضت كالمترددة • ودنوت بها من السرير • فجلست لتحل شعرها • وتعمدت ان اتأخر عنها لتنضو • وحين عدت كانت في قميصها وحده ، وشعرها الاشقر الثقيـل يتهدل متموجا • كانت الساعة المنبهة فوق طاولة السرير •• فجعلت تديرهـا وتحركها في تأن ، لايقاظها :

ــ لن تتذمر من رنينها فجرا كما أمل منـــك ؟
ــ مطلقـــا .

وكانت هي الرقة القصوى واللطف كله . ومساء السبت كنت انتظرها عند مترو مايكوفسكي . وانعطفنا قاصدين مطعم باكو . وفي الجانب الاخر ، قبالة مائدتنا ، كان جمع من الشباب محتفلا بابتهاج . وما كنت لاعيـــرهم انتباها . غير ان وجها بينهم ، وجه فتاة ، أدهشني بتفرسه في . أهـــي هي ؟ كانت عيناها لاتكفان عن تأملي . واغتم وجهها كمن يتألم أو يتذكر حادثـــا محزنا . كانت ضاحكة ، منطلقة قبل حين .. فمادهاها ؟ اجل هي . كانت عيناها براقتين كما كنت أعرفهما . غير ان شعرها بلـــون أخر . لـــم يعد كستنائيا داكنا . كان مصبوغا باللون اللؤلؤي الاشهب . وانتبه اصدقاؤها . فالتفتوا حيث تصوب عينيها المشتعلتين . فرأوني ، فوجموا لحظة .. ثم عـــادوا الى مرحهم . ولم تقل لوسا شيئا . فأنصرفت متحدثا معها ، شاعرا بعيني كاتيـــا علي . وجاءت النادلة فأوصيتها . كان النبيذ سائغا مبهجا .

بعد أقل من ساعة فتحت النادلة لنا زجاجة شمبانيا .
ــ من بعث بهـــا ؟
سألتها لوسا غير مكترثة تقريبا .
ــ تلك المائدة المحتفلة .

فهززنا رأسينا شاكرين . ورأيت ابتسامة واهنة في وجه كاتيا . وتأملتها لوســـا لحظة .. ثم همست لي :
ــ اتعرفهـــم ؟
ــ أجـــل .
ولم اكن اعرف منهم الا كاتيـــا .
ــ يلوح لي انهم مـــن الممثلين .

ـ اجل • التقيت بهم في حفـل •

وردت عليهم بزجاجة شمبانيا • فشكرونا متهللين • كان المرح عامـا متعاظما في المطعم • فلم أعد قلقا • كانت هذه أخر ليلة مع لوسا • فزوجهـا عائد بعد يومين • واعترفت ضاحكا ، مازحا أن زوجتي عائدة هي الاخـرى قريبا • حين ذهبت لوسا لتصلح زينتها • اقتربت كاتيا مني هامسة :

ـ هل استطيع رؤيتك غدا ؟

ـ بالطبع • وأين تودين ان انتظرك ؟

ـ لافرق عندي • انما بعد الثانية عشرة •

ـ طيب • سأكون في مقهى الشباب •

وجاءت كاتيا مع صاحبة لها من فتيات البارحة • كانت صامته تقريبا • وظلت صاحبتها تتحدث طوال الوقت • وكنا تتجرع القهوة السوداء المرة ، فأردت ان أتي باقداح بونش • قالت كاتيا :

ـ فيما يخصني •• افضل فنجان قهوة أخر •

لم تكن نظرتها لائمة أو معاتبة • انما كانت قانطة ، وكان وجهها الجميل في شرود • وحين خرجنا سألتني اخذة بذراعي :

ـ والان الـى ايـن ؟

ـ كما تريـدان •

قالت صاحبتها :

ـ مارأيكما في ان نمر على متحف بوشكين ؟

فتذكرت لويزا • التقيتها صدفة في متحف بوشكين • كان هذا صيفا • كنت مع جيلي في جولة بحثا عن صيد طائر عابر • فتعرف جيلي بفتاة استونية رائعة وانطلق معها • لم تكن لويزا وحدها • كانت مع صديقة لها • وكانتا قادمتين في اجازة من مينسك • ولم تشأ الاخرى افتراقا عنها الا بعد اصرار

مني • وعدت بلويزا وحدها • وحين مررت بجيلي عرفت منه ان الاستونية لم تمكث الا ساعة لتلحق بقطارها ! ووجدت لويزا ضيفا ثقيلا بعد ليلتيـن • وكنا في متحف بوشكين ثانية • هناك لوحات من اللوفر تعرض لاول مرة • كان الصف طويلا • وكانت تتقدمنا امرأة وابنتها • كانت الابنة جميلة جدا ، في الثامنة عشرة • وكانت المرأة فارعة ، قوية ممتلئة • وكانت جميلة شهية • وسمعتها تقول لابنتها :

ـ كيف هو صديقك اندريه ؟

وادركت انها تريد ان افهم ، وكانت تبتسم لي منذ حين ، ان الامـر لايعني ابنتها ، انما يعنيها هي • ثم سمعتها تقول • وكان شعـرها الكثيف متهدلا ، مسرحا فوق ظهرها العريض :

ـ غدا صباحا ستلحقين بابيك في الداجا • وسأبقى وحيدة في الشقة •

وكانت لويزا معي • واخذ الرذاذ يتساقط ناعما أول الامر • فالتفتت المرأة الي قائلـة :

ـ هاتان لايهمهما أن تمطر • فتعال معي انت لنقف هناك •

فأجتزنا الساحة مسرعين ، ووقفنا تحت سقيفة الموقف • اني اتذكرها شبه راكضة ، تحت الرذاذ ، باكتافها واردافها الرحيبة ، وشعرها يهتز متموجا ثقيلا • أية فرس رائعة ! وهي في الخامسة والاربعين ! كانت ابنتها ترنـو الينا باسمة ، خالية الذهن • ولم تطق لويزا صبرا • فهرعت نحونا • فقالت المرأة منزعجـة :

ـ هاهي أتيـة •

فأسرعت قائـلا :

ـ امن الممكن رؤيتك غدا ؟

ـ ممكـن •

ـ في أية ساعـة ؟

ـ في الثانية عشرة • حسنا ؟

ـ سأنتظرك عند البولشوي •

وادركتنا لويزا ضاحكة كالمعتذرة • وظلت المرأة صامته ، لاينم وجهها عن شيء • كان الازدحام هائلا في الصالة • فلم تتمكن من الوقوف عند ايـة لوحة كما نريد • انما مررنا بها مرورا •

وتغديت مع لويزا في مقهى لااعرفه • وأردت عنوانها • فلم نجد غيـر جريدة • وكنا تحت مظلة المائدة • والجرائد يبللها المطر ، ويندلق فوقهـا النبيذ • فأذا ماتذكرتها بعد حين •• لن تجد الا بقعا حمراء وزرقا هي كـل ما تبقى من عنوان طائر لقيته ، صدفة ، في متحف •

في الثانية عشرة كنت عند اعمدة المسرح الكبير القـديمة الشهيرة • ورأيتها أتية ، ظاهرة الزينة ، مرجلة الشعر • حيتني قائلة برقة :

ـ لنمـض •

قلت ونحن في الطريق الى المتـرو :

ـ ينبغي ان نمر على المخزن اولا •

ـ ولماذا ؟ لدي كل شيء •

ـ مع هذا •• تحوطـا •

ابتعت قنينتي خمر وانطلقنا • كانت شقتها في الطابق العاشر • وكـانت النافذة مفتوحة • والسماء زرقاء مشرقة حينا ، غائمـة متجهمة حينا أخر • وكان الغداء طيبا مع النبيذ الحامز البارد • وسألتها :

ـ حتى أية ساعة يمكنني ان امكث عندك •

ـ كما يروقك • أنا لااتوقع احدا • وهم لاينتظرون التحاقي بهم هناك الا بعد غد •• فلدينا ، كما ترى ، متسع مـن الوقت •

قالت كاتيا بعد ساعة في المتحف :

ـ لنخرج مـــن هنا •

كان الجو باردا • وكنا نذرع الرصيف باتجاه المترو • وكانت صاحبتها تتكلم طوال الطريق • وكنت مرهقا بعد هــذا كله •• ومع لــوسا وسهرة البارحة • ولم تكن كاتيا لتريد الا ان نبقى معا • وفي السينما كنــت غافيا ورأسي فوق كتفها • كان نوما متقطعا • وحين خرجنا كان الوقت أول الليل • كانت عيناها الساطعتان قلقتين • ثم قالت فجأة :

ـ اسمعا •• مارأيكما في ان تجيئا معي ؟

فأسرعت الفتاة قائلــة :

ـ كلا كاتيا •• لم يعد لدي وقت •

وانفلتت لاحقة بالحافلة • فأخذت بذراع كاتيا :

ـ لندخل المخزن •• ونركب بعدها •

ـ ستجيء معي بالطبع ؟

ـ أنا احب ان تزيلي وحشة غرفتي •

ـ كما تريد •• غير أنني ••

ـ ماذا ؟

ـ لن انام معــك •

ـ طيب •• مادمت لاتريدين •

ـ كلا • ليس الامر كما تتصــور •

ـ لابأس • لندخل المخزن •

في اضواء المخزن الباهر كان جمالها اخاذا ، جاعلا انظار الرجال متتبعة وجهها ، متسعة اعجابا • وفي العاشرة كانت مرهقة ونعسى • كانت نعســى تماما • فرجتنــي ان تنام • ورأيتها تلقــي بثيابها كلها لتتمدد عاريــة تحت

اغطيتي . وسريعا ماغرقت في رقاد عميق . فأطفأت ضوء السقف ، واغلقت بابي لامر على جيلي وجون . وكاد جون يجن مرحا وصياحا :

ـ وتركتها وحدها ؟ لايفعل هذا الا شاعر !

وصحوت في الرابعة على قبلاتهـا :

ـ ماكنت اتصور انك ستصحو . كنـت أظن انك ستظل نائما غيـر منتبه لي كما في أول ليلة .

كنت أريدها لليلـة .. ليس زهـدا بها .. انمـا كانت متعلقة بي . ولينا عائدة بعد انتهاء مهمتها على أية حال . حين طلبتني في الثامنة من مساء الثلاثاء راغبة بأن ازورها ، اعتذرت بأن لـدي ضيوفا . فاغلقت التلفـون متألمة ، لاعنة . وفي الثانية عشرة تقريبا ، وكنت اقرأ ، سمعت طرقا فوق بابي ففتحت . كانت المناوبة أتية بكاتيا . ولم تكن كاتيا تنظر . كانت مطرقـة برأسها . فأدخلتها وخرجت اشكر المناوبة . قالت هامسة :

ـ لاتدعها تخرج . انها ثملة . قالت انها ستقول لـك كلمة وتخرج . كانت لطيفة معي .. مع انها ثملة . لاتدعها تخرج .

ـ اشكرك كثيرا . لن اتركها تخرج وحدها بالطبع .

ـ كلا . ينبغي ان تنام .

كانت كاتيا جالسة في معطفها ، ووجهها بين يديها :

ـ لماذا جئت اليـك ؟

ـ وأي ضرر في ان تجيئي ؟

ـ ماكنت لاريد الا ان اعتذر عـن فظاظتي في التلفون . أي ذنب لك في هذا كله ؟ الانني سكرى ؟ فيم ازعاجي لك ؟ كلا . يجب ان اخرج .

ـ اسمعي كاتيا . انت مرهقة . ستنامين هنا .

ـ كلا . سأذهب . أنا ثملة .

ورحت أقبل وجهها ويديها متوددا .

ـ لاتقبلني • لم اجيء من اجل هذا • جئت لاعتذر واخرج •

ـ سأعد لك شايا •

ـ لاأريد الشاي • أريد ان اخرج •

واوقفتها برفق لانزع معطفها • وخرجت مقفلا بابي في هدوء كيلا تنهزم • وحين عدت بالشاي سألتني :

ـ لماذا اقفلت علي ؟ ماكنت لافر دون ان اودعك •

ـ كرهت ان يزعجك صديق سكران •

كان وجهها النقي الناصع مشرقا كمصابيح النجوم • وكانت هادئة بعد الشاي ورجتني ان اتركها تنام •• بلا هذا • وتمددنا عاريين • واخذت اقبلها ملاطفا • واردتها • فأمتنعت بقوة لم اكن اتوقعها منها • وكنت معها وكأنني مع فتاة عنيدة في اول ليلة • واصطرعنا مدة وكأننا في عراك • لكننا كنا عاريين وكنت فوقها •• فأخذتها متمنعة • فأندفعت ، بعد لحظة ، متعلقة بي ، مقبلة ، وهي تشدني اليها شدا ، وكأنني أخر رجل في عمرها •

صباحا في الحافلة كانت تقول :

ـ اتريد ان تزورني غدا ؟

ـ سألتقيك أولا عند مترو ماركس في السابعة مساء •

ـ ولماذا عند المترو ؟

ـ احب ان اسهر معك في المطعم • وبعدها سننطلق الى بيتك •

وذات ليلة ، وكنت مع عبد الله وابي بكر وعمر ، كانت الجامعة قصدنا • وكنا في المترو • وكانت ليلة أحد • وكنت مزمعا أن اقضي السهرة عندهم • وحين أخذ المترو يتباطأ ليتوقف ، رأيت امرأة في الاربعين ، دارعة جميلة ، تومىء لي برأسها ان اتبعها • كانت ايماءة صريحة باسمة • فتبعتها معتذرا من اصدقائي • ولم يكن وجهها وقوامها ليوحيا الا بالطيبة والترفع

عن أي شيء يشين • وردت تحيتي وكأنها تنتظرني • ولم تقل شيئا أخر • كانت مع صاحبة لها ، وتوقفنا في الشارع بعد خطوات • وكانتا تتحدثان فيما بينهما • واسرعت صديقتها لتركب أول حافلة وهي تودعنا بلطف • قلت :

ـ هل تسمحين لي بدعوتك ؟

ـ والى أين تود ان تدعوني ؟

قالت هذا باسمة ، ممعنة نظرها في • قلت :

ـ الى المطعم •

ـ لكننا لم نتعرف بعد • الا تريد ان تعرف اسمي في الاقل ؟

وضحكنا معا ، وكان جليا انها غير روسية الاصل •

ـ أنا ذاهبة الى بيتي • ومادمت تريد صحبتي فتعال معي • شقتي خالية هذه الليلة • وهي ليلة احد كما تعلم • كنت واقفا مع اصدقائك حين نهضت ورأيتك صدفة •• فأحببت ان انادمك ، فدعوتك •

ـ هذه دعوة كريمة منك •

ـ هي ذي حافلتي قادمة •

ونزلنا بعد عشر دقائق • كان شارعا لم أره من قبل • وكانت الريح شمالية قارسة ، والسماء مظلمة ، قاتمة • ودخلنا مخزنا متوهجا باضواء المصابيح الكبيرة المتدلية • فأبت ان اشتري غير زجاجة كونياك •

ـ انت ضيفي • لايصح ان تشتري شيئا أخر •

كان الرصيف عريضا ، والريح في وجهنا • وكانت ناديا متوردة الوجه ، تلف شعرها الاسود بمنديل كبير ابيض أهدب • وكانت الحافلات تمر مكتظة بالراكبين ، والناس يسرعون الخطى • وانعطفنا في زقاق يفضي الى باحة بين المنازل العالية الهائلة • فدخلنا احدها •

كانت شقتها مظلمة صامته • فأشعلت اضواءها ، وفتحت التلفزيون •
وشغلت عني بتهيئة المائدة • وكنت في البهو اتفرج على مشهد تزلج • حين
جاءت بالاقداح سألتهـا :

ــ هل تمكنني اعانتك بشيء ؟

ــ شكرا • كل شيء جاهز • لن تضجر حين أتأخر قليلا عنك ؟

ــ انما لاتتعبي نفسك • هذا يكفي •

ــ أنا ذاهبة لاتهيأ •• واتجمل •

وضحكت ضحكة خافته • ثم عادت في ثوب أحمر ينكشف عن بعــض
ذراعيها وصدرها • فأذهلني بياضها الناصع وامتــلاؤها الشهي الجميل ••
كانت أرمنية • ولم نكن على عجل من أمرنا ، ونحن ندري أننا الليلة معا حتى
الصباح • كنا نرتشف الكونياك بتلذذ ، وباعتدال • فأخذت امتدح جمالها ،
قارئا لها ابياتا من الشاعر الارمني القديم سايات نوفا :

أريد ان انطرح عند عتبة الحبيبة

لاقبل ترابهــا واتغنــى بــه •

أنا البلبل فأين هي وردتــي ؟

أين هو بستانــي الوضيء ؟

فأنا أحن اليه واتغنى بــه •

فأشارت الي باسمة ان انتقل الى جوارها • قلت مبتهلا :

ــ لكم أود ان الامس ذراعيك بشفتي •

ــ ها همــا لــك •

فأنحنيت على ذراعها الممتليء البديع الشمه • وحططت بفمي على اكتافها
وصدرها • ثم رحت اقبل وجهها ، مقتربا بفمي من فمها • فأعطتني شفتيها
وهي تغمض عينيها البنفسجيتين نصف اغماضة • كان غزلا هادئا ، وقبــلا

دافئة متمهلة . وقد لعبت بنا الخمـرة قليلا . ورأيتها ترفـع ساقها المليئة الطويلة ، في حركة غيـر متعمدة ، فبانـت ركبتها وأسفل فخـذها الناصع الممتلئ . فرحت ألامسه بيدي بلطف . وانحنيت اقبله . قالت كالحالمة :

ـ هذا ممتع .. هذا رقيق .

وكانت تتحدث عن الموسيقى كالخبيرة بها :

ـ سأضع قطعة لرافيل تذكرك بالشرق .

ـ أهي الكنـز ؟

ـ أجـل .

وكنا نسمع النغم المتواتر كخطى الابل متقدمة في بحثها عبر الصحـراء المترامية . وانتبهنا الى التلفزيون يعرض مقطعا لمغنية الاوبرا الاولى سابينا في « يفجيني اونيفين » فرفعنا صوته . قالت :

ـ هي ذي سابينا . أأعجبتك ؟

ـ جـدا . أخر مارأيـت لها في البولشـوي هو دورهـا في « غادة الكاميليا » .. اتدرين ؟ أنا اعرف ابنتها .

ـ حقـا ؟

ـ التقيت بها صدفة في الشارع .

ـ أمازلت تراهـا ؟

ـ كلا . كنت مرتبطا بزميلة لي . فلم التق بها الا مرتين . حالما تعرفت بها اخبرتني انها ابنة سابينا ، وانهم يقولون انها تشبه أمها تماما . كانت طيبة كطفلـة .

ـ أهي ممتلئة مثل أمهـا ؟

ـ أجل .

ـ أتدري ؟ كان ينبغي ان تظل على علاقة ما معـها . عـن طريقها كنت تستطيع ان تحصل على اكثر التذاكر ندرة واسرعها نفادا .

وكنت الامس بياضها المشعشع والثمه . وحين نضت عنها كل شيء ، ونحن في فراشها ، كنا معا كالنغم الواحد الوحيد .

وانني لاتذكر صدفة غريبة . كنت مع جيلي في سينما أريول . كان الفلم هو « رئيس الكهولخوز » عن قصة جريئة لنجيبين . وكان مثار جدل في حينه . لم تكن القصة واخراجها اعتياديين . فلقد اختار الكاتب زمنا عصيبا : بعيد الحرب الثانية . كان جيلي منشغلا في حوار مع أربع صبايا في الجوار منه وكان الفلم سيبدأ بعد قليل . وفي المقعد المجاور لي كان فتى ما يتململ قلقا . كان ثملا . كان في حيرة بادية : ايبقى أم يغادر ؟ كلما هم بالنهوض عاد يجلس ثانية . اخيرا اخلى مكانه منصرفا . ورأيت جارته قلقة هي الاخرى . كان وجهها شاحبا جذابا . وكانت ممتلئة كأغلب الروسيات . وتابعت الفتى بنظرها أهو ذاهب فعلا ؟ وحين وجدته مترنحا ، مبتعدا ، أسرعت منتقلة الى جانبي . وبدأ الفلم . وفي منتصف الرواية كانت الفلاحة الارملة الممتلئة حبلى . وجاءها المخاض مداهما وهي تحصد . كان مشهدا مؤثرا متقنا . وفي هذه اللقطة المثيرة نفسها كانت جارتي ، بحركة لاتعمد فيها ، تلقي بصدرها الثقيل الحار فوق كتفي . وبعد لحظة أبعدته منتبهة لحالها . وحين خرجنا من السينما كانت حريصة على السير قريبا مني .. بل هي تسايرني خطوة فخطوة . وكانت منفعلة ، خافضة رأسها الاشقر . فابتدرتها قائلا :

ــ أليس فلما قويا ؟

ــ أجل . ليس اعتياديا .

ــ واخراجه ؟ أية قوة !

ــ بالطبع . يبدو لي انه أعجبك كثيرا .

ــ انه في بعض مشاهده لاقوى من « طريق الالام » .

ــ هذا صحيح .

واخذت تسألني : من أين أنا ؟ وأين ادرس ؟ قالت انها تقطن غرفة في منزل جماعي قريب • والريح باردة ونحن نتحدث متجولين منذ ثلث ساعة • كان الهواء يشتد برودة •• فدعوتها لان نقضي الامسية في غرفتي ، لان نتحدث ونشرب شيئا • فأقترحت هي :

ـ أرى من الافضل ان نجلس عندي •

ـ كما تودين • لنعرج ، اذن ، على المخزن •

ـ لندخل المخبز اولا • ها هو بعد خطوات •

وسألتني ونحن في الصف :

ـ اتفضل الخبز ابيض ؟

ـ منذ حللت موسكو وأنا لااستطيب الا الخبز الاسود •

ـ أحقا ؟

كانت في الثامنة والعشرين • وكانت غرفتها اشبه بغرفة طالبة • وكانت الفودكا تقرب مابيننا في مخدع امرأة طيبة وخيدة • وكنت أمسك بيدها بلطف :

ـ ماذا ترى فيها ؟ هذه يد عاملة •

ـ هذه أرق يد • بل أكثر الايدي دفئا وحنانا •

كانت الثلوج تنهمر غزيرة • ونحن في أول الليل • وكنت عائدا في الحافلة • وفي العاشرة سألتقي بلينا كما اعتدنا أن نلتقي • لكن أهي أدلينا ؟ هذه المرأة الواقفة في فرائها الضافي ؟ والحافلة مندفعة بنا ، عالقة بعمود منها بالسلك الكهربائي • كلا • ماهي هي • كانت أدلينا استاذة لغة في مقتبل العمر • وكنت أعيش أيامي الاولى في موسكو • كنت عند نافذة الممر ، ورأيتها خارجة من غرفة الدرس • كانت في ثوب أحمر ضيق •• يتألق في احمرار ثوبها ، عند الصدر زر عاجي أبيض • اني لاتذكر ، شقرة شعرها ،

وبريق عينيها الخضراوين الكبيرتين . وقوامها الاهيف البديع . واسقطت كتابها متعمدة ، منتظرة ان اسرع لارفعه لها . ولم اتحرك . فانحنت معطية ظهرها لي لتلتقطه ، ملتفتة بابتسامة أخاذة . وكانت لي ليلة فريدة معها .. بعد حفل راقص في الجامعة .

كانت لينا تقول رافعة كأسها ، متذكرة رسائلي اليها ، وكنا في شقتها ليلة أحد :

ـ قل لي من فضلك .. ألم تزل العنادل ، في حدائق الحب الليلية تذرف دما ، فتصطبغ الورود ، صباحا ، بالحمرة القانية ؟

ـ هذا في قصة لاوسكار وايلد .

ـ آ .. ربما .

فترد أمها مازحة :

ـ لكنك شاحبة . فأية وردة قرمزية انت ؟

ـ هذا لانه لايبكي كاولئك الشعراء الشرقيين .. فوق غصن وردته بدموع قلب .. انما بأدمع الغمام .

ـ لو أخذ بنصيحتي ، مرة ، لجعلك تنشجين باكية طوال الليل .

ـ وماذا فعلت له ؟

ـ حتى اشواقه اليك تعتبرينها تطريزا . مع انك راضية بها . وترقبين المزيد منها في كل رسالة .

ـ أنا ؟

ـ فماذا كنت تنتظرين ؟

ـ ان يكتب لي عن أخر سهرة له .. مثلا .

ـ بل عن اثوابك هذه . كل ليلة تلتقينه بثوب .

ـ وماذا في هذا ؟

ــ في هذا انك اكثرهن تنمقا • وتنكرين على غيرك كلمة جميلة •

حين مضت لينا لتغير ثيابها ظللت منتظرا حتى تنتهي • ورحت اتطلع عبر نافذة البهو • كان الشارع مضاء ، ولاشيء في السماء غير الظلام الحالك • هل ستهطل الثلوج هذه الليلة ؟ وسمعت وقعا حادا •• وقع خطى امرأة في الشارع • هذه الخطى لاتعني غير عودة امرأة لبيتها • من أين ؟ ربما من لقاء أو عمل ليلي ما • وهذا الخفق العالي لحذائها •• أهو دليل مسرة وقضاء أمسية بهيجة ؟ أم هو ارتطام الكعب القوي بالاسفلت لاغير ؟ ربما هي عودة اعتيادية ، عودة كل يوم • غير انني اسمع رنينا احتفاليا في هذا الخفق العائد ! أم لعله ايقاع غضب ما ؟ وتوعد بالقطيعة ؟ كانت الخطى تبتعد ، ووقعها لما يزل منتشرا في هدأة الطرقات • وها هو يتناءى متجمعا في نقطة بعيدة ما •• في زقاق أو منعطف ما • غير انه لم يخمد فجأة • مازال شيء منه يتردد واضحا تقريبا ، وفي جهة اكاد اعينها • لكن وقعا أخر كان أخذا بالدنو ، وقعا عاليا ، باعثا بالرنين ذاته • وكأنما الخفق الزائل عاد ثانية بالتردد عينه • هذه خطى كل ليلة تقريبا • خطى العودة المتأخرة • وانكفات عن النافذة لالحق بلينا •

ــ أهذه اشرعة افخاذك العالية ؟

ــ وأنا سفينتك تتسكع بي في ايما اتجاه •

ــ لكنك أكثر لدانة من ورقة زهرة • وهذا غريب • هذا اكثر نعومة من أي شيء اخر • اكثر « رقة من الماء أذ يهز الخيالا » •• اكثر لطفا من حلم زنبقة • وكأنه القطا الجاثم في مكمنه • كاليمامة تخفق دافئة ملء يدي •

وقصدنا مركز المدينة ساعة الظهر • كنا ننتظر الحافلة • وبالقرب امرأة مع طفلتها • وبالفة غريبة كانت الطفلة تمسح وجهها الغض البريء بمعطفي :

ــ مااسمك ؟

ــ ساشا • وانت ؟

فضحكت أمهــا :

ــ ساشا اتريدين ان تتعرفي به ؟

وفي الحافلة كانت الطفلة أخذة مكانها بجانبي • فأزدادت لينا وأمهــا ضحكا • وافترقنا عند ساحة بوشكين • قالت لينا :

ــ كنت لطيفا جدا مع الطفلة •

ــ وأين ترغبين ان نذهب •

ــ سندخل مقهى لايؤمه احد تقريبا الا من العاملين في المسرح • فهو صغير وضيق •

ــ أهو مقهى الفنانين ؟

ــ أكنت فيه من قبل •

ــ مرة لاغير •• كما اذكــر •

كان المقهى فارغا تقريبا • كــان اشبه بدكــان • فما مــن نافذة غير الواجهة • وكان غريبا بلونه الاحمر وطرازه القديم • وكانت هناك أمرتان قالت لينا انهما ممثلتان من مسرح ستانسلافسكي •

ــ أرأيت في الحافلة كيف كن ينظرن اليك والطفلة متعلقة بك ؟

ــ اليس لطيفا ان تنجب طفلة مثلها ؟

ــ أمي تقول ان طفلة منك ومني ستكون جميلة جدا •

ــ فماذا تنتظر ؟ لنتزوج •

ــ كلا • انا لااعني هذا •

ــ الا تريدين طفلة مني ؟

ــ انت مازلت طالبا • فيم هذه الفكرة الغريبة ؟

ــ الست زوجا صالحا ؟

فضحكت فجأة مشبوبة الوجنتين :

ـ انت لاتقول الا حكمة .. خاصة في خطبتك لي .

ـ الم تفكري بالامر مـرة ؟

ـ فيما يخص طفلا لي منك ؟ اجل . انما ليس الان . سأقول لك في حينه . ثم اضافت باسمة ، رافعة كأسها :

ـ اما اليوم فلا أريد الا ان امرح معك .

وفي الشارع .. في اضواء الشارع وحركته المتتابعة لم نعد نفكر الا أننا معا . وكانت لينا أخذة بذراعي كملكة . كان البيت وجهتنا . ولم يعد الزمن الا هذه الليلة المائجة بالضوء والبسمات .. هو هذه الثلوج تتساقط خفيفة هشة فـوق اكتافنا ، هو هـذه الفتاة الضاحكـة ، المتشبثة بذراع صديقها .. وعيناها لاتريان غيـر وجهه ، وهو هـذا الصف الطويل مـن المنتظرين دورهم الى المقهى .. وهذه الضحكة الصافية تطلقها شابة حاسرة الرأس ، غير أبهة بالثلج وبالنظرات ، وهذا الشاعر النحاسي مطرقا برأسـه المتجعد ، وقد استغرقته فكرة عميقة ما ، فكرة تحد وألم وترقب . وكنـا منعطفين حيال السينما والازفيستيا . واجتزنا شارع جيخوف لننتظر .

وجاء الباص ١٨ مزدحما فلم نركب . ستأتي الحافلة بعد قليل . لكنها جاءت مكتظة هي الاخرى . ولم نرد ان تتأخر فركبنا . ووجدت لينا مكانا في أخر الحافلة . وكنت اتقدم من الصندوق لاقتطع تذكرتين . ووقفت غير بعيد عن لينا . كان بيننا ثلاثة شخوص .

وصعدت فتاة تترية الملامح ، غير انها بيضاء متوردة الوجه ، روسيـة العينين . كانت جميلة وفي وجهها ونظرتها حزن وتوحد . ورأيتها تتجه الي بعينيها الزرقاوين الناطقتين أسى وتقربا مني :

ـ هل تمر هذه الحافلة على مترو نوفو سلوبو دسكايا ؟

ـ أجل ستمـر .

ــ الم تزل المحطة بعيدة ؟
ــ كلا ، بعد أقل من عشر دقائق ،

فأسرع الاخرون ، كعادتهم هنا ، يفصلون لها متى وكيـف ستصل ، ووجدت ان مهمتي قد انتهت ، فلم اشارك باكثر مما قلت ، كانت لينا تتابع المشهد باسمة متفرسة في ، واتجهت الفتاة بوجهها ثانية ناحيتي :

ــ أينبغي علي ان انزل بعد ثلاثة مواقف ؟
ــ كلا ، بعد أربعة ،
ــ أنا لااعرف من موسكو غير مركزها ،
ــ أهي زيارتك الاولـى لهـا ؟
ــ كلا ، جئتها اكثر من مرة ، أنا من اوديسا ، وفي الاصل اوزبيكية ،
ــ وهذا ماتراءى لي ،
ــ أحقا ، وانت ؟

كان صوتها أبح قليلا ، وكأنما هي تكظم جهشة أو عبرة ما ، وكانت في حوارها معي مقبلة علي بـلا تكلف ، هي هذه الصدفة تجمـع بين أثنين عابرين ، وكان وجهها مايزال ناطقا بالاسى ، غير ان ابتسامة ما أخذة بالبزوغ في عينيها الزرقاوين ، وحين وصلنا نوفو سلوبو دسكايا قلت لها باسما :

ــ ها هي محطتـك ،
ــ شكـرا لك ،

قالتها وكأنما كانت تتوقع شيئا غير هذا ، واسرعت نازلة ، وكانـت لينا شاخصة بعينيها الي ، ولم تعد تبتسم ، وظللت واقفا حتى زليوني دوم ، وعبرنا قاصدين منزلي لاتي بكتب الاثنين ، حينما عدت كانت واقفة في الجهة الاخرى من الزقاق ، لاهية بساقيها الطويلتين المتلئتين في حركة كالتزلـج ، فوق الاسفلت الزلق بالثلوج المتصلبة : هي ذي امرأة روسية !

هذا ماقلته لنفسي حالما رأيتها في تحركها هذا • واحسست بشيء عابر ما كالحائل فيما بيننا • لم يدم هذا الا برهة •• هو كل ما ابتعثته حركة ساقيها • وكانت هي لينا الضاحكة المناكدة حين أخذت بذراعي ، واتجهنا ناحية البريد •

ــ هكذا توقع الفتيات في شباكك !

ــ أية فتيات ؟ وكأنك لاتعرفين أية منزلة لك عندي •

ــ اوه •• أنا امزح • الا تريد ان امزح معك ؟

ــ لاشيء أحب الي من مزاحك •

ــ ففيم هذه النبرة الجادة ؟

ــ وماهذه التقطيبة الرائعة بين حاجبيك ؟

ــ أنا هكذا •

ــ فعلا • لم يخلق حاجباك الا ليقطبا تقطيبة •• تكاد تقتلعني اقتلاعا عن الارض ، وتلقي بي فوق هشيم الاسئلة الجمالية كلها •

ــ أي هشيم هذا ؟ وماكنت اريد الا ان امزح ! لكن لا •• أي هشيم تعني من فضلك ؟ أهو هشيم هذا اللقاء العابر في الحافلة ؟ اجل • كان هشيما جماليا حقا ! لو أنني القيت عليه عود ثقاب مشتعلا لشبت النار عالية في الحافلة كلها •• ولكانت حافلة جمالية لااكثر تعقيدا فلسفيا منها في تاريخ الاستيتكا •

ــ لكن مابك ؟ طيب • اضحكي •• اضحكي ايضا •

ــ ماكنت لاصدق • فعلا • مازال الهشيم عالقا بمعطفك •

ــ وهل قلت انا شيئا مضحكا ؟

ــ انت ؟ انت لم تعبر الا عن اسفك على اللقاء الاستيتكي المتهشم في الحافلة وقد اقتربت من المترو • أية فرقعة ! كادت تقتلعني اقتلاعا • مع

أنها لم تكن مقطبة • انما كانت فرقعة أسفة ، حزينة تقريبا • وأي لقاء ! أية مسائل جمالية معقدة كان يترتب حلها عليه !

ـ هذا كله لانني اجبت فتاة تسألني عن محطة ؟

ـ لكنها لم تكن محطة اعتيادية • كانت استيتكية أوزبيكية •

ـ انت غريبة فعلا ! اية جمالية ترين في سؤال عن مترو ؟

ـ أهي غير مارأيت من جمالية في سؤلك لي بعد الحافلة ؟

ـ كنت أريد ان اتعرف بك •

ـ وهي ؟ ألم ترد مصاحبتك ؟ هب أنني لم اكن معك •• هب ان هذا حدث قبل عودتي ، أما كنت ستدعوها ؟ وهي كالثمرة اليانعة المرتمية بين يديك ؟

ـ ولماذا وأنا انتظرك ؟

ـ اوه لاتعبس •• دعنا ندخل مرحين •

وكنت راغبا بكأس مع العشاء • وهي لن تمنعني ، على أية حال ، من ان انجز صفحة من الكتابة ، هي كل ماتبقى علي من اسئلة نينا كورنييفا • فكظمت رغبتي ارضاء لامها • كان مايهمها هو ان اقرأ أولا • وكانت لينا تغمزني باسمة وكأنما تقول : آ •• الا تريد ان تشرب قدحا ؟

وحين نهضت لادخل غرفتها واكتب •• سألتني متعمدة :

ـ فيم انت مبكر بالقراءة منذ الان ؟ ان لديك وقتا طويلا حتى العاشرة •

فزجرتها أمها :

ـ هلا كففت عن التدخل في شؤون غيرك ؟

ـ كنت أريد ان يتفرج قليلا على التلفزيون •

ـ ايتها الماكرة ! ـ ثم التفتت الي :

ـ لاتصغ اليها • اقرأ كل مايمكنك ان تقرأ • ولاتتجول معها في

البرد . دعها تذرع الليل وحيدة كالساحرة في الطرقات المقفرة .

لم يكن لدي الا تلك الصفحة من الكتابة . وسريعا مافرغت منها . وبعد ساعة كانت لينا واقفة ، وفي وجهها الجميل رغبة بالممازحة :

ــ اقرأ .. اقرأ . لن ادخل واضايقك .

ــ لن تضايقيني .

ــ كلا . هناك برنامج ممتع جدا وسأتابعه . ماذا تقرأ من فضلك ؟

فأريتها الكتاب .

ــ آ .. داتتي ! أهو موضوع محاضرة الغد ؟

ــ انت تعرفين أننا اتهينا منه في الكورس الثاني .

ــ هكذا ! ومحاضراتك غدا ؟ أهي اقل شأنا من ان تكلف نفسك بقراءتها ؟ أم انك اتممت كل شيء في المقاهي اثناء غيابي ؟

وسمعت امها تقول متذمرة :

ــ هلا تركته يتم واجبه ؟ مازالت ساعة جولتك الجنونية بعيدة .

ــ لكنه منشغل في غير واجبه .

ــ وهل انت ادرى منه بما ينبغي عليه ان يقرأ ؟

ــ تعالي وانظري بنفسك مادمت لاتصدقين .

وجاءت امها قائلة لائمة :

ــ الا تكفين مرة عما لايعنيك .

ــ وهل اريد شيئا غير منفعته ؟

ــ انت لاتريدين الا منفعتك .

ــ طيب . اسأليه انت . الهذا الكتاب علاقة بدراسته غدا ؟

ــ وما أدراك انت ؟ أأنت طالبة معه ؟

ــ هو نفسه قال . ألم تقل لي انكم اتهيتم من داتتي في الكورس

الثاني ؟ اليس هذا ماقلته لي ؟ لم لاتتكلم ؟

ــ لانه يريد ان يقرأ ، وانت تزعجينه •

ــ طيب • مادام النصح لايجدي معه ، كما تقولين ، فلماذا أتعب نفسي عبثا ؟ هو حر • أما انا فسأتفرج رائقة المزاج •

ــ ومتى كنت تحبين التلفزيون ؟ أي مكر !

وأخذت بيد لينا قائلة :

ــ هيا لينا •• دعيه يقرأ •

ــ انه لايقرأ •• انه يتسلى •

ــ الله اعلم انك لاتنتظرين الا ساعة انزاوائك معه •

وانهزمت لينا مرتجة ضحكا • وفي الثانية عشرة من الليل ، بعد السينما ذات مرة ، كنت مصغيا الى صفير الرياح عند نافذة البهو • وكانت لينا تتجمل في غرفتها • وكنت اتخيل الكساندر بلوك صافرا كقطاع الطرق القدامى في الغابات والبراري • أهذه هي الكآبة الروسية كما يقال ؟ أهي هذه السهوب العارية والرياح الفسيحة القوية ؟ وتذكرت سهوبا أخرى •

اتأخرت طويلا عنها ؟ كانت واقفة تقول :

ــ في أي شيء تفكر ؟

ــ في الريح والبرية •

ــ اتحب البراري ؟

ــ في ريفنا الجنوبي •• كان يطيب لي ان أسير بعيدا في رمادية الغروب بعيدا حتى أخر السهل • فأفاجيء القبرات جاثمة في حفائرها •• وأرى النيران مشتجرة في القرى المتناثرة حول ضفاف الانهر • والليل الغائم يهبط علي وحيدا في عراء الحقول • وعند الحافة من الهور ، في المياه الضحلة •• بعيدا تتجمع الطيور المهاجرة أتية من أقاصي الشمال القارس ، من سيبيريا ذاتها كما يقال •

ـ أهي طيور الخضيري والحذاف ؟

ـ هي وغيرها . والبط المهاجر ايضا . تتجمع الطيور لاغطة ، صائحة لتلقط الغلة المتبقية من حصاد الخريف . وفي خصه القشي يكمن صائد الطير مرتقبا . والشبكة منطرحة في القش والبلل . وفي الفراغ بين جانبيها تغتني الارض بالطعم من الرز النثير . ويظل الصائد كاتما انفاسه وسعلته . وفي موهن من الليل الشتوي البارد تحط الطيور ، وقد اجتذبها الطعم منذ ليال . ويجر حبله الطويل ، فتنغلق الشبكة متقوسة بأوتادها كخيمة ، مطبقة بأحكام فوق الفريسة المتخبطة المضطربة . فيسرع صائدها ليقطع اعناقها تقطيعا بيد خبيرة . ويعود مع الفجر بحمله الثقيل . أنذاك تعد زوجته أفطارهم من حواصل الطير واكباده .

ـ أخرجت ، مرة ، لصيد الطيور ؟

ـ اجل . مرة وأنا صغير . فأعادني ابي في أول الليل .

ـ اكنت ستصيد بعضها لو بقيت .

ـ كلا . كانت شبكتي غير صالحة .

ونهار الاربعاء ، وأنا في الممر ، كانت الاستاذة الشابة تبتسم لي ابتسامة عرفت منها انها الليلة بين ذراعي . وكنت أرى قوامها الباذخ فأمتليء رغبة . وفي المحاضرة التالية كنت مع نينا كورنيبفا في غرفة الحميراء . فدخلت الاستاذة الشابة باسمة لتتناول ملفا ما وتخرج . كان وجهها مرحا مشرقا ، ونظرتها لي تعبر ، بالرغم من تكتمها ، خير تعبير عن لقاء الليلة . وسمعت نينا تقول ، وعلى وجهها البريء ظل تكدر وانزعاج :

ـ مابها ؟ أهي عاشقة ؟

وتذكرت سفرة لنا في باص سياحي ، اقامتها الادارة الى الغابة في أخر السنة الاولى . كان الرذاذ ناعما ، وفي الهواء برودة . ورأتني الاستاذة جالسا

جوار رايا ، موظفة الادارة ، فعلا وجهها غيظ • وحين مرت بي سحقت اردافها الناعمة الثقيلة على كتفي •

وحطت ، مرة ، على مائدة في مقهى الفندق فتاتان • كانت البيضاء منهما رائعة الجمال • فتعرفت بها • وكان غائب في المقهى • فأقترحت ان يأتي معنا • فرأى ان نؤم مقهى متروبول • فأوصينا على خمرة وعشاء • كانت البيضاء في رداء يبدي فتنتها الطاغية المتموجة • وحين كنا نرقص أحسست بها لينة كارق ماتكون المرأة لينا ولدانة • وانصرفنا فأذا بهما منطلقتان مرحا ، وقد لعبت الخمرة بهما • وكان غائب متذمرا • كان مزاحهما وانطلاقتهما اكثر مما يحتمل • فغادر معتذرا • وظللت حائرا باندفاعهما الطائش • بل كادت صاحبتي ان تتعارك مع امرأة عابرة في المترو • كان معطف المرأة متسخا ببقعة • فسألتها الفتـاة فجأة :

ــ لماذا لاتنظفين معطفك ؟

فألتفتت تلك ، وكانت عصبية المزاج ، متذمرة :

ــ أنا انظف أمرأة • اما القذرات فهن من امثالك انت • من المتعطلات السائبات ، لايحسن شيئا غير البطالة والسكر •

ــ أنا لست سائبة • وان لي مظهرا نظيفا • أما دخيلة المرء فلا يعلم بها الا الله •

قالت هذا وهي تريها فراءها الفاخر • وخرجت المرأة صائحة ، شاتمة • فأطلقت صاحبتي وراءها ضحكة ازدراء • وسألتها هامسا :

ــ مارأيك ان تجيء معي ، ونستريح من هذا الدوران في المترو ؟

ــ كنت تستطيع ان تقول هذا في بداية الامر • كان افضل لو اننا شربنا عندك •• بدلا من المقهى وفرار صديقك منا وكأننا في مأزق •

ــ لاتنسي انه كان مرهقا •

ـ طيب • لنوصل صديقتي قريبا من الفندق في الاقل •

وكاتتا من مدينة لاأتذكرها • حين عدنا كانت صامته • وكنت أخشى ان تندفع ثانية ، في وجه أية امرأة لايروقها معطفها أو قبعتها • واخذت اضحك متكتما ، وانا اتخيلها في عراك أخر غير متوقع • فسألتني كالغاضبة :

ـ مادمت تضحك •• هلا أبنت لي عما يضحكك ؟

ـ أنا اتذكر تلك المرأة العصبية فأضحك •

ـ ألم تكن تستأهل ؟

ـ ربما

ـ كيف ربما ؟ ماكنت لاريد الا تنبيهها فتهجمت علي •

ـ فعلا • كان ينبغي ان تشكرك •

ـ وتمزح ايضا ! أي ضرر في ملاحظتي •• لو انها اكثر تفهما ؟

ـ لاضرر بالطبع • لكنك اخجلتها •

ـ ألم اكن محقة في رأيك ؟

ـ أنا لم أرد قول هذا •

ـ فماذا كنت تريد ان تقول ؟

ـ ان اقول انك من اجمل ماخلق الله •

ـ لابأس مادام هذا رأيك في • سأقول غدا لنفسي انني لم ابت ليلتي مع رجل التقطني صدفة ، بل مع رجل رأى في مايظنه جميلا أو شيئا قريبا من هذا •

ـ أمثلك تقول هذا ! انك لتدركين أي جمال تمتلكين !

ـ ربما • لكنني لم اسمع كلمة لطيفة الا الان •

ـ هذا لاننا وحدنا •

ـ وحين كنا نرقص ؟ لكن اين نحن ؟ أنظل ندور في المترو ؟

ــ لم تبق الا محطتان ونركب التكسي •

ــ وهناك تكسي ايضـا ؟

ــ ماهي الا عشر دقائق ونصل •

ــ أسمع • الديك شيء نشربه في غرفتـك بعد هذا كلـه ؟ لم يبق في رأسي غير لغط الطريق •• وهذا التنقل من محطة الى محطة •

ــ ستجدين كل ماترغبين • ولن تري مني مايزعجك لحظة •

ــ مابك ؟ انا لااعني هذا • ماكنت لاجيء معك لو لم ارتح اليك • ان لك وجها طيبا • أعني انني أحسست منذ اول نظرة منك انـني استطيع ان اخرج معك وأبيت عنـدك •

وحين نزعت فراءها ألقت معه ظلال الطريق الكدرة كلها • كان مزاجها صافيا رائقا • بل ابتدرتني مقبلة وجهي قبلة حارة وأنا اعاق معطفها •

وحين أجلستها ضحكت قائلة :

ــ اتدري ؟ انني بدأت احبك •

ثم اضافت وهي تتأملني بعينين تتألقان فتنة :

ــ حين رأيتك في المقهى ، وكنت واقفا عند البار في انتظار قهوتك وانت ترنو الي ، رغبت بك •• فأطلت نظراتي اليك لاجتذبك • وجئت •

كان انفها روسيا جدا ، بل اكثر مما ينبغي ، ومع هذا لم يكن ليعيبها •• كان جمالها ساطعا أخاذا • لم تكن تتناول أي شيء •• غير ان ترتشف كأسها وتدخن لفافة وتطفئها عند نصفها •

ــ اتودين ان نرقص •

ــ ولتكن الموسيقى هادئة •

نادرا ماأحسست بمثل هذه اللدانة بين يدي • وكنت أحس بها عاريـة بالرغم من ثوبها • كان عريها في اصابعي وحيال صدري •

مازالت القنينة ممتلئة حتى نصفها • وكانت لوبا جالسة على حافة السرير كالغافية • وكانت تبتسم •• لجمالها ربما • واطفأت ضوء السقف واعنتها في انتزاع ثيابها كلها • ولم يكن الموج لاكثر منها تقلبا وانحسارا فتوثبا •

كان موعدي معها مساء • ولم استطع • كانت الاستاذة الشابة تريد ان اصحبها الى السينما • وهل يمكنني ان اعتذر لها ؟ ماكنت لاستطيع مع هذه المرأة الكامنة في مجثم من روحي •• الا ان افعل ماتشاء •

ومررت على المقهى في الامسية التالية • كانت لوبا مع اصدقائها • كان لغطهم عاليا • أكانت موضع تريب ؟ كنت أرى دموعها تتجارى فوق وجهها الجميل • ولم اشأ بالطبع ان اتدخل • كنت اتحين فرصة لاسألها • وكانت كالمتورطة معهم في مأزق ما • ورأيتها تخرج باتجاه المغاسل وهي تتطلع الي • فتبعتها بعد قليل • واتنظرتها عند الدرج المرمري • حين عادت سألتني مسرعة :

ـ هل يمكنني أن ابيت عندك الليلة ؟

ـ بالطبع • أنا لم أجيء الا من اجلك ، ولاعتذر •

ـ هل بأمكانك ان تخرج معي بلا تأخر ؟

ـ سأتي بحقيبتي بعد لحظة •

ـ لاتتأخر ارجوك • سأرتدي معطفي واتنظرك في الشارع •

ـ لاتقلقي • مادمت معي فلن أسمح لاحد بالاقتراب منك • مارأيك ان نقضي السهرة في مطعم الفندق ؟

ـ كلا • ليس هنا • أنا في انتظارك على الناصية •

ووجدتها واقفة غير مكترثة بشيء ، لاهية بنعلها فوق الاسفلت المتجلد • وكانت حاسرة الرأس ، غير عابئة بالصقيع والثلوج المتساقطة • ولم أشأ

أن اسألها ، وقد رأيتها هادئة • فدخلنا النفق باتجاه شارع غوركي •• ومررنا بالمقاهي والقوم يقفون صفوفا خيالها • فسألتني :

ــ الا تريد ان نقف قليلا هنا •• لندخل ؟

ــ كلا • ليس هنا •

ــ كما تريد •

ــ لوبا •• انني اعتذر عن تأخري البارحة •

ــ لايهم • أنا لم استطع انتظارك اكثر من عشر دقائق • كنت مضطرة لان امضي معهم في جولة ما • وكنت اتوقع لقاءك هذا المساء • وحسنا انك جئت • اتدري فيم كان هذا اللغط كله في المقهى ؟ أنا وهذه المجموعة كلها في رحلة مشتركة الى موسكو • وان احدهم متعلق بي • ويريد ان اتحرك حسب مشيئته • وأنا لااحبه • فيم التصاقه بي ؟ انا حرة في ان اتصرف كما اشاء • لاحق لاحد في ان يفرض نفسه علي • ولم هذا الجدل كله ؟ الانني لاارتضي وصاية شخص لاأحبه علي ؟

ــ لكن ماعلاقة الاخرين بالامر ؟

ــ ان له اصدقاء • وهم يحاولون ، بالطبع ، تبرئة جانبه •

ــ هذا يحدث •• ولا أهمية له •

ــ بالطبع • وأية اهمية هنا ؟

ــ طيب • مارأيك ان نسير قليلا حتى مطعم باكو •

ــ هذا اقتراح ! انا لم ادخل هذا المطعم من قبل •

ــ اذن ستدخلينه لاول مرة معي •

ــ كنت أتصور اننا ذاهبان الى منزلك •• بلا توقف •

ــ لكنك سائحة • وينبغي ان تتمتعي بوقتك •

ــ وهل المتعة في المطعم خير منها في غرفتك ؟ لااظن •

ــ وأي شيء في غرفتي غير الكرامفون العتيق ؟
ــ انها غرفتك ! وهل تضمني غرفتك بشيء غير ذراعيك ؟
ولبثنا ساعتين في المطعم • واقترحت في الغرفة قائلة :
ــ سأنضو ثيابي اولا • ولاتنزع انت شيئا حتى انتهي •
وحين أمست عارية كالجدول •• قالت :
ــ والان •• دعني انزع عنك كل شيء • ولا تتحرك انت •

حين فرغت يداها من ثيابي •• اخذتها بين يدي لاقبل وجهها وناهديها • فرجتني ان اتركها ، قليلا ، لتفعل ماهي عازمة عليه • وأخذت تقبلني ، مبتدئة بوجهي وصدري ، منحدرة بيديها وشفتيها أسفل فأسفل • وبلطف وحنو أطبقت بيديها لتنتهلني انتهالا • وامسكت بها لاوقفها • كنت أريدها • وكأننا في اصطراع • وانحنيت بها فوق السرير • وكان نصفها على الفراش ، ونصفها الاخر بين يدي • والرياح تنفتل عاليا فوق السطوح المثلثة • وكانت ظمأى في الثانية بعد منتصف الليل • فنهضت لتشرب ماء • وعادت عارية لتنحني على وجهي مقبلة ، وصدرها المتكور كالطيور المضطربة • وفي أخريات الليل كنا نسمع الرياح تئن متشكية •

كنت مرهقا بمراجعة الاقتصاد السياسي • وغالبا ماأنسى منه كل ما اقرأه بعد يومين • فكانت لينا تضحك ساخرة معابثة • كانت الفلسفة أقرب الي بكثير • كنت اقرأ في محاورات افلاطون مترنما ، متعمدا اغاظة لينا في المطبخ ، وتذكيرها بما نعرف من تفلسفها • ولم اعد افكر الا بشيء واحد هو ان افرغ من المنهج قبل اسبوعين من الامتحان • وهذا يعني ان علي ان اقرأ خمس ساعات يوميا •• عدا ليلة العطلة • وكنا في انتظار الثلوج الكبيرة وحفلنا السنوي في رأس السنة •

في السابعة كنت انتظر لينا • وكنا في ليلة الاحد • ومعي تذكرتان جئت

بهما من سينما أريول لفلم « الاحمر والاسود » • ورأيتها قادمة من ناحية البريد • اني لاتبينها بين العشرات عن بعد • وكانت في معطفها الرمادي الخريفي بالرغم من البرد :

ــ مرحبا •

لأحد غيرها ينطق هذه التحية القصيرة في مثل هذه الرقة ، وبالنظرة الحانية الممازحة الباسمة • قلت :

ــ أفي هذا المعطف ونحن في الشتاء ؟

ــ لاتنس انني ابنة الصقيع •

ــ مع هـذا •

ــ اتخشى علي ان ابـرد ؟

ــ اكثر مما اخشى على نفسي •

ــ أنا اكثر احتمالا منك • اتدري ؟ شد ماأود ان اغدو في مثل نحولك هـذا !

ــ اسمعي • سنشاهد « الاحمر والاسود » •

ــ رائع • لنمر على المخزن اولا •

ــ ماذا تريدين ان تشتري •

ــ كنت اظن ان لدينا مانشربه • فوجدت القنينة شبه فارغة •

ــ وكيف تظل ممتلئة •• وانت تتركينها في متناولي كل مرة • وبحجة البرد ووحشة الطريق مابرحت اتقحمها •• وأنا اعيش على بعد خطوات منك ؟ لكن لابأس • لدي قنينة فودكا ، وسنأخذها معنا بعد السينما •

ــ فأذا نسينا ؟

ــ وأية مشقة في ان اعود وأجيء بها ؟

ــ لن يكون الامر لطيفا • لكن لا • لااظنك ستنسى •

ـ ان لدينا ساعة قبل الفلم • مارأيك ان نكتشف هذا المقهى ؟

ـ أي مقهى ؟

ـ هذا الواقع بالقرب من السينما •

ـ أأنت بردان ؟

ـ كلا •

ـ أتدري ؟ انا لم ادخل هذا المقهى مرة • يقال انه كئيب جدا • اكنت تتردد عليه في السنة الاولى ؟

ـ مرة أو مرتين • وهو مقفر لاحياة فيه •

ـ فلماذا تأخذني اليه ؟

ـ لن نمكث غير نصف ساعة •

ـ طيب • سنشرب قدحي نبيذ لاغير •

كان خاليا الا من مجموعة من العمال والعاملات متجمعة حول مائدة • كانوا يحتسون نبيذهم الاحمر ويغنون في هدوء • كانت اغنية حزينة من الاغاني الشائعة • ووجدتني لينا متأثرا بغنائهم ، مصغيا باتنباه • فوضعت يدها على يدي صامته ، مصغية •

وفي السينما كان عدد من طالباتنا هناك • ورأيت تيانا بينهن • حييتهن عن بعد وهبطت مع لينا الى قبو المرمى •• لنجرب مهارتنا في اقتناص الطرائد الكرتونية من الارانب والثعالب •• ورأتها لينا فرصة لتراهن • شد مايعجبها هذا الرهان الصغير البريء • قالت :

ـ أنا اراهن على تذكرتي السينما في المرة القادمة •

ـ وأنا اراهن على عشاء في مطعم الصياد •

ـ كلا من فضلك • أنا ادعوك الى هذا المطعم بلا رهان • اتذكر قصتك لي عن مغامرتك في صيد الطيور وانت صغير ؟ سأعوضك عنها ليلة

الاحد القادمة . سأوصي على وجبة من النوعية نفسها . وسيذكرك طعمها بطيور طفولتك المهاجرة . والان . خذ بندقيتك وجرب .

ــ حاولي انت اولا .

وغلبتني بارنبين . فصاحت متهللة :

ــ لاتنس انني الرابحة .

ــ وكيف أنسى . ستذكرينني به عشرين مرة .

ــ أنا لم اذكرك الا مرة واحدة .. بعد أخر رهان .

حين خرجنا من القبو كان الجرس يدق . ورأيت تنيانا تتصفح مجلة ملونة عند الكشك الصغير . وبدا لي انها لم تقف الا لترى لينا متفحصة . وادركت لينا في تحديقها بها لمعة ما . فسألتني :

ــ اظنها من طالباتكم .

ــ من هي ؟

ــ هذه الفتاة السمراء .

ــ اجل . من زميلاتي في الكورس .

ــ يخيل لي انها اكثر من زميلة .

فلم اعلق بشيء . وقلت ونحن في الزحام الخارج من السينما :

ــ اقرأت ماكتبته زوجة هذا الممثل عنه بعد وفاته ؟

فألتفتت أخذة بذراعي :

ــ زوجة جيرار فيليب ؟ كلا . أهو كتاب ممتع ؟

ــ أجل .

ــ وما هو عنوانه ؟

ــ برهة .

ــ كلا . لم اقرأه . الديك هذا الكتاب ؟

ـ سأحضره مع القنينة .

ـ اترى ؟ انت لم تنس الفودكا .

ـ لعل الكتاب هو ماذكرني بها .

ـ بل العكس هو الصحيح .

وفي البهو ، في ثوبها المنزلي الازرق الداكن .. كان شحوبها ونقاء جيدها وذراعيها الناصع أظهر فتنة وتألقا . وكنت اتأملها متعبدا .

ـ مابك ؟ الم ترني من قبل ؟

ـ ان لك شحوبا وبياضا محرقين .

ـ لكنك لم تقل لي بعد .

ـ وهل سألتني ؟

ـ أكانت تريد ان تتزوجها ؟

ـ لكن من هي ؟

ـ سمراؤك الجميلة تلك .

ـ قلت انها زميلة .

ـ ونظرتها المتأججة الي ؟ اهي نظرة زميلة ؟

ـ أنا لاأعرف الا انك أجمل امرأة على الارض ، وانني سأغطي بقبلاتي جسدك هذا كله من رأسك حتى اخمصي قدميك .

ـ ألم تكتشف بعد كل ماانت راغب به من جسدي ؟

ـ انني لاكتشف ، كل ليلة ، لينا رائعة جديدة .

ـ أكنت تقول لها هذا ايضا ؟

ـ أنا لم ار قبلك امرأة . اسمعي . سأقرأ جمالك الجسدي ، الليلة ، حرفا بعد حرف . وسأقف طويلا مبتهلا ، متفحصا ولاثما كل حرف من حروفك . سأخفق فراشة فوق برعمي ثدييك ووردة فمك . وامر كالغيمة فوق قبتي صدرك . سأحط فوقهما طويلا . وانحدر كالسيل العرم على

منحدر بطنك وأوديتك • وأقيم من فخذيك وذراعيك أعمدة معبد هائل ••
والرفعها اشرعة لسفني ، وبيارق لجيوشي المنقضة المتقدمة • وسأنثر شعرك
الذهبي حقول سنابل تحت عواصفي المرعدة الممطرة • وأعفرك بلقاح أزهارك
المنسحقة • واضمخك بالزبد والرذاذ • سأجعلك تلتمين علي كالصدفة على
محارتها •• وتنفتحين عن نفسك منتهبة ، منتثرة في كل اتجاه • وسأرمي بك
كما أرمي بالعربة الثقيلة المندفعة في كل منحدر سحيق •• وأعود بعد
الزوبعة الممطرة لازيح عنك سنابلك والوراق زهورك الممرغة • واشمك معفرة
باللقاح • وانسحب منك لاسقط عند قدميك •• لاقبل اصابعهما وظاهرهما
وباطنهما • ويهب النسيم واهنا في اشرعتك المنخفضة • فأرفعها عاليا في مهب
زوابعي حتى الفجر • وتتضرع بي قمريتا صدرك ، وقد طار عشهما الاشقر •
وتسيل زهرة شفتيك دما • وتتكسر البروق في عينيك • وتلهثين كالخيل
أسقطها الجري في العراء الفسيح • وتئن فخذاك أنين اشرعة طال سفرها •
وتبغمين بغام الظبية المطفل • وتهدلين كاليمامة تحت جناح ذكرها • في هذه
الليلة الشتوية الطويلة ستجدين نفسك مبعثرة في جهات الارض الاربع •

ــ واغفو عارية تحت قبلاتك •

ــ انني اسمع ، أحيانا ، أنينا لثديك وضراعة • وأحس بك بالرغم من
امتلائك وامتدادك وكأنك برعم أو زهرة ناعمة ضعيفة فأرأف بك •

ــ أتدري ماذا قالت لي صاحبة من زميلات المصنع ؟

ــ ماذا قالت ؟

ــ سألتني أما زلتما معا ؟ قلت أجل • قالت كيف احتفظت به ، وهو
مع امرأة مثلك ، صبي تقريبا ؟ قلت مازحة : وهل تريدين ان اتركه لك ؟

وقبيل رأس السنة كانت لينا في بعثة عمل غير متوقعة • وكنت ، بعدها ،
وحيدا مظلم الروح • هل اتصل باصدقائها كما أرادت ، لاقضي ليلة العيد

معهم ؟ وكيف سألتقي برايا بعد انقطاع طويل ؟ وأي بأس ؟ هي تعرف انني لااستطيع لقاءها مادمت مع لينا . سأتلفن لهن بعد العاشرة مهنئا ، وأمر ، بعدها ، لاقضي معهن بقية السهرة . هكذا افضل . غير ان الامر كان أخذا مجرى أخر . وكانت الثلوج تنهمر حثيثا ليلة رأس السنة .

مررت على جيلي اولا . وكانت تانيا وصاحبتها الكستنائية في غرفته . كان حفلا طيبا صغيرا . وفي التاسعة أحببت ان أمر على أم لينا لاهنئها . كانت محتفلة مع أقارب لها . وكان سرورهم بي كبيرا . ورن جرس الباب بعد نصف ساعة . فقمت لافتح . كانت الزائرة هي جارة لينا . فأسرعت تحييني تحية حافلة . كانت أخذة زينتها ، مرتدية ثوبا رائعا ، منسدلا على امتلائها الاربعيني . حين رأتني ممتلئا اعجابا ورغبة ابتسمت لي ابتسامة لها معنى . ومكثت معنا حتى العاشرة . وطوال بقائها كانت حذرة متكتمة . ونهضت معها لافتح . وكانت تتقدمني متعمدة ، وهي تدري أي ظهر باذخ لها . فابتدرتني هامسة :

ــ أنا مع أمي واطفالي . ويسرنا ان تتناول معنا كأسا .

ــ هذا لطف منك . سأمر بعد قليل .

ــ سأنتظرك .

وعدت لاشرب وابدد هذا الضباب من التردد المفاجيء . أأتركها منتظرة عبثا بجمالها الخريفي الاسر ؟ وكانت كالثمرة اليانعة بعد نضج طويل . ان فتنة امتلائها ، وهي في الخامسة والاربعين ، فتنة هذه الغابات والحدائق الخريفية المثقلة بالثمر والهمسات . وانصرفت لانقر بابها نقرا خفيفا .

وفتحت مرحبة باسمة في خفر أخاذ فاتن . كان ابنها الصغير نائما . وكانت ابنتها وامها ساهرتين . وكانت ابنتها في السابعة عشرة . اجلستني المرأة جوارها واخذت تصب لي . وحين رقصنا أحسست بها حارة لدنة . وكان وجهها يتورد خجلا ورغبة ، وهي تهمس لي :

ـ انني ثقيلـة •

ـ بل انت جميلة جـدا •

وفي الساعة الثانية كنا وحدنا • وكانـت اكثر ترددا منـي • غير انها الفودكا • وكان شعرها الكستنائي الداكن محلولا قليلا • فبدت اكثر فتنة • قلـت :

ـ مارأيك في جـولة صغيرة ؟

ـ في هذا الوقت المتأخـر ؟

ـ أليس بديعا ان تتمشى تحت الثلوج المتساقطة ؟

ـ طيب • مادمت راغبا •

ـ ألن تتركي ورقة لامـك ؟

ـ هل سأتأخر معك طويلا ؟

ـ وهل تظنين انني سأفترق عنك بعد ساعة او ساعتين ؟

ـ لابأس • ستعرف امي انني عند اصدقاء •

ـ سأنتظرك في الزقاق •

ـ طيب • هكذا افضل •

وجاءت متهادية بثقلها وطراوتها • وانعطفنا ، تحت الثلوج الحثيثـة ، حول البريد باتجاه منزلي • كان المصعد في الطابق الاول ففتحته وصعدنا • ولم تقل شيئا في غرفتي • كانت واقفة ، خافضة رأسها • واحطتها برفق بين ذراعي ، ورحت اقبل وجهها وفمها • ورجتني ان اطفيء الضوء •

وعدت بعد قليل • كانت متمددة بطولها كله ، عارية تحـت اغطيتي • اشعلت ضوء الطاولة ، وانتزعت ثيابي • كانت منتظرة ، منفتحة لي كالخليج ينفتح هادئا منتظرا • وحالما انغلقت علي ماجـت أمواجها •• بعـد ساعات تراخى ذراعاها عني قليلا •• وكانت كالسفينة المثقلة التائهـة لاحركة لها أو

اتجاه غير حركة الريح لاعبة بها في أيما اتجاه تريد .

حين أفقت كانت نائمة . نانسحبت في هدوء . وعـدت وهي لما تـزل نائمة . وغفوت ساعة . وصحوت لاجـدها متمددة عارية دافئـة . وكانت يقظى . ورجت الاطف بيدي ثديبها وبطنها الوثير . فتسللت يدها لتمسك بي بلطف . وكان تموجها ، هذه المرة ، بين ذراعي ناعما كحلم .

وكنت مع جيلي مرة ، في مقهى الفندق . وكنا ضجرين . فخرجنا بحثا عن صيد طائرين عابرين . كان الليل باردا ، والسماء مكفهرة قاتمة . كانت الجولة باطلة فيما بدا لنا . وأراد جيلي أخر ، الامر ، أن نحاول مع فتاتيـن كانتا في كشك التلفون تتحدثان . وقد لاحتا لنا من اللاهيـات المرحات . وخرجتا فأقتربنا منهما ، فأعرضتا عنا ضاحكتين . ورأينا ان تتلفن لغائـب . قال ان لديه زجاجة كونياك ، وهو في انتظارنا في شقتـه . وفي عربة المترو ، في الجهة الثانية كنت أرى سيدة من ألهات الخطى المتثاقلة . كانت ترتـدي فراء رائعا ، وتلف تسريحتها الشقراء العالية بمنديل مخرم ابيض كبير . ولم تكن ملتفتة لاحد . كانت مسبلة أهدابها الطويلة ، غاضة بصرها . وقفنـا لنهبط في مترو الجامعـة . فسبقتنا نازلة . وكنـت أتأمل ساقيها الرائعتين معجبا . وقلت لجيلي انني سأحاول معها . فرد علي ناصحا :

ـ اترى مشيتها الراقصة وفراءها ؟ لاأظنها ستقنع بغرفة طالب .

ـ مع هـذا

ـ ولماذا تتبعها عبثـا ؟

ـ انتظرني خمس دقائق عند واجهة المحطة . فأذا لم اعد فأعلم انـي عائد بها الى مطعم ما .

ورأيتها تقف عند كشك الجرائد ، تتصفح مجلة ما . اتراها أحسـت بتتبعي لها ؟ من يدري ؟ واجتازت شارعا لتدخل مخزنا . كانت البائعة تعرض

عليها نماذج من معاطف جلدية • وكنت واقفا جوارها صامتا • وخرجت فتبعتها • ولعلها وجدتني مترددا فأسرعت من خطاها • كان الزقاق رطبا عاتما • وكان الثلج يتساقط خفيفا • ولحقت بها أسألها عن الترام ٢٢ وأنا اعرفه منذ اول يوم لي في موسكو • فأجابتني ، وفي صوتها رنة رضا وارتياح :

ـ هو هناك • ليس بعيدا •

ـ أذاهبة انت اليه ؟

ـ أجل •

وسألتها عن رقم منزل أدري انه في طريق الترام •

ـ سأخبرك حين نمر عليه •

ـ ألديك وقت لاتحدث قليلا معك •• بعد سماحك بالطبع •

ـ تفضل •

واتجهنا في غير ناحية الترام • كنا نسير في ساحة أو عراء خال شبه عاتم • وكنا ندور بلا اتجاه ما • قالت انها طبيبة ، وان اسمها ايما • وادركت أنها تخترع هذا • كل شيء في حركاتها وهيئتها يذكرني بفنانة من المسرح • كانت راقصة •• راقصة باليت في البولشوي • وهذا ماعلمته منها فيما بعد • وتحدثنا حوالي نصف ساعة • وكنا نطوف الساحة المقفرة ، والجو بارد ، والسماء سوداء حالكة • فأقترحت عليها ان نعرج على مقهى • وتلفتنا حولنا ، فلم نر آية لافته تنبيء بمقهى أو مطعم • فدخلنا المترو عائدين • وازاء فندق موسكو أقنعتها ان تجيء معي الى غرفتي • كنت أقول :

ـ اني لاود أن أنادمك في مكان هاديء •• مع الموسيقى الحالمة ، وبعيدا عن ضجيج الاخرين •

ووقفنا ننتظر دورنا في موقف التكسي • وفي التكسي سمعتها تقول :

ـ انك تسكن بعيدا تقريبا •

كان المخزن يغلق في التاسعة • وكانت الساعة التاسعة الا ثلثا • فلم اجد بدا من ان ندخل المخزن معا • فأحبت ان تنتقي مايلائمها • فأقترحت زجاجة فودكا ، وسمكا معلبا وخضرا بلغارية • وفي مصعد البيت سألتني •

ــ هل عرفني أحدهم ؟

ــ وأي ضرر في هذا ؟

كان الموقف معطلا في الطابق الخامس • فهبطنا في السادس • وفي نزولنا ، كان اوكاجين ، الطالب السكير من ألتاي ، ممددا فوق السلم في اغفاءة عميقة • كان بنطلونه مبللا ، وبالقرب منه بقعة رطبة • قالت كالساخرة :

ــ اهكذا يسكرون هنا ؟

ــ ماحدث هذا الا صدفة •

وحين أعنتها في نزع فرائها رأيت أي قوام تمتلك ! كانت اكتافها ترتعش في اختلاجة أخاذة • وسألتها ان تفحصني مادامت طبيبة • فضحكت ضحكا صافيا • وسمعتها تقول بين يدي ونحن نرقص :

ــ لااعرف كيف ارقص بالكعب العالي •

ــ مع انك راقصة رائعة •

ــ اعني أنني لم اعتد الرقص في حذاء بكعب مرتفع •

وكانت الثلوج منهمرة طوال الليل • وكان قميصها الحريري الابيض ملقى فوق الكرسي كطائر البحر المنهك فوق موجته •

ثم عادت لينا •• وعدنا نلتقي كل ليلة في العاشرة ، وفي السابعة كل مساء سبت • وقبيل العطلة الصيفية ، ولينا تتمتع باجازتها في القرم ، كنت عازما على تهيئة اوراقي لارحل جنوبا • وكانت الاستاذة الشابة راغبة ان نقضي العطلة معا في منتجع تابع لاتحاد الكتاب • واتفقنا ان نحجز غرفة في قطار واحد • وفي القطار ، طوال الليل ، كانت بين ذراعي ، وكأننا في ليلة الزفاف • كان السرير ضيقا بنا • وكان جسدها أخذا سعة السرير كلها • وكانت حركة القطار هي حركتنا •• تلك الليلة المائجة المختضة العارية •

حلم يتحطم

في النهار ، فوق رمال البحيرة ، كنا نستلقي بعيدا عن السابحين . كنت امرغ وجهها وعريها بقبلاتي . وسريعا ماانطوى الشهر كحلم . وفي الشتاء كانت لينا متعلقة بلقائنا اليومي تعلقا غريبا . أحيانا تطرق علي بابي في أية ساعة تشاء . كانت تريد ان اقرأ في شقتها حتى العاشرة لنخرج بعدها في جولة . بل كنت أفاجأ بها أحيانا صاعدة بالمفتاح ، لتنتظرني في الغرفة ، قبل عودتي بمدة . ومرة كنا راجعين من المخزن . ومرت بنا امرأة شابة فحيتنا بلطف باسمة لي . قالت لينا مغتمة :

– أهي صديقة قديمة ؟

– هذه طبيبة اسنان في المستوصف المجاور .

– آ .. انها جميلة . اتمر عليها لتفحص لك .

– كلا .. رأيتها صدفة قبل ان التقي بك .

– أية رقة في ابتسامتها لك .

– قلت لك انني كنت اعرفها قديما .

– فلماذا هذه العصبية في صوتك .. مادام الامر هكذا ؟

ـ لانك تسألينني متشككة •

ـ ومن أين لي ان اعلم ؟ انت حر على أية حال •

ـ اتذكرين انني سألتك يوما عن احد بادرك بتحية ؟

ـ أنت فعلا عصبي المزاج •

ـ وان لك تقطيبة رائعة !

ـ لاتنس انك رجلي •• بالرغم من اننا لم نوقع أية ورقة •

ـ سيأتي يوم •• نندم فيه ندما مريرا لاننا لم نوقع هذه الورقـة • وانت تعلمين أي شقاء ينتظرني بعيدا عنك • ستجف شفاهي ظمأ الى جلدك ، ويتخشب ذراعي بحثا عنك في صحراء حب لن يكف لحظة عن تشوقه اليك • أجل • بعنادك هذا ستجعلين من أيامي القادمة نهرا يابسا ، ضائعا في القفار •

ـ مابك ؟ يمكنك ان تبقى معي هكذا حتى أخر يوم لي •

ـ وبغير ان نقترن ؟

ـ الم نقترن في اول لقاء في الحافلة ؟

واضافت ضاحكـة :

ـ ثم أنني سأحبل منك •

ـ أتمزحين ايضـا ؟

ـ كلا • انا جادة • ولقد وعدت أمي أيضا • في اخريات الربيع سأكون في شهري الاول • هوذا قراري • سترى •

كانت الثلوج تتكوم في أخاديدها • وكنا تتجول بعد العاشرة أو نرجع مرحين من السنما • ومرة كانت تقول مازحة ، وثلوج الليل تتساقط حثيثا :

ـ ارأيت في قبو المرمى كيف كانت تتأملك تلك الفتاة الشقراء ؟

ـ اسمعي •• حلمت البارحة وكأنني أراك لاول مرة •

ـ حقا ؟ اكان هذا في حافلة ؟

ـ كلا •• في بارك غوركي • وكنت تتزلجين راقصة مع الموسيقى •
ـ لن انسى يوما اية نظرة حزينة كانت لك حين رأيتك في الحافلة !
ـ كنت ، مرة ، واقفا في انتظار الباص قبالة الجامعة • كان الوقت ليلا •• وكان هذا قبل ان التقي بك • وكانت هناك فتاتان تنتظران • كنت وحيدا قانطا • وسمعت احداهما تقول رانية الي : أية نظرة حزينة ! فادركت اية تعاسة اعيش ! وأية وحشة !
ـ واضح انها تريد اجتذابك اليها • ألم تتقدم اليها •
ـ كلا • ظللت واقفا •
ـ الم تكن جميلة ؟
ـ بل كانت • انما كنت يائسا •

كان أخر شتاء • أكنت أحس بفراغ ذراعي الابدي بعد شهور ؟ أكنت أعلم اي شقاء سأعيش ؟ كانت الزوبعة الثلجية تلتطم عبر النافذة • وكانت لينا في ثوبها المنزلي الاحمر القاتم • وكنت اقطع الرنجة ، متمتعا بطعمها المالح بعد جرعة فودكا • وكان وجه لينا الشاحب ضاحكا • وكنت اتلمس عري ساعديها البديعين متلذذا • وفي الثانية بعد منتصف الليل ، والطرقات مقفرة وحيدة ، كانت تتقلب بين ذراعي ، والزوبعة الثلجية تئن وتقهقه • وحين نعود مع هذه الزحمة المرحة الخارجة من السينما •• كنت أرى المصابيح المتوهجة الباردة وكأنما تحاول شيئا في أذابة الثلوج •• وكأنما الاشجار العارية المتجلدة تحاول ان تتنفس • والطرقات تبتل • والثلوج تذوب • والوحدة كامنة في كل خطوة •

وحدة قاحلة منتظرة •• في مثل قحول العمود المعدني المنفرد في البرية • وكنت أحس بالبلل في قلبي ، وتحت قدمي • وكان الربيع يدب هزيلا باردا •

فهـرسـت

منشورات

مكتبة دار الكندي

بغداد — الحارثية

هاتف : ٥٤٢٣٨٨١
٥٤٢٨٠٩٨

سعر النسخة ٢٫٧٥٠ دينار

رقم الايداع ٥٣١ في المكتبة الوطنية ببغداد لسنة ١٩٨٦

مطبعة الديواني — بغداد
هاتف : ٨٨٧٦١٩٧